A.U.C. LIBRARY

181.07
I649yaA
c.2

فلسفة إقبال

والثقافة الإسلامية في الهند والباكستان

تأليف

محمد حسن الأعظمي
عميد كلية اللغة العربية بكراتشي
وسكرتير مؤتمر العالم الإسلامي الدائم

الصاوي علي شعلان
دبلوم اللغات الشرقية
من جامعة فؤاد الأول

[جميع الحقوق محفوظة]

[١٣٦٩ — ١٩٥٠]

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

Cat. 230.4.53

العلامة محمد إقبال
شاعر الباكستان وفيلسوف الإسلام

منـــاجاة روح

للأستاذ الكبير أمين الخولى

رئيس القسم العربى بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

تكون نجوى روح لروح ، وهمس قلب لقلب ، وفهم نفس لنفس ، إذا ما شمل النفسين شعور ، وغمر القلبين نور ، وجمع الروحين هدف ، واتحد مثل.

وبذاك يتحدث الإفريقى الدار ، العربى اللسان ، عن « إقبال » الأسيوى الموطن ، الأوردى اللغة ، ولو لم يهتف « إقبال » بالعربية ، أو يتحرك لسانى بالفارسية أو الأوردية .. إذ تناجى بالإسلام الروحان ، وتهامس بالإيمان القلبان وتآلف على الحق النفسان .. وتمت كلمة ربك .. لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولـكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم .

* * *

تبارك الله .. هذا الإسلام حيوية زاخرة ، فى روحانية باهرة .. وإنسانية سامية ، فى واقعية عاملة .. دنيوية كأنك تعيش أبدا ، وأخروية كأنك تموت غدا ... بذلك يخلد الإسلام ، وكذلك يفهم الإسلام .. ومن أجل ذلك تشترك فى هذا الفهم قوى الإنسان جميعا ، وتتعاون ملـكاته كافة ، وتتكامل مواهبه عامة ؛ فإذا كل أولئك النشاط الإنسانى قائم فى خدمة الإسـلام ، ملحوظ

بعنايته مشارك فى حمايته ، مؤيد برعايته : فالعلم قوته ، والفن آيته ، والفلسفة حجته ، والحياة صنيعته .. وهو بذلك حىّ ، قوي ، متجدد ، باق على الدهر ، ناهض بالبشر إلى ما تستطيع قواهم أن تناله من مثالية وسمو .. ينهض وينهض إذا ما ائتلف ، وفيه ذلك المزاج الإنسانى المتكامل ، من النشاط العقلى ، والوجدانى ، والعملى ، فقام كل واحد منها بنصيبه ، وأسهم بحظه ، ووُفق لوجهته ، وأحكم خطته ، فإذ ذاك ترى الحياة الإسلامية الصالحة المصلحة تعهدها ... فإن اضطرب الاتزان واختل ميزان تلك الصنوف من النشاط ، فانحرف واحد منها عن قبلته ، أو طغى فرع منها على إخوته ، فالحياة الإسلامية واقفة متخلفة ، لا صالحة لعهدها ولا مصلحة ... لم يتخلف ذلك الارتباط أبدا لا فى ماض بعيد ، ولا فى أمس قريب ، ولا فى حاضر شاهد .

* * *

جاء الإسلام أمته ، وهى تتأهب لدورها الخطير فى التاريخ ، قد هزتها نهضة فنية قولية .. والنهضة الفنية طليعة النهضات ورائدتها دائما فى حياة الأمم .. وكذلك اعتمد الإسلام على هاتيك النهضة الفنية ، فكانت آيته على دعوته ، لوناً من الفن القولى باهراً ، سمته العرب حين بهرها سحراً .. وكذلك كان الفن آية الإسلام الخالدة الكبرى .. ثم تقدم يستعين بالفنون ، فاستنصر بالشعر ، ووعظ بالخطابة ، وقاتل بالموسيقى ، ورفع عمائر المعابد والمعاهد .. وفى كل ذلك كان الفن فى الحياة ، ومن الحياة وللحياة ـ فعرف الإسلام له مكانه ، وقدر

منزله ، وكان الفن الحق تساميا نفسيا ، يسامت الدين الحق ، وليس هو إلا تساميا روحيا .

ولما آض الفن بعد ذلك ترفاً ، وملهاة ، وخلاعة ومشغلة ، ليس من الحياة بما هي نماء مطرد وتجدد مستمر ؛ ولا فى الحياة بما هى حفظ للذات وحفظ للجنس ؛ ولا للحياة بما هى تطور وتقدم ... وإذ ذاك كان الفن الذى ليس من الفطرة آفة الإسلام وحياته .

* * *

أتمت العرب سائر نهضاتها ، بعد النهضة الفنية ، فنهضت النهضة الدينية الخلقية الاجتماعية ، ثم النهضة السياسية الحيوية ، حتى صارت إلى النهضة العلمية ، ففتح الإسلام للعلم صدره وبسط يده وكانت الفلسفة إذ ذاك مجمع المعقول من العلوم نظريها وعمليها .. فاستنصر «الكلام» بالمنطق.. وواءم الدين بين أصوله وأصول الفلسفة الإلهية ، وما يملك من وسائل معرفة حقائق الأشياء على ماهى عليه..ودفع أهله إلى الرياضيات، والطبيعيات ، والإنسانيات يلتمسون منها ماعرفت الدنيا حولهم من قبلهم، ويزيدون ذلك تفكيرا وتدبيراً وتطبيقا.. فكانت للإسلام فى حيويته فلسفته ، وتقدمت بذلك حياته وحياة أهله ، ما عاشت الفلسفة وعلمها نشاطا عقليا ، وطموحا فكريا ، وجهادا علميا .

فلما آض ذلك جمودا مقلدا ، وترديدا لفظيا ، وتعقيدا قوليا ، بل طلاسم من العبارات وشكوكا تدوّن، وشبهات تردد، لايعانيها فكر متحرر ، ولاتثيرها حرية مفكّرة .

إذ ذاك فسد ما بين الفلسفة والإسلام ...

* * *

وتسير الحياة الإسلامية سيرها ، فتتصل الروح الإسلامية بالصوفية العالمية وتتنسم أنسامها النشوى ، فيفسح الإسلام آفاقها ، ويرفع الحجب عن سدرتها ، ويصفى أنفس أهلها بأرق ما يسعها من صفاء ، فتخطر على مسرح الحياة الإسلامية صفوة من الأرواح المستشفة والنفوس المحسة ، والوجدانات المرهفة ، شعرت ، ووجدت ، وهامت ، وتفانت ، فاعتزت بدينها وتوجت هامها الشعث بتاج عزته ، وأسبغت على أجسامها النحيلة رداء جلاله ، وقبضت بأكفها المعروقة على صولجان عزته ، فكانت مدلة بفقرها المذل ، فخورة بتجردها المقل ، غنية بزهدها المحروم ، ترهب الملوك ، وتبكى السلاطين ، وتؤدب الأمراء ، فكان تصوفا مجاهدا ، مرابطا ، مصلحا مهذبا ، مترفعا ، يمشى على الأرض ، وقد أسجدت له الأفلاك فى السماء .. كان تصوفا فى الحياة ، ومع الحياة ... ثم دار الزمن دورته ، فإذا التصوف خرقة ، وشعوذة ، وتحلل واستباحة ، وإذا جهاده فى الحياة هو أكل البهائم ، ورقص الذبائح !

هناك أنكره الإسلام إنكارا ، وأقصاه إقصاء .

* * *

تباركت يارب . وهذا الإسلام فى ماضيه البعيد ، وأمسه القريب ، وحاضره الشاهد : حيوية زاخرة فى روحانية باهرة ؛ وإنسانية سامية ، فى واقعية عاملة ، دنيوية كأن ستعيش أبدا ، وأخروية كأن ستموت غدا .. يخدم كل نشاط

إنسانى ، من علم ، وفن ، وتدين ، وتصوف ، وتفلسف ؛ مادام ذلك كله متكئاً على الفطرة ، مستمداً من نواميس الحياة ، فإذا ما ضل ذلكم النشاط سواء السبيل . أسعفت الاسلام حيويته الخالدة ، المقاومة المحتملة ، فتربص ينتظر ، حتى تدور الحياة دورتها ، وتثوب إلى صوابها ، فإذا هو راسخ العرق ، وطيد الأساس .. كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

هذا هو الإسلام ، وقد مرت به حقب ، لم يكن التدين فيها تدين حياة ، ولم يكن الفن فيها فن حياة ، ولم يكن العلم فيها علم حياة ، ولم يكن التصوف فيها تصوف حياة .. وقد خرج الإسلام من تلك الحقب صامدا ، يرقب دورة الوجود ، فى حيويته الزاخرة ، وإنسانيته السامية ، وروحانيته الباهرة ، وواقعيته العاملة ، ودنيوية كأنك تعيش أبدا ، وأخروية كأنك تموت غدا .

هذا هو الإسلام اليوم يبتغى من أهله تدينا فى الحياة ، وعلما بالحياة ، وفنا من الحياة ، وفلسفة للحياة ، وتصوفا مع الحياة .

هذا هو الإسلام اليوم ، وهذه طلبته ، وقد أبلس الأدعياء ، وأفلس المتجرون وخارت قوى الجنود المرتزقة ، فما يحسنون بيانا ، ولا يحيرون جوابا ، ولا يقوون على دفاع .. بل لا يدعون حيوية الإسلام المذخورة تحفظ نفسها ، وتجادل عن نفسها ، وتدفع قومها إلى الأمام دائما .. وإنما يضعون ببعدهم عن الحياة ، وجهلهم بالحياة ، وسوء منزلتهم فى الحياة ، يضعون عقبات وعقبات فى

سبيل هذه الحيوية الإسلامية ، ولو قد كان الإسلام حكرا على هيئة ، ووقفا على طائفة ، وحقا لجماعة ، لوقع اليأس من أن يستطيع هذا الإسلام أن يجد مكانا فى الحياة اليوم أو غدا !!

لكن .. لا ـ إن هذه الحيوية الزاخرة ، والروحانية الباهرة لأقوى وأبقى وأصلح للحياة من أن تحتكم فيها هيئة ، إذ تحتكرها منه ، أو تنفرد بالقول فيها جماعة ، أو تستأثر بالدفاع عنها وتختص بالذود عن حماها طائفة من جند ذوى شارة معينة ، وسمت خاص ـ كلا ، بل إن هذه الحيوية لروح تحيا بها العقول القوية كلها ، والقلوب الكبيرة جميعها ، وينفر للدفاع عنها كل فدائى حر ، وكل مؤمن موقن وكذلك تنصره ألوان وألوان ، وتدعو له لغات ولغات وتفهمه أمم وأمم ، وتحيا به أنفس وأنفس ، ويملك القول فيه علماء وحكماء ، وفلاسفة ومتصوفون ومتفننون ، ماسلمت فطرتهم ، وسمت عقولهم وأدركوا سنن الوجود ، ونواميس الكون ، وقوانين الحياة ..

هذا هو الإسلام يقيض الله له كل حين من أهله ، ولو لم يتسموا بسمة اللاهوت ، ويتزيوا بزى خاص ، من يكون له لسان صدق ، وداعية حق ، يهبه الله بين تلك الحيوية الزاخرة فى الإسلام نفحة ، ومن تلك الروحانية الباهرة لمحة ، ومن تلك الإنسانية السامية نفثة ، فيتقدم حاملا القبس الإلهى ، والشعلة السماوية ، فى صورة حكيم رشيد ، أو عالم مجدد أو متصوف مترفع . أو فنان حساس ، أو متدين مستنير ، أو بطرف من ذلك كله يأتلف فى شخصية نبيلة . تتقدم لتضىء للإنسانية طريقها ، إلى غد أسعد ، ومستقبل أمجد .. وقد

وهب الإسلام كل حين هبات من هؤلاء ، دفعوا حياته قدما ، أو حموها من تقهقر ، وأمسكوا عليها ذماء ، اتصلت به الحياة ، وحفظت الأمانة وبلغت الرسالة .

ومن تلك الإنسانيات الإسلامية التى سعد بها الإسلام فى العصر الحديث:

« إقبـــال »

الذى كان متدينا فى الحيـاة ، ومفلسفا للحيـاة ، ومتفننا من الحياة ، ومتصوفا مع الحياة ، ولا أزيد على هذا شيئاً فى وصفه ، من قول أحد أو بيان أحد ؛ كما لا أحاول فى هذا المقام أن أصف تدين إقبال ، أو حكمة إقبال أو فن إقبال ، أو تصوف إقبال ، لأن ذلك لايدرك إلا بوجدان موات ، وروح تتلقى عن روح إقبال ، فإن كان فى هذا الكتاب الذى فى يدك ما ينعش وجدانك ، ويسمو بروحك من آثار إقبال فربما ، والتمس من ذلك المزيد ، ولاتفهم « إقبال » بقول أحد أو عقل أحد ، لأن « إقبال » نفحة حياة تتلقاها الأرواح أنفاسا وأنغاما وأحاسيس ، لا كلما ولا جملا ولا قضايا .. ولو أبت الظروف إلا أن أقول شيئا عما وجدت من روح « إقبال » لما زدت على ترديد أنغام من كلمه .

فإقبال المتدين فى الحياة يفهم الإسلام الحيوى فإذا هذا الإسلام : حقيقة عالمية .. وطابع الشرق ووحدة بلا تعصب .

وإقبال المتصوف مع الحياة ، يدرك معنى فقر الصالحين . فإذا هذا الفقر :

تيسير الجهود ، .. وتسخير الوجود .. وسراج لوظهر يخجل الشمس ، ويزرى بالقمر .

وإقبال المتفنن من الحياة ، يتذوق الخلود ، ويتذوق الحياة ، ويحدث عن ذوق الخلود ، وذوق الحياة حديث الآخرين عن ذوق ما يطعمون ويشربون .. وهو روح واجدة ، فى صدره جوهر من القلب نادر ... الشعر عنده حق قبس من القلب نارا .

وإقبال الذى كان كل أولئك فى الحياة حقيق بأن يقول :

«الحياة الجهاد والجد والوثـ بةوالعزم ماضيا والبكور»

ذلكم إقبال الذى هو فى الحق نفحة من حيوية الإسلام الزاخرة ، ولمحة من إنسانيته الباهرة ، وسنا من روحانيته السامية فى واقعيته العاملة » .

* * *

والسيد محمد حسن الأعظمى صاحب الجد الحيوى ، فى خدمة الأخوة الإسلامية فى مصر والهند ، وصاحب النشاط المشكور فى نشر العربية فى الباكستان ، والعامل على أن تكون لغة القرآن الكريم لغة ثقافية للمسلمين من كل أمة والمفاضل فى سبيل التواصل والتعاون الإسلامى بتأصيل نظام مؤتمر العالم الإسلامى الدائم ، قدتقدم ففتح للعربية وأهلها آفاق تلك الروح الكبرى ، وكان الأستاذ الصاوى على محمد شعلان بأدبه وفنه وإسلامه خير عون على تحقيق هذا الفتح الروحى فأخرج فن إقبال ، وتصوف إقبال ، وتدين إقبال وحكمة إقبال بروح تجاوبت مع روح

إقبال كما يجد القارئ حيوية المعانى ، وبراعة الأداء، وقوة النفس التى تشعر كل ذى حس أدبى بما يجد من الفن ، وإن لم يسعف القول على تبيينه ؛ سيجد القارئ فرق ما بين معان فى روح إقبال تناولتها أقلام واحتوتها أوزان ، ليس لها روح إقبال فبدا الفرق رهيباً مخوفا وليت الزميلين الكريمين يكونان قوة دائمة دائبة تنفح العربية تلك الأنسام المنعشة ، وتحلق بها إلى تلك الآفاق العليا ، فيقدمان للإسلام فنا من الحياة ، هو أحوج ما يكون إليه اليوم ليأخذ مكانه فى الحياة .

أمين الخولى

فهرس

الكتاب الأول

فى فلسفة إقبال

٣ إقبال شاعر الباكستان .

١٨ مات الرجل العظيم محمد إقبال .

٢٢ الخطبة التى ألقاها إقبال فى حفلة الرابطة الإسلامية .

٢٩ اتحاد الهند القومية .

٣٢ « هند إسلامية » باكستان .

٣٥ دستور الهند .

٣٨ اختلاف المسلمين دمار لأمتهم .

٤١ إقبال والبر بالفقراء .

٤٥ البر بالفقراء والرابطة الإسلامية .

٤٦ العشق والجمال .

٥٠ خلود الحياة فى فلسفة إقبال .

٧٩ مقدمة شكوى وجواب شكوى .

٨٥ شكوى .

٩٣ مقدمة جواب شكوى .
١٠١ جواب شكوى .
١١٠ فاطمة الزهراء .
١١٢ صوت إقبال إلى الأمة العربية .
١١٥ فقر الصالحين .
١١٧ تصوير الألم وتجديد الأمل .
١٢١ عزيمة المسلم .
١٢٢ النشيد الإسلامى .
١٢٤ نشيد الأخوة الإسلامية .

الكتاب الثانى

فى المتفرقات

١٢٩ أمثلة من شعر إقبال .
١٣٩ فى حفلة الذكرى .
١٤٥ شعر إقبال .
١٥٣ محمد إقبال شاعر الإسلام .
١٥٥ اللغة الأردية .
١٥٧ المقارنة بين الأشعار العربية والأردية .
١٦٣ قصيدة لسفير الحجاز فى الباكستان .
١٦٤ قصيدة لمعالى الشريق باشا .

الكتاب الثالث

فى الثقافة الإسلامية فى الهند والباكستان

١٦٧ أحسن السير لشبلى نعمانى .
١٧٢ عائشة أم المؤمنين لسليمان الندوى .
١٨٢ حكمة التكرار فى آيات القرآن الكريم .
١٩٤ مقام المرأة فى الإسلام .
٢٢٠ لمحات مترجمة .
٢٢٠ مبادئ .
٢٢٠ الأخوة .
٢٢٣ المؤاخاة فى الاسلام .

الكتاب الأول
في
فلسفة إقبال

إقبال شاعر الباكستان

كان مولد الدكتور السير محمد إقبال سنة ١٨٧٦ من أسرة برهمية الأصل اعتنقت الإسلام منذ ثلاثة قرون وهاجرت من كشمير أمام الحوادث إلى البنجاب حيث استقرت بها آمنة مطمئنة ، وبدأ مراحل تعليمه فبدت عليه مخايل النبوغ ودلائل الذكاء فكان يتفوّق على لداته ويسبق أقرانه ويفوز بالجوائز العلمية من الكلية بلاهور حيث تلقى بها الفلسفة على السير توماس آرنولد الذى كان دائم الإعجاب والافتخار بتلميذه إقبال ولما أكمل دراسته وقع عليه الاختيار لتدريس الفلسفة بالكلية نفسها .

أما الشعر فقد أنشد إقبال بواكيره الأولى فى سن مبكرة وكان لسان تعبيره وريشة تصويره والمنبر الذى أعلن من فوقه رسالته الأدبية والمذياع الذى أرسل منه حكمته الإسلامية . والشعر كما يحدثنا عنه الشاعر صفى اللكنوى هو إبراز مكنونات العواطف القلبية فإن القلب اذا لم يكن عامراً بهذه العواطف كان الشعر المنظوم عديم الجدوى فالإنسان لم يفضل الحيوان بالعقل الذى هو مصدر المعرفة بل بالوجدان الذى هو مبعث الشعور والإيمان فإن الجذبات والمشاعر والعواطف هى النقطة الرئيسية الفاصلة الحاسمة فى ميزات الإنسان وعندما تتمثل هذه المشاعر والعواطف

ألفاظا تكون هى الشعر ، ولما انفرد به إقبال من المشاعر والأحاسيس الفياضة فى نظمه ارتجى منه الأدباء شاعراً كبيراً .

وفى سنة ١٩٠٥ سافر إلى كمبردج ثم إلى ميونخ ونال درجة الدكتوراه فى الفلسفة وقد استغل زمن إقامته بأوربا فأدى ما رآه لزاماً عليه نحو دينه ودافع عنه وجاهد فى سبيله مظهراً مزايا الإسلام مفنداً أراجيف خصومه وألقى عن الإسلام عدة محاضرات فى انجلترا ثم عاد إلى الهند سنة ١٩٠٨ فأحسن القوم استقباله وقد توسموا فيه الخير لأمته ودينه ومن ثم جرد قلمه ووقف بيانه وتفكيره وشعوره لإعلاء منار الإسلام ولقد سأله العالم الجليل السيد سليمان الندوى تلميذ العلامة شبلى نعمانى يوما أثناء زيارة إقبال لكابل بدعوة من جلالة نادر شاه ملك الأفغان عن سر بلاغته التى اكتشف بها أسرار الدين ومعالم الحق ووصل بها إلى أساليب من التعبير قل أن يصل إليها أهل الفقه والعلم وغيرهم من القائمين على أمر الهداية والتوجيه فقال إقبال « يرجع الفضل فى كل ماأنشأته من شعر أونثر إلى توجيهات أبى رحمه الله فقد كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح وكان يرانى والدى فيسألنى ماذا أصنع فأجيبه بأنى أقرأ القرآن وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألنى سؤاله فأجيبه جوابى وفى ذات صباح قلت له بعد إجابتى ولكن لماذا تسألنى عن شىء أنت بجوابه عليم فقال « إنما أردت أن أقول لك، اقرأ القرآن كأنه نزل عليك » ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه فكان من أنواره ما اقتبست ومن بحره ما نظمت » .

هذا ولما عاد إقبال من أوروبا إلى لاهور امتهن المحاماة وقدم العون لبنى ملته فى الكثير من شؤونهم العامة فازداد مكانة فى النفوس وتمكيناً فى السياسة والأدب حتى تخطى صيته ربوع الهند . ثم والى بعد ذلك رحلاته إلى مختلف بلدان المشرق والمغرب مما سنذكر عنه شيئاً فيما بعد .

كان إقبال ينشد الشعر بالأردية والفارسية وكانت الصحف تنشر له كثيراً مما ينشده فى المجامع والمحافل وقد جمع إقبال من أشعاره ديواناً أسماه «بانك درا» (صلصلة الجرس) وقد نشر غير هـذا الديوان عدة كتب منها أسرار خودى ورموز بى خودى (أسرار الذاتية ورموز الذاتية) وكذلك بيام مشرق وزبور عجم وجاويد نامة وجميعها باللغـة الفارسية وبال جبريل وضرب كليم وديوان بانك درا باللغة الأردية وقد وافته منيته وهو ينظم كتابه (أرمغان حجاز) ونصفه بالفارسية والنصف الآخر بالأردية وقد طبع هذا الكتاب بعد وفاته .

وقد ضمن منظوماته مناحى كثيرة من فلسفته وتفكيره وعواطفه تناول فيها العالم والإسـلام والأخلاق محاولا إيقاظ الشعور وإشعال الحماسة فى قلوب المسلمين خاصة والشرقيين عامة وفى ذلك يقول أحد زعماء الهنادك « إن إقبالا قد وضع المصباح على باب المسلم ولم يحجب نوره عن غير المسلمين بل أمكن للجميع أن يستضيئوا بنور ذلك المصباح . ولقد عدّه أحد سفراء الفرس من أصحاب الرسائل العالمية الإنسانية .

ولقد كتب منظومته جاويد نامة على صورة رحلة قابل فيها ملوك الشرق

ومفكرى المسلمين وقد أطلق عليها اسم أصغر أنجاله وكان يهدف بذلك إلى بناء جيل جديد . وقد أودع هذا الكتاب وكتاب بيام مشرق أيضاً حقيقة آرائه ومذاهبه فى الحياة ومناحى خياله وفنه فى الأدب وكان بيام مشرق هذا جواباً وردًّا على ديوان الشاعر الألمانى جوته وقد كتب عنوانه «ولله المشرق والمغرب» وقسمه إلى أربعة أبواب :

القسم الأول : شقائق الطور (لاله طور) وهو ١٦٣ رباعية .

القسم الثانى : أفكار وهو حوار بين آدم وإبليس أوضح فيه الكثير عن تسخير الفطرة وفصل الربيع والحياة الخالدة إلى غير ذلك من المحاورات الفنية .

القسم الثالث : (الخمر الباقية) [مئ باقى] وهو عبارة عن قطع متشابهات تحوى نزعة التصوف ممزوجة بفلسفة الحياة .

القسم الرابع : (نقش فرنك) أوضح فيه شيئاً عن كبار فلاسفة الأوروبيين وشعرائهم ورأيه فى كل منهم .

أما منظومتاه أسرار خودى ورموز بى خودى فهما تبحثان فى أسرار الذاتية ورموزها أو بعبارة أخرى أسرار الأنانية ورموز الإيثار ، شرح فيهما آراءه جاعلا للبحث فيها خطة واضحة فبين قوة الذاتية وضرورتها فى الحياة ودعا إليها ثم أوضح كيف تلتئم الفردية القوية الكاملة فى الجماعة وكيف تقوى الجماعة أو تضعف وكيف تصلح أو تفسد وقد شرح بعد مقدمتيهما موضوعات تتعلق

بأصل النظام وتسلسل الحياة بأطوارها فى أعيان الوجود وتخليق المقاصد وتوليدها وكيف أن الذاتية تستحكم من العشق والمحبة وكيف يضعفها السؤال وأنها تستطيع إذا استحكمت أن تسخر لنفسها قوى العالم الظاهرة والخفية كما بين أيضا مراحل تربية الذاتية وحصرها فى ثلاث : الطاعة وضبط النفس والخلافة الإلهية . ثم تكلم عن كيفية ظهور الأمة من اختلاط الأفراد وأن كمال التربية لابد أن يستمد من البنوة وأوضح أن ركن الأمة الإسلامية الأول هو التوحيد وأن الحزن والخوف واليأس أمهات الشرور ، والتوحيد وحده هو الذى يزيل هذه الأمراض من المجتمع .

ثم ذكر أن الركن الثانى للأمة الإسلامية هو رسالتها ومقاصدها من تأسيس الحرية وإيجاد المساواة والأخوة بين بنى آدم ثم يذهب بعد ذلك إلى القول بأن رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليس لها حدود مكانية أو نهاية زمانية وأن الإسلام نفسه وطن للمسلمين قبل أوطانهم وقد وافقت فكرة إقبال هذه ذوق مسلمى الهند فعملوا على تحقيقها ونهضوا إلى استكمالها .

وقد كان لإقبال من الآراء والفكر والتصورات العليا والأخيلة السامية ما يستعصى على الحصر وكل من درس شعره يلمس بعد نظره وصدق فراسته ويرى أنه تناول فى فلسفته أحوال العالم كله وضمنها قواعد وآراء حول القوة وهل هى قوة الفرد أو قوة الجماعة أو قوة الأخلاق أو أنها الاستقلال الذى يتحلل من التقاليد فلا يعرفها أم هى الحرية التى لا تضيق بها القيود والأصفاد

وكان هدفه من كل ذلك تهذيب الإنسانية وشرح حقائق الحياة وضرب المثل العليا للفضيلة والكشف عن أسرار الإسلام ومجد المسلمين الأولين محاولا جهد استطاعته أن يثير فى أبناء الجيل قوة وحماسا وأملا وإقداما فيتوجهوا فى معترك الحياة إلى كل غاية عندها شرف الدنيا والآخرة وعلى ضوء هذه الفلسفة العملية قال أحد الزعماء فى معرض حديثه عن إقبال : «ان إقبالا لم يفهمه المسلمون كما لم يفطن إليه الحكام الإنجليز فلو فهمه الأولون لتحرروا ولو فطن إليه الآخرون لما مات فى لاهور بل منفيا فى جزيرة أندمان (الماء الأسود) » .

وقد نقلنا على صفحات هذا السفر صحائف من شعر إقبال إلى اللغة العربية محققين بذلك ماتمناه الشاعر حين سأله أحدهم فى بعض مجالسه أن يأذن بترجمة شعره إلى لغات أوربا ليفهم الأوربيون الإسلام على حقيقته فيذهب عنهم سوء ظنهم فى تعاليمه فقال بالإنجليزية « ان أعمالى ستخلد وسترون أن كل معنى أرسلته فى قصائدى ستحمله اللغات بعضها إلى بعض ولكنى أريد أن يترجم كلامى إلى العربية أولا وقبل كل شئ ليصل إلى العرب صوتى وليفهم العالم الإسلامى أسرار قلبى » وكأننا الآن به وهو ينعم فى رضوان الخلود وقد تنسم روح الاطمئنان على ذلك الأمل الذى نبض به قلبه وظل ينبض به إلى اللحظة الأخيرة من حياته .

ومع ما كان عليه إقبال من استمساك بأهداب الفضيلة واتباع لمبادئ الدين فلم يخل تاريخ حياته من حساد تقولوا عليه الأقاويل لالشئ إلا للحط من قدره والتقليل من شأنه والغض من مكانته كعامل لرفعة الملة وعظيم

من عظماء الأمة الإسلامية وأمثال هؤلاء كثيرون فى كل دولة فقد أذاع أحدهم أن إقبالا كان يتعاطى المسكرات ويبادر زميل دراسته وصديقه فى مراحل الحياة خان بهادر محمد شفيع عميد الكلية الشرقية بلاهور سابقا بدحض هذا الافتراء الرخيص فيقول إننى لم أدع لإقبال لحظة من ليل أو نهار الا كنت فيها ألزم له من ظله وما رأيته مرة واحدة يتعاطى مسكرا وحسبك أن تعلم أنه طرد ابنه الأكبر وتبرأ منه لأنه لم يجتنب الخمر .

وإنه لمن أعظم النكبات فى الأمم الشرقية أن لا يكاد المصلح يبدأ رسالته حتى تنجم له النواجم من أمته وتدب له العقارب من أبناء جنسه لعرقلة خطواته وإضاعة مجهوداته وتأخير غاياته فبينما هو يبذل من ماله وجهده ويحرق نفسه بخورا لأمته إذا بالصيحات تعترضه من كل مكان وتخنق أنفاسه ، وفى أمم الغرب لا تكاد تلمع بارقة العبقرية فى نابغ منهم حتى يرفعوه إلى السماك الأعزل ويهيئوا له الأسباب ويغدقوا عليه الثروة التى تمكنه من الفراغ لأداء رسالته بينما تخفق العبقرية فى الشرق من فجر مهدها وترى قبل شروق الحياة مغرب لحدها .

هذه صورة عن حياة إقبال الذى قضاها باحثا فى أصول الإسلام متفهما فلسفته ثم ينظم أفكاره وآراءه شعراً يتغنى به الطلبة فى الكليات والمدارس، وكان لقب الدكتور علما بالغلبة عليه وكان الطلبة يصطفون لمشاهدته فى أيام عطلتهم وهو عائد من المحكمة فى عربته الصغيرة وبيده زمام قيادها بوجهه الأحمر وشاربه الذهبى وطربوشه التركى .

وعلى أن نشاط إقبال لم يقتصر على هذه الجهود الدينية الخالدة بل كان له

أثر كبير فى توجيهات الشباب السياسية فعندما كان سكرتيرا عاما لجمعية حماية الإسلام بلاهور وكانت تتبع الجمعية عدة كليات حدث أن أعلنت المقاطعة الاقتصادية فى الهند سنة ١٩٢٠ فذهب إليه الأساتذة يعرضون عليه فكرة المساهمة بالإضراب تأييدا لهذه الحركة فقال لهم أخشى إن أمضيتم ماتريدون أن تغلق الكليات أبوابها فتغلق عليكم أبواب الرزق فإن كنتم صادقين فى رغبتكم فعيشوا أولا على وجبة واحدة فى اليوم والليلة فإن وفقتم إلى إتمام هذه الخطوة من جهاد نفوسكم أبديت لكم رأيى النهائى . ويدفعنا الحديث عن آرائه السياسية إلى معرفة السر فيما سجله عن بعض تقاليد اليهود وأخلاقهم مما شاهده بنفسه عن أحوالهم فعندما وصل إلى لندن سأل الدكتور آرنولد أستاذه السابق أن يسكنه مع قوم يأكلون لحوم الذبائح بما يتفق وأحكام الشريعة الإسلامية، فتخير له الإقامة فى أسرة يهودية فذهب إليهم إقبال وقال لهم إننى مسلم ومؤمن بنبيكم كما تؤمنون به وعمل على إيجاد مودة بينهم مبنية على روح التسامح ولكن هل يفقه اليهود ذلك ؟ وهم الذين عبدوا من الدينار عجلا جسدا له خوار .. هو هذا المال الذى توارثوا عبادته عن العجل الذهبى الأول فلقد رأى أنهم لايشترون له شيئا من السوق إلا بعمولة مضافة إلى الحساب بطريقة لايفهمها غيرهم والتاجر الذى اتفقوا معه .

وكثيرا ما كان يبدى اقبال رأيه الصريح فى شىء من السخرية اللاذعة عند ما يجدأن الأمر يستوجب ذلك . وكان يقرن رأيه دائما بالمفاضلة بين دينه وما عليه الأقوام الآخرون بما يرفع شأن الإسلام ويعطى الفكرة الصحيحة

عنه فلقد سأله بعض زملائه فى جامعة كمبردج « لم يبعث الأنبياء ومؤسسو الأديان فى آسيا دون أوروبا؟» فأجابه إقبال « لأن العالم مقسم بين الله والشيطان، ولما كانت آسيا من نصيب الله كانت أوروبا من نصيب الشيطان، فقال قائل منهم قد عرفنا رسل الله فأين رسل الشيطان فأجابه من فوره انهم زعماء سياسة الخداع والمكر فى أوروبا» .

ومما يروى عن لذعاته وسخرياته ماتحدث به المستر آرنولد حين كلفه أن يصحب أحد شيوخ الهند الكبار ليريه مشاهد لندن وفى نهاية الرحلة جلسا معا فى أحد الأندية وتقدمت إلى الشيخ الهندى إحدى الفتيات بقدح القهوة ثم أخذت زميلاتها تتقدم الواحدة تتبعها الأخرى ليقبلن لحية الرجل ووجهه كما يقبل العابد معبوده التمثال، ولما شكا الضيف ذلك إلى آرنولد التفت إليه إقبال وقال لآرنولد كنت أريد ألا يرى ضيفكم لندن بعين واحدة فيرى منها الجانب الأبيض فقط .

وقد كان إقبال يرى أن جميع نواحى الحياة ينبغى أن تعرف على السواء ليؤخذ بصالحها ويترك الفاسد منها فلم يدرك الخير إلا بمعرفة الشر معه ورأى أن القدماء قد أخطأوا حين تعددت مذاهبهم حول الجسم والروح حتى ان بعضهم كالأبيقوريين يرى أن الجسم وملذاته من الشر أما الإسلام فيرى أن للجسم حرمته وأن الملذات من حقوقه وإنما وضع لها النواميس والحدود فمن تمتع بمطالب الجسم فى تلك الحدود الشرعية فكأنما فعل الطاعات ولقد تجاوز بعض زعماء تلك المذاهب الروحية حدود العقل حين تجاهلوا حقوق الجسم

ووجوده البتة فأصبح وجود هذا الجسم فى نظرهم جريمة لايكفرها سوى إبذائه كبوذية الهند واليابان والصين .

وقد يقول أصحاب تلك المذاهب إن متع الجسم من الكبائر ولو استرسل الإنسان فيها لم تقف عند حد فلا بد من إعلان الحرب عليها وإقبال فى أكثر قصائده يدعو المسلمين إلى نبذ هذه النزعة الابيقورية وهذه الرهبانية فى الإسلام.

ولقد جاء إلى لاهور سائح ألمانى وعند ما استكتب إقبال كلمة فى مجموعته الأوتوغرافية كتب له إقبال بيتا من الشعر الفارسى يفسر الذاتية فسأله السائح عن مذهبه الفلسفى فقال إقبال « كان آبائى براهمة فى الكفر وزهاداً فى الإسلام عاشوا يفكرون فى ذات الله ورأيى أن تكون بداية التفكير نحو قدرة الله فى ذات الإنسان فمن عرف نفسه عرف ربه» .

ولما كانت اللغة الأردية أكثر اللغات شعرا وشعراء لكثرة عدد المتكلمين بها ولأنها لغة موحدة لجميع الطبقات فى الهند بين المتعلمين والأميين على السواء، فقد كثرت فيها حفلات المطارحات الشعرية وقد وفد ذات مرة لفيف من الطلبة يطلبون إلى إقبال أن يقبل رياسة إحدى حفلاتهم المقامة للمشاعرة فقال لهم : «إننى لاأقبل الرياسة لأى حفل وانى أنصح لكم ألا تقولوا الشعر فالهند وبخاصة المسلمون فيها لايحتاجون إلى الشعراء وليس من المستطاع أن يكون كل إنسان شاعرا فإنى أرى شعراء هذا العصر يندفعون إلى الشعر إسرافا وارتجالا دون أن يتجشموا محنة التأمل وتكاليف النفوذ إلى أعماق المعانى ويظنون أن قول الشعر هو نظم الألفاظ وتقفيتها دون حاجة إلى مطالعة أو ثقافة عريقة وفهم

دقيق لمختلف العلوم والفنون ويريدون أن يشتروا شهرة رخيصة بنظم يسير فلست أرى إلا فى القليل منهم عنصر الوجود والحيوية والبقاء ، إنى أشفق على شبابكم وأنهاكم أن تسلكوا هذه السبيل المضلة وعليكم أن تقرأوا النثر وتسجلوا به أبحاثكم الطريفة النافعة وتترجموا الموضوعات الجديدة القيمة فتخدموا شعبكم الحاضر ومجدكم المستقبل » وما لبث أن عاد هؤلاء الشباب وقد انطفأت نارهم الثائرة إلى منازلهم ومكاتبهم ودروسهم لا إلى المشاعرة .

ومما يؤثر عنه أنه دعى إلى حفل بالكلية لتكريم بعض الأساتذة وتوديعهم عند بلوغ سن التقاعد ، فقال إقبال : « إننى قدمت رغم مشاغلى لأشهد جنازة وظيفة فلان هذا » فاستغرق القوم ضاحكين من هذه الطرفة الفريدة . وعند السمر سأله العميد وقد كان من كبار مفسرى القرآن بالإنجليزية وهو العالم الشهير عبدالله يوسف على ما رأيك فى الحجاب المتبع فى الهند والذى تختفى معه المرأة بجميع معالمها من الأنظار . فأجاب إقبال بأسلوب لا يدرك جماله إلا من يعرف الأردية وطرق المداورة فى أساليبها : « إننى أدافع عن هذا الحجاب لأنه يزيد الرغبة فى الملاح ولا يحرم منها القباح » .

ولما ذهب مع وفد المفاوضة إلى مؤتمر المائدة المستديرة بلندن واصل رحلته إلى روما وقابل السنيور موسلينى ، وقال له الدوتشى : « إننى أعجبت بما وصل إلىّ من أشعارك » وتحدث معه إقبال نحو ساعة وكان مما قاله إقبال : « إننى أرى إيطاليا فى حالة تشبه ما كانت عليه إيران قبل الإسلام ولكن قد كان من حسن حظ إيران أن وُجد إلى جوارها العرب الأقوياء فغزوها من البادية

بدم قوى جديد وأمكن لإيران أن تجدد حياتها وأن تخرج أبطالا جعلوها فى طليعة أمم المدنية العظمى وبتلك الدماء العربيـة قام فيها أعلام فن وحرب وسياسة ولما سقطت الروم غزتهم الجرمان بقبائل جديدة فقدّر لها أن تنشأ نشأة أخرى فى القرون الوسطى والآن تحتاج إيران وإيطاليا إلى الدماء الجديدة غير أن الأولى لا زال إلى جوارها قبائل مهذبة نصف تهذيب وفى غربها قبائل العرب التى لا تزال مستمسكة بمعنويتها القوية ، أما إيطاليا فـكل من حولها أمم متمدينة فقدت بداوتها القوية وفطرتها السليمة وأخشى أن تفقد إيطاليا عناصر القوة » . وقد تأثر موسلينى عند سماع هذه الحقائق المستمدة من التاريخ والعلم والاجتماع . ولعل موسلينى كان يتأثر أكثر من هـذا لو عاش حتى يلمس بعد نظر إقبال وصدق فراسته فيرى إيطاليا بعد الحرب متبلبلة فى أمر مستعمراتها بل وفى أحزابها الداخلية التى تسممها المذاهب الجديدة الهدامة .

وقد واصل رحلته إلى فرنسا فاسبانيا وهناك قال لمدير أحد الفنادق الكبرى فى قرطبة : « أين أحفاد العرب فى هـذه البلاد » ، فقال له المدر : إننى منهم ، ثم جمع لديه وجوها من خيارهم ، فقال إقبال ما ترجمته :

إلى اليوم تلك ظباء الحمى بأعينهن المراض الحسان
وألحاظها لم تزل قادرات على صيد أسد الشرى كل آن
وتلك المحاسن طبع الحجاز وهـذا النسيم عبير يمانى
نحىّ الحنـان وسكانها وإن زال سكان تلك الجنان

وقد قابل إقبال فى رحلته البروفسير آسن الذى صنف كتابا أثبت فيه أن الكوميديا الإلهية التى وصفها دانتى الإيطالى كلها مسروقة سرقة ظاهرة من الآثار الإسلامية ولا سيما أحاديث الإسراء والمعراج وما يتعلق بالجنة والنار. وكم كان إقبال يتمنى لو أرسلت البعوث الإسلامية إلى تلك البلاد لتعرف آثارها وقراءة مخطوطاتها وخصوصا ما كان منها بمكتبة اسكوريال.

ولقد رأى فى رحلته إلى إسبانيا مسجد قرطبة وقرأ الآيات القرآنية المسطورة بالمداد الذهبى بعد أن أزيل عنها طلاء الرهبان ولقد كان تأثره بمشاهدتها وقراءتها أعظم مما كان يؤثر فى نفسه عشرات المفسرين وهو يقول فى ذلك «لقد أحسست بالعطر والنسيم والجمال وفهمت لماذا اختار العرب بلاد الأندلس فهى المكان الذى لا يأسن فيه الماء ولا يتغير مع هوائه الطعام وعرفت لماذا اختار العرب هذا الوطن الذى انبعثت منه مدنيات العالم الحديث».

ولما قام فرانكو بالحرب الإسبانية الأهلية كان جنوده الفاتحون من مراكش، فقال بعض الناس لإقبال هاهم العرب مرة أخرى قاموا يفتحون الأندلس بعد ٥٠٠ عام فقال إقبال: هل قرأت قصيدتى عن قرطبة ثم أخذ يتلو منها.

أيها النهر الذى شاطئه ... جنة الحسن الذى تجلو النظر
فوق شطيك سرى فى مقلتى ... حلم الماضى الذى عنك استتر
غير أن القوم من سكرتهم ... فى حجاب خلف مجهول القدر

وأرى فى حلم ليلى يقظة قد تجلى لى ضحاها فى السحر
يزعج القوم ندائى للعلا لو كشفت الستر عن كنز الفكر

ولما أصدر إقبال كتابه جناح جبريل قال له قائل إنى قرأت تصنيف نتشه للمرة الثالثة ويخيل لى اننى أقرأه من جديد فهو طريف الفكرة عميقها قريب إلى الإسلام فى بعض أصول تفكيره ، ولعل أحداً لم يقدم إليه الإسلام فى عرض سليم وتفكير صحيح ولجهله بمبادىء القرآن ألحد فى فلسفته ، ولعله نفر من المسيحية لأنه وجد فيها أن الحمل الواهن الضعيف هو ابن الله ، ورأى أن الأخلاق فى المسيحية تبدو فى صورة الضعف . فقال إقبال : لقد أصبت اللباب وأدركت الصواب ، ولهذا السبب قلت عن نتشه إن قلبه مؤمن وعقله كافر .

وفى جناح جبريل يشبه إقبال نتشه فى كثير من الفكرة وقوة الأسلوب .

وكان لإقبال رأى خاص فى إنكار بدع الموالد والاتجار بالأضرحة ومقابر الأولياء ، ويقول عن مشايخ هذه الأضرحة : إنهم لو وجدوا حصير الزهراء ودلق أويس القرنى وكسرة أبى ذر الغفارى لأكلوا السحت من أثمانها » ومع أن هذا كان رأيه فإن بعض جمهور المواطنين يقيمون له مولداً كل عام فيطوفون بضريحه ويضربون بالدفوف حول قبره .

ويحسن بنا قبل أن نختتم هذه الكلمة عن إقبال أن نذكر الحادثة التالية :

اجتمع حول سرير إقبال قبيل وفاته بعض تلاميذه وقد وقفوا يذرفون الدموع فصاح أحدهم يدعو الجمع أن يبتهلوا إلى الله بقلوب خالصة أن يكشف

الغمة عن إقبال وأن يطيل عمره وما كاد القوم يهمون بالتوجه إلى الله مبتهلين حتى أشار إليهم إقبال أن انتظروا قليلا ، ثم قال لهم : « إن كنتم صادقين فى رغبتكم فاجعلوا ابتهالكم إلى الله أن يمد فى عمر القائد الأعظم محمد على جناح » وقد حققوا له رجاءه . ومنذ ذلك اليوم أطلق على « جناح » لقبه الذى عرف به القائد الأعظم .

المؤلف

مات الرجل العظيم محمد إقبال

(١)

قال الدكتور عبد الوهاب عزام بك فى محاضرته بدار الأخوة الإسلامية بالقاهرة يوم التأبين فى اليوم الحادى والعشرين من إبريل (سنة ١٩٣٨) والساعة خمس من الصباح، فى مدينة لاهور مات رجل كان على هذه الأرض عالماً روحيًا يحاول أن ينشئ الناس نشأة أخرى، ويسنّ لهم فى الحياة سنة جديدة؛ وسكن فكر جوّال جمع ما شاءت له قدرته من معارف الشرق والغرب، ثم نقدها غير مستأثر لما يؤثر من مذاهب الفلاسفة ولا مستكين لما يُروى من أقوال العظماء؛ ووقف قلب كبير كان يحاول أن يصوغ الأمة الإسلامية من كل ما وعى التاريخ من مآثر الأبطال وأعمال العظماء؛ وقرّت نفس حرة لا يحدّها زمان ولا مكان، ولا يأسرها ماض ولا حاضر، فهى طليقة بين الأزل والأبد، خفّاقة فى ملكوت الله الذى لا يُحدّ.

مات محمد إقبال الفيلسوف الشاعر الذى وهب عقله وقلبه للمسلمين وللبشر جميعاً ـ الرجل الذى كان يخيّل إلىّ وأنا فى نشوة من شعره أنه أعظم من أن يموت، وأكبر من أن يناله حتى هذا الفناء الجثمانى ـ فاضت روح الرجل الكبير المحبوب فى داره بلاهور ورأسه فى حجر خادمه القديم الوفىّ «إلهى بخش» وهو يقول: إنى لا أرهب الموت أنا مسلم أستقبل المنيّة راضياً مسروراً.

كنت أقرأ كلام إقبال فى الحياة والموت، وأرى استهانته بالحمام واستهزاءه بالذين يرهبونه ـ وما كان هذا خدعة الخيال ، ولا زخرف الشعر فقد صدق إقبال دعوته فى نفسه حين لقى الموت باسماً راضياً ـ جد المرض بإقبال ، وكان يقترب إلى الموت وهو متقد الفكر ؛ قوي القلب ، يصوغ عقله كلمات يوقظ بها النفوس النائمة ، وينثر قلبه شراراً يشعل به القلوب الهامدة ـ وكان يعنى بنظم كتابه « أرمغان حجاز » : لحن الحجاز ـ وكان قلب الشاعر يهفو إلى الحجاز وقد تمنى فى خاتمة كتابه « رموز بى خودى » أن يموت فى الحجاز ، ومما نظمه فى أشهره الأخيرة :

آية المؤمن أن يلقى الردى باسم الثغر سروراً ورضا

وقد أنشد هذين البيتين قبل الموت بعشر دقائق ، وهما مما أنشأه أخيراً :

نغمات مضين لى ، هل تعود ونسيم من الحجاز سعيد ؟
آذنت عيشتى بوشك رحيل هل لعلم الأسرار قلب جديد

وآخر ما أنشأ من الشعر بيتان أترجمهما نثرا :

« قد أعدّت جنة لأرباب الهمم ، وجنة أخرى لعبّاد الحرم . فقل للمسلم الهندى لا تحزن ، فكذلك للمجاهدين فى سبيل الله جنة » .

(٢)

كان تشييع إقبال إعراباً رائعاً عما للرجل الفذ فى قلوب أهل الهند عامة ومسلميه خاصة ـ احتشدت عشرات الألوف تودّعه بالبكاء والزفرات ،

وشاركت النساء بالعويل والنحيب ، وتنافس الحاضرون فى حمل النعش فوضع على خشبتين طويلتين ليتسنى لكثير من المشيعين أن يشرفوا بحمل الرجل العظيم إلى مثواه الأخير ـ وقد بلغت الجنازة شاهى مسجد وخلفها زهاء أربعين ألفاً ، فوقف الناس ساعة كاملة حتى تيسر لهم أن يصطفوا للصلاة على الفقيد الجليل ثم نقلت الجنازة إلى حديقة متصلة بالمسجد ، وهنالك والساعة عشر إلا ربعاً من المساء غربت شمس إقبال فى جدثها ، وطوى الجهاد الذى ملأ الدنيا فى لحده ، وأُدرجت الحكمة والشعر والحرية التى تأبى الحدود والقيود فى جنتها ـ وضع محمد إقبال فى قبره ـ .

وغشى القبر الذى تضمن روضة الشعر بضروب الزهر والريحان ، ثم نثرت عليه أزهار أخرى من أقوال الخطباء والشعراء الذين أطافوا بالشاعر الخالد .

وتجاوبت أرجاء الهند بأقوال الكبراء يعربون بها عما أحسّوا من لوعة ، وما دهى الهند من مصيبة بموت شاعرها الأكبر ـ اجتمع على هذا المسلمُ وغير المسلم ؛ فهذا جواهر لال نهرو يقول :

« لقد دهتنى وفاة إقبال بصدمة هائلة شرفتُ بلقاء إقبال ومحادثته منذ قليل ؛ وكان مستلقياً على فراش المرض ، ولكن كان لفكره العالى ونزعته الحرة فى قلبى أثر بليغ ـ لقد فقدت الهند بفقد إقبال كوكباً لألأ مضيئا ، ولكن شعره سيخلد فى قلوب الأجيال الآتية ، وذكراه العظيمة لن تموت » .

وهذا الدكتور محمد عالم يقول :

« لاتستطيع أرض البنجاب أن تخرج إقبالا ثانياً فى عصور طويلة » .

ويضيق المجال عن الإكثار من أقوال أعلام الهند فى فقيدهم ، وأرّخ بعض الشعراء وفاة إقبال (سنة ١٣٥٧) فى قوله :

تاريخ «بود إقبال شاعـــر مشرق»

كان إقبال شاعر الشرق

وأرّخ آخر بقوله :

« ذهب العلامة إقبال شطر الجنة العالية »

ترك الشاعر النابغة ابنين وبنتا وأخاً وثلاث أخوات .

الخطبة

التى ألقاها العلامة محمد إقبال

فى الحفلة السنوية للرابطة الإسلامية

بمدينة الله آباد بالهند سنة ١٩٣٠ وقدم فيها فكرة الدعوة إلى قيام الباكستان

حضرات السادة :

أتوجه إليكم بعظيم شكرى على ما أوليتمونى من ثقة شرفتنى برياسة الرابطة الإسلامية فى هذا الدور العصيب الذى يجتازه المسلمون وإنى لا يزدهبنى الغرور فينسينى أن هذا المجتمع ينتظم من صفوة الأعضاء من هم أوفر منى تجربة وأرسخ منى قدماً فى ميدان السياسة وأقدر منى على حل المشاكل ، ولقد أعدها جرأة بالغة منى لو أسبغت على نفسى صفة الهداية والتوجيه لحضراتكم .

إنى لم أكن يوماً ما فى إحدى الجماعات أو الهيئات قائداً ولا جنديا أخضع لقائد فقد استنفدت أعوام حياتى الماضية دراسة واطلاعا بحقيقة الإسلام وتفهماً لفنون السياسة والآداب وكان اهتمامى وتأثرى واتصالى بروح الأصول والتعاليم الإسلامية مما أكسبنى فى حياتى بصيرة خاصة اكتشفت على ضوئها أن الإسلام حقيقة عالمية . وما دام المسلمون محتفظين بهذه الروح قوية كاملة فإنى سأحاول ماوسعنى الجهد أن أبعث من تلك البصيرة فى نفسى قوة تشعل فى شغاف قلوبكم جذوة الشعور وتركز أصول الإسلام ومبادئه التى هى وحدها الضمان لتحقيق النتيجة المرجوة .

الإسلام والقومية : إن ثمة حقيقة ثابتة لايسع أحدا أن يرتاب فيها وهى أن جميع المثل العليا الخلقية والأهداف العملية والأنظمة السياسية التى رسم الإسلام حدودها العادلة كان لها الأثر الواقعى الملموس فى تاريخ مسلمى الهند فقد امتزجت مشاعر المسلمين وأحاسيسهم وعواطفهم بتعاليم هذا الدين الحنيف التى يرتكز عليها كيان الجماعات بما يهيئ لجميع الأفراد والهيئات على السواء أن تتلاقى فى سيرها وتتجمع فى تكوينها على أقوى الدعائم وأقوم النظم فى التشكيل والتنسيق ولا أجدنى مبالغاً إذا أعلنت أن ربوع الهند هى التى قد تجلت فيها قوة النهضة والسير نحو بناء الوحدة الإسلامية فى أجلى مظهر وأكمل صورة ففى الهند ممالك ودول مدينة بقيامها ووجودها للإسلام وذلك لأن الإسلام تتمثل فيه الروح الأخلاقية والفضائل الأدبية على أسلوب خاص والإخاء الدينى والترابط الاجتماعى والعدالة الثابتة بين شعوب الإسلام لم يوكل أمرها إلى مجرد النصح والترغيب وإنما هى خطط وقواعد تكفلت برعايتها وإيضاحها التشريعات من نصوص هذا الدين الحنيف ؛ تلك التشريعات الحكيمة التى أقامت صرح الاتحاد بين القلوب ومدت ظلال الأمن بين الشعوب وقد تنكر لها وجه المدنية الحاضرة ويسعنى أن أصارحكم القول بأن الأفكار السياسية لأمم الغرب أحدثت انقلابا لم يقتصر شره وشروره على الهند وحدها بل اندلع لهيبه وأحاط بالعالم الإسلامى كله ويود شباب المسلمين اليوم تطبيق هذه المبادئ وإقرارها فى حياتهم العملية وهم ينساقون إلى ذلك مسرعين دون أن يتبينوا البواعث من العلل والأسباب التى حملت أمم الغرب على اعتناق تلك المبادئ

وكان على هؤلاء الشباب أن يذكروا أن قيام المسيحية بأوربا فى بداية أمرها كان يرتدى مسوح العزلة والرهبانية ثم تبدلت الأمور فاتخذت الكنيسة شكل الحكومة المتجبرة ومظهرها فى الدولة مما نشأ عنه قيام مارتن لوثر بثورته ضد سلطة الكنيسة . على أن هذا الثائر لم يكن ينشد بثورته إصلاحا سياسيا أو إحداث انقلاب وتغيير يمت إلى هذا المعنى بصلة ما إذ ليس للسياسة ولا لأنظمة الحكم أى ارتباط بأصول المسيحية ولو تتبعنا الأمر على جليته لالتمسنا المعذرة للوثر . على أنى أعتقد شخصيا أن لوثر نفسه ما كان يتوقع أن تكون نتيجة ثورته هذا الانقلاب الفكرى الجرئ الذى انتهى إلى تعدد المذاهب الخلقية فكل ما صنعه بإقامة ثورته أنه مزق رباط الوحدة وفتح ثغرات جديدة فى دنيا المسيحية ، وأصبح أنصاره أنفسهم شيعاً وأحزابا يصعب حصرها على المتتبع ومن ثم أخذت الأمم المسيحية تنفصل عن كل معنى إنسانى فى الإخاء والاتحاد وانزلقت إلى مضايق الحقوق القومية والإقليمية والعنصرية والطائفية على أساس تفهم الحياة وتركيب معظمها على هذا الوجه وحده فنشأت النعرات الوطنية ، وفى أسلوب هذا المنطق الجديد نشأت مظاهر من الأنظمة والتشريعات خاضعة لتلك المؤثرات وليس لأمة على هذا الاعتبار وجود سياسى إلا متأثراً بتلك النزعات .

فلو تصورنا الدين على أنه يبدأ من الآخرة وينتهى إليها دون أن تكون له وشيجة اتصال بدنيا هذا العالم لكان الذى حدث فى شعوب الغرب أمراً لا غرابة فيه ولا مناص منه بالنظر إلى مبادئ المسيحية . وليس بمستغرب

كذلك أن نرى انهيار صرح الأخلاق التى نادت بها وصايا المسيح فقد ذهبت كأن لم تغن بالأمس وحلت مكانها فى حياة الأقوام أنظمة السياسة الجديدة وانحصر أمر الدين بأعماله ومعاملاته فى حياة الفرد داخل نفسه وفى حدود ذاته دون أي اتصال بالحياة الدنيوية ؛ ولكن الإسلام يقرر أن الإنسان وحدة كاملة دون فصل فى الأحكام والمصائر بين المادة والروح فالقربات التعبدية والمصالح الدنيوية ومساجد العبادة ومناصب الرياسة وميادين العمل فى المادة والروح إنما هى أجزاء متعددة لكل واحد . فإن هذا الإنسان لم يسكن عالماً نجساً يتحتم عليه أن يتخلص منه بالتماس الهجرة إلى عالم روحانى طاهر نقى فالمادة التى ترقى بها تعاليم الإسلام وتنظمها ليست سوى شكل من أشكال الروح ومظهر آخر لها فى حدود الزمان وقيود المكان ويبدو أن عالم الغرب قد تأثر فى غير تبصر ولا روية بعقيدة « المانوية » التى تدين بالثنائية بين المادة والروح .

على أن أحرار الفكر وأقطاب الرأى من الغربيين قد أخذوا يتسللون لواذا من هذا الاعتقاد الخاطئ ولكن ما تزال طبقة السياسيين على إصرارها واستمساكها بأن العالم كله يجب أن يخضع فى حاضره ومصيره لتلك العقيدة ويرضخ لقانونها كحقيقة ثابتة لا سبيل إلى التخلص منها ولعمرى إنه لتفريق باطل بين المادة والروح قد استولى على كل اتجاه سياسى أودينى فى ممالك الغرب ثم لا يكون عجيبا بعد ذلك أن ترى الدول المسيحية قد جانبت الدين مجانبة كلية من الوجهة العملية وقامت تبعا لهذا حكومات ودويلات ممزقة الأوصال

قوامها الأغراض المادية والأهداف المحدودة ولا تمت بصلة إلى مشاعر الإنسانية ومثلها العليا « ولكن الذى يعدّ من سخرية الأقدار حقا أن ترى هذه الدول بعدأن أضاعت ثروة المعتقدات الدينية والمبادئ الخلقية أخذيطيف بها الحلم الذهبى فى توحيد أوروبا ويمكننا أن نقول بتعبير آخر ان القوم ربما أحسوا ضرورة الاتحاد الذي كان لهم من قبل فى ظل الحكومات البابوية ولكنهم بدلا من أن يقيموا دعائم الاتحاد فى ضوء الأخوة الإنسانية العالمية التى كان يخفق بها قلب عيسى عليه السلام أضاعوا كل تراث من الوحدة والوئام بفضل تعاليم لوثر .

وإننا بحمد الله لا نتوقع أن يقوم فى المسلمين لوثر آخر ، فليس فى ديننا الحنيف ما كان يوجد فى المسيحية إبان القرون الوسطى من السلاسل والأصفاد التى كان العالم يومئذ فى أمسّ الضرورات إلى تحطيمها ، ذلك بأن الإسلام هو الدين القيم الذى ترتكز دعائمه الأولى على الوحى والتنزيل فى نصوصه التى تجمع قواعده الكلية ولا يقلل من شأن هذه الحقيقة أن فقهاءنا كانوا فى الوقت الأخير بمعزل عن الحياة العملية فلم ينتبهوا فى البداية إلى الاستجابة لحاجات العصر ومطالبه مما يجعلنا فى حاجة إلى تجديد الفكرة والاتجاه إلى الإنشاء والعمران . إنى لاأستطيع أن أتكهن الآن بنتيجة الاستمساك بالإقليمية والقومية عند شعوب المسلمين وبما إذا كانت الجاذبية الإسلامية ستصل إلى أعماق المشاعر فتبدلها وتضفى عليها حلتها التى كانت لها من قبل أو أن هذه الأفكار التى خرجت من مصنع المدنية الغربية ستحدث فى الإسلام تغيراً ومعاذ الله أن يقع ذلك .

منذ أيام كتب إلىّ العلامة (ونسنك) رسالة من هولندا يقول فيها : « إن

العالم الإسلامى فى يومه قد وصل إلى الطور الذى كانت عليه المسيحية منذ قرن، وإن أعقد المشاكل والصعوبات التى تبدو اليوم أمام الأنظار بعد أن هجر المسلمون أسلوبهم السابق فى تصور كنه الحياة إنما هو تخير الطريقة المثلى التى يتحقق بها حفظ بنيان الملة من التضعضع والانهيار، ثم يقول ونسنك انه شخصيا لا يستطيع أن يتبين المصير المنتظر بالنسبة للمسيحية وماذا سيكون مبلغ تأثيره ونتيجته المرتقبة فى أمم الإسلام.

إننا فى الوقت الحاضر نرى المسلمين قد تورطوا فى أعراض الوطنية إلى الانزلاق فى عصبية الدم والجنس ثم ماذا أليست هذه هى النزعات التى تحول بين المسلم وتحقيق مقاصده الإنسانية السامية التى هى من صميم رسالته الأولى وقد تنتهى هذه المشاعر إلى توهين دعائم الإسلام.

انى أستميحكم المعذرة إذ التجأت إلى هذا الأسلوب العلمى الذى دفعتكم إليه فى خطاب لم يكن يحتمل دسامة النظريات العلمية ومشكلاتها بهذا الصدد، أنتم الذين رأوا أن ينتخبوا لرياسة هذه الرابطة رجلا لم ينزل به اليأس ولم يقعد به القنوط وما يزال قلبه عامراً قوى الإيمان بأنه مابرحت فى المسلمين تلك القوة الكامنة التى تستطيع أن تحرر أذهان البشرية من قيود الألوان والأجناس والدماء.

نعم أنتم الذين تخيرتم رجلا يؤمن بأن للدين الأهمية العظمى والأثر الفعال فى توجيه حياة الفرد والجماعة على السواء، وهو موقن كل اليقين بأن تقرير مصير العالم الإسلامى إنما هو فى أيدى المسلمين أنفسهم لا فى أيدى أعدائهم وأن رجلا

هذا أمره وتلك عقيدته مضطر إلى وضع حلول جميع المشكلات على أساس النظرية الإسلامية وحدها، ولايخطرن ببال أحد منكم أن ما أشرت إليه الآن من المشكلات محصور فى حدود النظريات لا يتعداها بل هو فى صميم المناهج الحيويةوالخطوات العملية ، وأقول على سبيل المثال لو أننا جعلنا دستور الحياة ونظام العمل قائمين على أصول الإسلام ومبادئه فى الهند وحدها لأشهدنا العالم أمة مثالية تؤثر فى حياة جميع المسلمين وربما امتد أثرها كذلك إلى جميع أقطار المسكونة . وهذا هو الهدف الذى نصبو إليه حين نحاول أن ننشىء فى الهند مدنية ممتازةوحضارة متخيرة، ودعونى أصارحكم بأن الإسلام لم يمر به فيماسلف من عصور التاريخ دور عصيب حافل بالمشاكل المستعصية والأحداث الدامية كهذا الدور الذى نعانيه .

إن لكل شعب حقه فى أن يرسى قواعد بنيانه كما له أن يحوّر فى وضع أصوله الأساسية أو ينسخها جميعاً بجرة قلم ولكن على من يحاول استعمال حقه أن يتبين كيف تكون العاقبة ويتبصر فى النهاية قبل أن يخطو إليها خطوة واحدة وأرجو ألايتطرق إلى أحد سوء الفهم فى إدراك ماأرمى إليه وإذا ماذهب أحد إلى غير رأيى فليفرخ روعه ، وليكن على ثقة من أنى لن أفتح معه باباً للمناظرة بحال ومن جهتى فأنا مستيقن من أنى أخاطب المسلمين الذين احتشدوا فى هذا الجمع الإسلامى ليفكروا كيف يعيشون سعداء فى ظل تعاليم الإسلام وهم من صميم أفئدتهم يتمنون أن يحيوا كراماً فى احياء المثل العليا للكتاب الكريم ولن يحول شىء دون استعمالى حق فى حرية الرأى لأكشف النقاب

عن وجه الحقيقة فى أساليبكم السياسية وأدل على النهج القويم بما لا يخامرنى شك فيه .

اتحاد الهنـــد القومية

قبل أن أخوض معكم غمار هذا الموضوع أحب أن أضع بين أيديكم هذه الأسئلة وهى هل الدين أمر وجدانى فردى فقط ؟ أتحبون أن تكون نهاية الإسلام فى الخلق والسياسة كنهاية المسيحية فى الغرب ؟ أمن الجائز أن تقصر تعاليم الإسلام على الجانب الأخلاقى والتعبدى فى حياة الإنسان بحيث يجوز لنا بعد ذلك أن نقتبس لأنظمتنا السياسية مبادئ أخرى لا يجد الدين طريقاً الى التدخل فيها ولا الحكم عليها ؟ ولهذه الأسئلة بالنسبة للهند أهمية أخرى نظراً الى أقلية المسلمين فيها وأكثرية الهنادك وغيرهم من الملل الأخرى .

ان الدعوى بأن تدين الإنسان مقصور على شخصه ولا يتعدى كيانه الفردى لاتعد غريبة اذا رددتها ألسنة الغربيين ذلك بأنهم تلقوا المسيحية مسلكا رهبانيا قد أشاح بوجهه عن دنيا المادة لينشد غاية عليا فى الجمال الروحانى وكان مصير الأمم الغربية خاضعاً لهذا المعنى بما كانت نهايته على نحو ما أسلفنا بيانه لكن الدين الذى جاء به نبينا الأكرم ورسولنا الأعظم يختلف عن ذلك اختلافا كليا من الألف الى الياء بما دل عليه نص التنزيل ونطق به صريح الآيات . وليست غاية الإسلام منحصرة فى الواردات الذاتية التى تجعل المرء بمعزل عما حوله من

الأشياء ومن حوله من الناس بل بناء للتربية التى تجعل الفرد صالحا لأن يتكون منه ومن غيره مجتمع صالح له أنظمته القويمة ومن مادة هـذه التربية الفاضلة استمدت مقومات السياسة العليا عند المسلمين وهى سياسة استنبطت فروعها العملية من أدلتها الإجمالية فى محكم القرآن والسنة النبوية .

وليس فى وسعنا أن نتصور بعد الأنظمة السياسية والإجمالية من حقيقة الإسلام لأنها من صنعه وصميمه وكلاهما يرتبط بالآخر ارتباط الملزوم بلازمه والمعلول بعلته والاستغناء عن أحد المتعلقين استغناء عن الآخر فإنى لا أستطيع أن أفهم لحظة واحدة كيف يعد مسلماً ذلك الذى يفضل السياسة المبنية والمستمدة من العصبية والجنسية على الإسـلام نفسه متجاهلا أصوله الأولى ومبادئه الحقة فى بناء الوحدة الجامعة لأبنائه وهذه المشكلة نفسها تواجه مسلمى الهند اليوم .

قد لا يكون فى طوق الإمكان أن نجمع شعوب البشرية لنهض بها طفرة إلى حياة واحدة ولـكن فى الإمكان أن نجمع الأسرة الإسلامية على صراط مستقيم ولهذا فشلت دعوة الأمبراطور أكبر وفلسفة الشاعر كبير فى جمع الكلمة على مبدأ المحبة على اطلاقها دون توجيه عملى فلم يكتب لأحدهما النجاح لأن مثل هذه الدعاوى عنـد مجادلتها نراها خالية من الحلول الصحيحة لمشاكل الحياة الاجتماعية . والتفكير السليم يتقاضانا أن نعترف بالحقائق ولو كانت مريرة فليس من الأساليب العملية لتحقيق المقاصد أن يعمد إلى مبادئ تفترض فيها حالات غير موجودة فبدلا من تكذيب الوقائع يجب أن نستفيد منها وإذا اعتقدنا

أن الهند كما يبدو فى رأى أنها آسيا مصغرة فعلينا أن نقيم وحدتها القومية على هذا الأساس ففى الهند جزء يشبه الأمم الشرقية مدنية وتهذيبا ولكن جزءاً آخر منها يعيش على أسلوب سكان آسيا الوسطى والغربية فعلينا أن نتبين من جميع هذه المتناقضات التى كانت مثار الحروب الدامية آمادا وقرونا متعاقبة .

إن حل مشكلة الهند هو حل مشكلة آسيا كلها . وإنه ليؤسفنى أن جميع محاولاتنا فى التعاون والاشتراك والاتحاد قد حبطت فيها المساعى والجهود ولكن ما مصدر هذا الفشل الذريع ؟ والجواب الوحيد هو أن أحداً لا يثق بما ينتويه الآخر وكل واحد ينطوى فى سريرته على حب الغلبة والانتصار على سواه. إننا لن نحاول أن نستتر خلف نقاب من القومية لننسى ما بذلنا من تضحيات وما حصلنا عليه من حقوق ، فنحن نسمع التشدق بنغمة حب الوطن يرددها الجميع بينما البواطن تنطوى فى داخليتها على الاستئثار وإثارة عوامل الفرقة . وإنى أعلن فى صراحة أن المسلمين إذا قبلت مطالبهم فى إحياء مجتمعهم وثقافتهم وتاريخهم ومدنيتهم الرشيدة العالية فإنهم لن يتوانوا عن تقديم أكبر تضحية فى سبيل تحرير الوطن . أما حق الفرد أو الجماعة فى طلب وسائل الرقى فى ظل العقيدة والدين فلا يعد تعصباً .

والعصبيات التى تدعو إلى البغضاء والتنفير من الآخرين هى وضيعة مهينة ليس لها فى الإسلام وجود . فإنى أنظر بعين الاحترام الى المراسيم الدينية الخاصة بغيرى لأننى أحترم الحرية نفسها وأنا كمسلم تحتم علىّ قواعد ملتى أن لا أصادر حقوق الآخرين فى شعائرهم الدينيـة لا يمنعنى ذلك أن أحب من شغاف قلبى

ومن أعماق ضميرى تلك الأمة التى استمددت كيانى من أوضاعها وأعرافها وتقاليدها وهى التى وهبتنى من دينها ومدنيتها وأدبها وحكمتها ما شيدت عليه بنيان حياتى، وقد كان من بركتها ونعمتها أن أيقظت فى الماضى النائم وألهمتنى حرارة الإيمان وقوة العمل .

هند إسلاميـة (باكستان)

ليست الهند كأى مملـكة فى الغرب تجمعها وحدة الجنس واللغة والدين ولـكنها وطن لأمم متباينة والسلالات واللغات والديانات تختلف بعضها عن بعض أتم الاختلاف ولا يمكن أن يتحد الشعور وتتفق وجهات النظر فى مناهج الحياة على نحو ما هو موجود فى أى مملـكة غربية ولا يمكن العمل على إفناء ميراث الملل المختلفة بل يجب أن تعطى كل أمة حق تنظيم وجودها وتقرير مصيرها بما يتفق وأسلوبها فى الحياة وإنى أرجو تأييدكم وموافقتكم على أن تتكون من مقاطعات البنجاب والحدود الشمالية والسند وبلوخستان دولة واحدة وسواء كان قيامها قبل التحرير من النفوذ البريطانى أو بعد تمام الاستقلال ، وإنى لألمح فى الأفق أن مسلمى شمال غرب الهند يضطرون الى العمل على تشـكيل دولة اسلامية ولقد نهض هؤلاء لإعلان رغبتهم تلك الى لجنة نهرو، فرفضت مطلبهم بحجة أنه لو قامت تلك الدولة فإنها ستحتل منطقة واسعة لا يمكن السيطرة عليها ، وصحيح أن رقعة الأرض واسعة كما تقرر اللجنة ولـكن عدد سكانها أقل من عدد سكان بعض المقاطعات الهندية ولعل التقسيم فى مثل جمهورية

« امبالا » التى تقطنها أكثرية هندوكية يقلل مشاكل التنظيم فى تلك الممالك وبتقسيم هـذه الأقاليم تحفظ حقوق الأقليات من غير المسلمين أيضاً ويجب ألا تتفزع حكومة الإنجليز وألا يضطرب الهنادك من إثارة هذه الاقتراحات .

إن الهند أكبر مملكة إسلامية فى العالم فإذا أراد مسلموها أن يحفظوا مآثر تاريخهم ويشيدوا معالم مدنيتهم فلا مناص لهم من تكوين حكومة مركزية مستقلة .

إن مشكلة الهند لاتنحل إلا بقبول مطالب المسلمين الذين لايجحد الإنكليز عليهم مساعداتهم فى مختلف المواقف وفى مقدمتها الأمن الداخلى .

ولا يفهم تفسير لحب الوطن عنـد المسلمين إلا بإيجاد وطن لهم فلو أتيح لمسلمى شمال غرب الهند تكوين حكومة مركزية فى هيكل السياسة الهندية لكونوا جبهة الدفاع ضد أي هجوم من الخارج وحصناً لمقاومة الآراء الهدامة فى الداخل .

يكوّن مسلمو البنجاب ٥٦٪ من تعدادها ثم تجدون أن ٥٤٪ من تعداد الجيش الهندى كله من البنجاب نفسها ولو استبعدنا من الجيش الهندى العام ١٩٪ منـه من سكان نابال المستقلة لأصبحت نسبة المسلمين فى الجيش الهندى العام رغم أنهم أقلية السكان ٦٢٪ من مجموعه؛ هـذا عدا ستة آلاف من أبطال بلوخستان والحدود الشمالية المحاربين ومن ثم يتبين لكم مقدار المهمة العظمى

فى الدفاع عن الهند إذا تحقق مطلب المسلمين فى شمالها الغربى . وقد قال الزعيم الهندوكى (سرى نواس شسترى) إن مطلب هؤلاء المسلمين ينم عما يبيتون من نية فى المستقبل من الضغط على الهند حين تتاح لهم الفرص ، وجوابى على ذلك أنك لو فتشت صدور المسلمين لن تجد فيهم هـذه النزعة الانتقامية وإنما مقصد المسلمين الأوحد أن يعبدوا لأقدامهم الطريق نحو التقدم فى ظل الحرية الكاملة ولا سبيل لهم إلى تحقيق هذه الغاية فى نظام حكومة مركزية متحدة كالتى يسعى إليها زعماء الهنادك والقادة المتعصبون منهم لا لشىء سوى تضييق الخناق والسيطرة على الأقليات التى لا يرتاحون إلى نهضتها . وكم وددت لو أمكننى استبعاد جميع المخاوف من قلوب الهنادك من قيام حكومة إسلامية. وقد بينت فيما سلف أن مفهوم الإسلام لا ينتهى إلى أن تنظيم الحكومة يقوم على تصورات مثل تلك التى فى الأمم المسيحية . فإن الإسـلام نظام تليد تلقته الإنسانية وحياً من خالقها منذ مئات ومئات قبل أن يخلق روسو ليؤلف كتابه العقد الاجتماعى Contract Sociale فالإسـلام فى دعوته الخلقية الإنسانية وفى عقائده السامية يجعل المسلم نافعاً فى كل مكان يستطيع الإقامة حيث وجد ولا يكون مغروساً كالشجر ولا جامداً كالحجر بل هو ذات روحانية وجزء من تركيب الهيئة الاجتماعية وجزء حىّ عليه واجبات وله حقوق لا يمكن تجاهلها. وإنى لا أطالب بهذه الدولة الإسلامية إلا ويغمرنى اعتقاد راسخ بأن هـذا فى مصلحة الإسلام والهند كذلك فإنه فى توازن القوات المختلفة يتحقق الأمن ويستقر السلام وفى إقامة هذه الحكومة الإسلامية فرصة مواتية لتقديم الإسلام

للعالم على حقيقته الكاملة فى أسلوب يطابق روح العصر الجديد خالياً مما أصابه من التشويه فى عهد بعض الحكومات التى لم يكن يعنيها تطبيق مبادئه وإرساء قواعده .

دستور الهند

قد وضح وضوح النهار أنه لابد فى المستقبل من أن تتشكل فى الهند حكومات تجمع أفرادها تحت حكم يقوم على وحدة اللغة والاعتبارات الأخرى ويجب أن يتحقق هذا التقسيم على أسلوب يكفل اتقاء المشاكل وأسباب النزاع وذلك قبل التفكير فى وضع دستور جديد وعندئذ تنحل المشاكل الانتخابية من تلقاء نفسها ويبدو لى أن كل تطاحن يقع فى أرض الهند مبعثه عدم التوفيق فى حل مشكلة التقسيم وكل مايحاوله الهنادك هو إجراء انتخابات عامة يضمنون فيها أغلبية تمكنهم من إفناء الأقليات وأن لا يكون لطائفة فى دينها تعبيرها الخاص عن ذاتيتها وعن صميم رسالتها ، لذلك هم يروجون فى شائعاتهم أن الانتخابات المللية تنافى القومية؛ وتفسير القومية عندهم هو أن يفنى سكان الهند بعضهم فى بعض ثم هم بعد ذلك يضمنون لأنفسهم ما يريدون . ولكن الواقع غير الخيال ، فهذا ما لا نقبله بحال لأن الاختلاف فى الهند واضح جلى بين الأكثريات والأقليات فى الأديان والمعتقدات واللغات ولو نظرتم إلى ما عليه المسلمون من انخفاض مستوى المعيشة وفداحة الديون التى يرزحون تحت أعبائها ولا سيما فى مقاطعة البنجاب وقلة عددهم فى بعض المقاطعات الأخرى لأدركتم

السبب الذى من أجله ينادى المسلمون بالانتخابات الملية الخاصة . أما القول بالانتخاب العام فى جميع المقاطعات محافظة على القومية والتمثيل النيابى الصحيح فهو تمويه وتضليل لأنه يؤدى فعلا إلى السيطرة التامة للأغلبية الهندوكية فلو قسمت المقاطعات على أن تكون كل واحدة منها أمة موحدة كاملة الارتباط فإن المسلمين لا يعارضون فى إجراء أى انتخاب عام .

أما الدستور الجديد الذى وضعه البراهمة فهو يستبعد كل تقسيم ويكل القرار الأخير فيه إلى المجلس التشريعى المركزى الذى يضم أكثرية ساحقة منهم وإن كانوا يذرون الرماد فى العيون خلف بعض الأسماء الإسلامية فى هذا المجلس .

أما وسائل الإصلاح التى تحاك فى مصانع السياسة البريطانية فهى ترمى أبدا إلى استبقاء سيطرة الانجليز وحتى يكون الجميع متطلعين إلى نفوذهم وهم كذلك لا يرون من صالحهم أن تسوى هـذه المسائل خشية أن تذهب المعاذير التى يتذرعون بها ويتلمسونها للبقاء فى أرض الهند . وإنى أهيب بالمسلمين ألا يقبلوا أى نظام يقرره الهنادك أو يفرضه الانجليز وعليهم أن يسلكوا سبيلهم إلى ما يحفظ عليهم وجودهم فى حكم مستقل يتمتعون فيـه بالحرية فى تقرير ما يشاءون لأنفسهم وللإسلام .

ولعل من الأسباب الرئيسية فى خطل النظريات السقيمة هو اعتقاد الإنجليز أن الهنادك يكونون أغلبية محكمة الرابطة لأن الهند تضمهم فى أفكار متشابكة ولكنهم أكثر خلافاً واختلافاً مما يظنون ولا توجد الجامعة الحقة إلا بين

المسلمين بما أوضحنا أسبابه فيما سلف من هذا البيان وعلى الرغم مما بذلته بريطانيا من الأخذ بناصر الهنادك بعد الثورة الاسلامية الأخيرة ضدهم سنة ١٨٥٧ فإن المسلمين هم الذين يجدون فى دينهم وأصول شريعتهم العروة التى لا تنفصم والمجتمع الذى لا يختلف على سواء الطريق ولهم من فطرتهم وقوتهم ونهضتهم ما يغنيهم عن مساعدة أجنبية للأخذ بسواعدهم .

ولعل الانجليز يتذرعون فى مشروعاتهم بأنه يمكن إيجاد اتحاد بين المسلمين والهنادك على مثل ما هو قائم من الاتحاد الملحوظ بين المسلمين والمسيحيين فى مصر وممالك الشرق الأوسط مع اختلاف الدين . ولكن ما أبعد هذه المقارنة وما أشد الفرق بين الهند وسواها فبينما يجيز الاسلام الاتصال بأهل الكتاب على أن يكون لهم مالهم وعليهم ما عليهم إلى حد إجازة تزوج المسلم من الكتابية وبينما تتحقق المصالح المشتركة بالتعاون فى الأمة الواحدة نرى الهنادك يعتبرون المسلمين نجسا ماديا فلا يعاملونهم ولا يختلطون بهم ولا يتحببون إليهم من قريب أو بعيد وكذلك ينظر المسلمون إليهم كوثنيين ليس لهم من الأرض نبوة ولا من السماء كتاب ورغم ما يبذل المسلمون من التسامح فما يزداد هؤلاء من ذلك إلا تنكرا واستخفافا وامتهانا للمسلم والعمل دأبا على استئصال شأفته وإبادة ملته . وإذا كان هذا التسامح قد توقف أمره فى بعض القرون السابقة نظراً لما كانت تصنعه أمم الغرب من همجية بربرية تلبس غير لونها متسترة باسم الحروب الصليبية والمسيحية منها براء ، فإن المسلمين يثبتون اليوم ما أثبتوه من قبل ـ ذلك التسامح الذى مكنهم من التعاون الوثيق فى حكوماتهم وأفرادهم .

اختلاف المسلمين دمار لأمتهم

أيها المسلمون ! قد يوجد خلاف فرعى بين المذاهب الإسلامية ولكن هذا الخلاف لا يمتد بفرد أو طائفة إلى الخروج على الحدود التى رسمها الدين فى أصوله وقواعده وإذا أجزنا مثل هذا الخلاف المذهبى فإننى أحذركم ثم أحذركم أن تستبيحوا وجود خلاف سياسى بين مجتمعكم الاسلامى فإن هذا الخلاف ليس له سوى معنى واحد وهو فناء المسلمين عن بكرة أبيهم واستئصال عنصرهم من تاريخ الوجود ومعاذ الله أن يقع ذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وفى ختام القول أقول لكم أيها المسلمون كما قلت لكم فيما سلف إنكم الآن تجتازون أدق مرحلة وتمرون بأصعب دور فى حياتكم السياسية فعليكم أن تحتفظوا بالارتباط الشامل والاتحاد القويم فى العزائم والجهود وفى الوسائل والغايات وعليكم أن تؤمنوا بأن وجودكم كأمة إسلامية هو عين فائدة الهند أيضاً وعليكم أن تحرروا أنفسكم والهند معكم من كل عبودية سياسية تسبب مصائب وويلات غير متناهية وأن تحرير الهند هو تحرير آسيا كلها . هذه العبودية هى التى داست روح الشرق تحت أقدامها وحرمته نعمة الاغتباط بإشراق ذاتيته التى قامت بفضلها المدنيات الشرقية الخالدة . وعلينا أمام ذلك واجبان أولهما نحو الهند التى نحيا تحت سمائها ونموت فى أرضها وثانيهما نحو آسيا ولا سيما آسيا الإسلامية التى تضم قرابة سبعين مليونا[1] من المسلمين مما يحتم علينا أن نفكر فيها كمسلمين أولا وقبل كل شىء ولن نؤدى هذين الواجبين

(١) لعل الرقم جاء خطأ فى الأصل الأردى لأن تعداد سكان آسيا المسلمين يربو على عدة مئات من الملايين .

نحو الهند وآسيا إلا حين نستجمع إرادتنا ونوحد أهدافنا ولا مندوحة لكم عن ذلك أولا وأخيراً لإثبات وجودكم كأمة إسلامية بين عشرات الطوائف والهيئات الموزعة فى الأقطار الهندية فأنتم ترون بأعينكم تشتت أمرنا وأن انتشار الفوضى والبؤس بين صفوفنا فى ازدياد واضطراب أمام مطامع السياسة الغاشمة.

إنى لا أستطيع أن أخفى عنكم شعورى بأنكم فى سبيل تدارك هذه الحالة الخطرة لابد أن تناضلوا فى كفاح الحرية ولا سبيل إلى محاولة أخيرة لكسب سياسى إلا حيث تكون العزائم عزما واحدا والقلوب المتباعدة قلبا واحدا وأن تتركز مشاعركم حول مطلب لا تختلفون فيه .

أفى الإمكان أن تتحقق هذه الآمال فى اتحاد قواكم المعنوية وهى صادرة من ينابيع روحانيتكم الصافية ، لم لا ! وكيف لا ! إنكم تستطيعون ذلك وبالغوه إن شاء الله يوم تتحررون من القيود النفسية والمطامع الطائفية وحين تضعون أعمالكم الفردية والاجتماعية فى ميزان ماتنشدونه من الأهداف العالية والمثل الرفيعة .

فلتكن قوة المادة إلى جانب قوة الروح متساندتين على تحقيق ما نصبو إليه من القيم العليا بل عليكم أن تجعلوا المادة خادمة للروح لأن المادة ظلمة وكثرة وفناء والروح نور ووحدة وبقاء .

درس تعلمته من تاريخ الاسلام ! أى والله درس واحد ، ولكنه كل شىء فيما يتعلمه الإنسان هو أنه فى أحرج الأوقات وأعقد المصائب والمشكلات كان الاسلام هو الذى يحفظ على المسلمين حياتهم ولم يكن المسلمون هم الذين حفظوا الإسلام .

فلو أنكم ـ أيها المسلمون ـ ركزتم جهودكم وأنظاركم ووليتم وجوهكم شطر كعبة الإسلام وجعلتموه رائدكم وقائدكم واقتبستم مشاعركم واتجاهاتكم من عناصره التى تهب القوة والحياة لتجمعت قواكم المتفرقة وتوحدت مواهبكم المنتشرة من جديد ولوضعتم لوجودكم التأمين والضمان الوثيق ضد عوامل الدمار والهلاك . إن آية من القرآن تهيب بكم وتناديكم إنها الصوت الأبدى السماوى الذى يخاطب أهل الأرض قائلا فى سمع من مضى من المسلمين ومن يولد فى دنيا الأحياء « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » .

ألا يمكننا معشر المسلمين أن ندعى ونحن صادقون فى دعوانا أننا نحن قبل الجميع فى أمم العالم قد عملنا على وضع أسمى المبادئ لجمع كلمة الإنسانية على خير ما كانت تنشده وتصبو إليه وإذا كنا كذلك فى أمسنا ألا نستطيع أن نعيش فى يومنا كنفس واحدة .

إنى لا أريد أن ألقى بكم فى حيرة عند ما أقول لكم إن الهند قد تغيرت وإنى أنظر إليها بغير ما تنظرون فإنكم موشكون أن تتبينوا ذلك حقا عند ما ترون المسلم لا يقول أنا حين يكون فردا واحدا ، ولكنه يقول أنا عندما يكون أمة كاملة .

إقبال والبر بالفقراء

ليس طريق طريق المستكبرين بل طريق الفقراء

الحب الإنسانى عند إقبال هو الخمر المعنوى التى تسمو بالروح نحو الكمال وتلك الخمر هى التى جعلت إقبال طوال حياته ثملا بلا قدح أو صهباء ، وكان له من هذه الخمر الثائرة مايصلح علاجا للأفلاك الدائرة .

محبة نوع الإنسان خمر تربى الوجدان
وقد علمتنى هذه الراح كيف أبقى ثملا بغير الأقداح

إن رقى هذا الميل الطبعى وجلاء هذا الشعور الفطرى يقوم على التربية المنزلية ثم على البيئة المحيطة بالفرد وقبل ذلك تقوم على ما يستقر فى أعماق الروح من الإيمان والمعاملة الحسنة وقد كانت جميعها ميسرة لشاعرنا الخالد أما وشيجته ببر الفقراء وصلة المساكين فقد لازمتاه طوال حياته .

وقوة الحياة الانسانية فى نظر إقبال لاتستمد من الجاه والمال وإنما مصدرها المقام والحال فرأس ماله لم يكن فضة ولا ذهبا وإنما كان الصدق والضراعة والاحتراق والألم .

إن هداية النوع الانسانى فى الدنيا وتحقيق الاخوة العامة والأعمال الخالدة التى تحقق هذه الأهداف العليا لا تتم إلا بإرضاء الرغبة فى معونة المساكين والبر بالمحتاجين .

إن أكبر هداة البشرية هو أعظم محسن إلى الدنيا ولم يكن سوى محمد صلى الله عليه وسلم وقد نعته الله بما لا يبلغه البشر نعتا ولا ثناء «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ»

ولقد كان والد إقبال ذا قلب فياض بالحنان فغرس فى نفس ولده منذ شب عن الطوق العقيدة التى تذكر المسلمين بشهادة ربهم لنبيهم الكريم «وإنك لعلى خلق عظيم» وكان يطبع ولده على غرار هذا النور المحمدى ويربى فى كيانه الانسان الشاعر بآلام الآخرين .

ففى كتاب أسرار الذاتية يقول إقبال : وقع على بابنا سائل وقوع القضاء ورفع صوته كأنه نعيب غراب وأخذ يهز الباب ولما أمنى تصايحه وإلحافه خرجت إليه فأهويت على رأسه بضربة بعثرت ما بيده مما جمعه طوال يومه فلما رأى والدى ذلك اصفر وجهه الأحمر وانحدرت الدموع نهراً على خديه وقال :

اذكر يا بنى جلال المحشر .

يوم تجتمع أمة خير البشر .

وأرجع البصر كرة إلى لحيتى البيضاء .

ونحول جسمى المرتعش بين الخوف والرجاء .

كن يا بنى من البراعيم فى غصن محمد .

وكن زهرة يحييها نسيم ربيع المصطفى .

والذين شهدوا إقبالا بعد ذلك ولمسوا معاملته للبائسين يشهدون أنه كان مثلا عاليا فى البر بهم والعطف عليهم . وفى الحادثة التالية مثل حى لما كان يتحلى به إقبال من هذا البر .

أقام أحد أصدقائه الأغنياء بلاهور وليمة عرس وألح عليه فى قبول دعوته للحضور، وفى نفس اليوم أعد أحد عارفيه من الفقراء وليمة وأعز أمانيه أن يلبى إقبال دعوته ويحضر وليمته فلم يتوجه إقبال إلى مائدة ذلك الثرى بل ولى وجهه نحو صاحبه الفقير ليكمل أفراحه ويضفى على منزله الهناءة والسرور، ولما كان قصر ذلك الثرى يقع على مدرجة الطريق إلى منزل الفقير فقد عرج عليه وقال له : لقد قبلت دعوتك فى كرامة صديق الطاهى .

وهذا مثل آخر يزيد القارئ إيمانا بهذا الخلق عند إقبال ؛ كان يوجد فى مقاطعة البنجاب مصارع محترف فقير ، فبدا له أنه لو أعلن عن حفل عام للمصارعة،وذكر فى إعلانه أن إقبالا سيشهده مع كبار المدعوين ليختتم الحفل بإلقاء محاضرة فى المصارعة فما من شك فى أن هذا الحفل سيدر عليه أرباحا طائلة تعالج من فاقته وتفرج من ضائقته وما لبث المصارع الفقير أن بكر إلى إقبال منذ الصباح بفكرته العجيبة . ولكن ما شأن إقبال وتلك المصارعات والملاكمات على أن إقبال ما تريث ولا استأنى بل قال فى الحال إن كنت تثق بأن هذا الإعلان سيحقق الرواج لهذا الحفل ويزيد دخلك فلك ما أردت . وهكذا أعلن المصارع عن حفله وألقى إقبال محاضرة عن المصارعة استلهم أفكاره من ذلك النجاح الذى لقيه الحفل ومن شعوره الإنسانى استمد القدرة على طرق موضوع لم يكن يظن أنه سيدعى يوما للخطابة فيه .

لم تكن نظرة إقبال إلى البر بالفقراء نظرة فردية بل كانت نظرة اجتماعية عامة ففى إحدى مقالاته التى كتبها بعنوان « نظرة عمرانية إلى أحوال الملة

البيضاء » قال : « من ذا الذى لا تدمى كبده ويذيب نياط قلبه قلة ما يناله المسلمون من الكسب ، ومن ذا الذى لا يستنفد ماء شؤونه دماً قانياً ضآلة مساكنهم القذرة وظلمة حجراتهم الخانقة ومنظر أطفالهم الذى يجرح شعور العزة والإباء ببطونهم الخاوية الضامرة الخالية المنطوية على المخمصة والجوع فما عرفت الشبع قط، وإذا نظرت إلى أحد أزقتهم المظلمة فى واضحة النهار المبصر فإنه لا يكسر طلسم خيالك إلا صياح اليتامى وبكاء العراة الضامرين وأنين العجائز المتألمات . وفى جحور هذه الأزقة الملتوية ترى مئات من رجال ونساء كانوا قد رأوا دنيا الأحياء فى أحد الأيام وأضحوا اليوم فى حاجة إلى أن يروا كسرة من الخبز . فهل أحست جماعاتنا وهيئاتنا ومحافلنا هذه المناظر الأليمة فأضافت الى براجمها المنسقة فى مدح العظماء وتمجيد الشخصيات وحبك أكاليل التكريم وتقديم طاقات الأزهار لمن يستحق ومن لا يستحق فصلا ختاميا فى البحث عن رفع مستوى الحياة بين هذه الأحياء الإسلامية .

فالمسلم الذى يريد أن يقف حياته لنهضة المسلمين يجب عليه أن يواجه الحالة الاقتصادية ويقارن بينها وبين مثيلاتها فى العالم ليتبين وجوه النقص ووسائل العمل المنتج المفيد .

والذى يحاول أن يضع الحلول الصحيحة لهذه المشكلة عليه أن يطهر قلبه من أدران العصبية وأن يعلو فوق الخلافات المذهبية غير موجه همه إلى تأييد فريق بعينه فإن النجاح الاقتصادى لا يتحقق إلا فى ظل ارتباط الجميع

البر بالفقراء والرابطة الإسلامية

عندما رأى إقبال حالة مسلمى الهند ورأى تقلب السياسة الهندوكية وأمعن النظر فى الحالة الاقتصادية عند المسلمين بدأ ينشد للمسلمين الحرية الاقتصادية ليفك أسارهم من سلاسل يهود الهند فبدأ يضع مشروعا للدويلات الإسلامية الحرة التى تكتلت أخيراً وأطلق عليها اسم « باكستان » ومن ثم التقى إقبال والقائد الأعظم محمد على جناح فى الغاية وأخذت الرابطة الإسلامية بالهند شكلا جديداً انسع نطاقها فى إنشاء باكستان وفيما يلى رسالة إقبال إلى القائد الأعظم فى مسألة الفقراء :

عزيزى جناح : لاهور ١٩٣٧/٥/٢٨

أشكركم على رسالتكم وقد اغتبطت كثيراً عندما علمت أن كل ماتقدمت به إلى مقامكم بشأن تغيير مشروع الرابطة الإسلامية وأنظمتها قد نال اهتمامكم وتقديركم . ولست أرتاب فى أنكم تحسون بجميع مشاعركم إلى أى درك من الخطورة انحدرت إليه حالة المسلمين فى الهند وقد جاء الوقت الذى يتحتم فيه على الرابطة أن تقول كلمتها فى هذه المشكلة . أكل أمرها أنها تمثل الطبقة الممتازة العليا أو هى تحمل العلم لنهضة الجميع من المسلمين ان جماهير المسلمين قلما يتجهون بقلوبهم إلى هذه الرابطة ومعذرتهم فى ذلك ما يخامرهم من الاعتقاد بأن الرابطة ليست لهم وإنما هى للطبقة الراقية . وإننى لعلى يقين من أن جميع المنظمات والهيئات السياسية التى لا تضع فى مناهجها وأهدافها تنظيم مصالح المسلمين على سواء بينهم ستبقى عاجزة عن اجتذاب القلوب إليها .

إقبال

العشق والجمال

من كتاب روح إقبال

ليس من المستطاع تعريف الجمال وتحديده إذ هو ملىء بالأسرار التى تفوق حدود التعبير ورسوم التعريف .

هناك كثيرون تتيح لهم تجاربهم الفردية أن يشعروا بمعنى الجمال على أنك لو طلبت إليهم الإبانة عن مكنون شعورهم لتحيروا وضربوا أخماسا فى أسداس .

فهذا الجمال الذى أثار عواطفهم وألهب مشاعرهم وأثر فى نفوسهم لايجدون فى أنفسهم المقدرة التى يستطيعون معها الإفصاح عن آثاره وكنهه .

والجمال على حقيقته كامن فى عين من يحس به لافى المناظر المشهودة والصور المحبوبة ولاعلاقة للجمال والعشق بمظاهر الحياة بقدر مالهما من علاقة ثابتة بالمشاعر الباطنة وهذا الجمال من أكبر خصائصه التغير والزوال فالذى يبدو اليوم حسنا وجميلا قد لا يبقى فيه بعد حين حسن ولا جمال والذى ينحت صورة خيالية فإنه فى الوقت ذاته يصور نفسه ويندفع نحو الصور المتشابهة لما ارتسم فى خياله .

وكأن الله أودع فى الفطرة سراً من الكمال يستحيل النظر إليها وتستثير حب مشاهدتها كأنما هذه الفطرة تنشد على الدوام إظهار تأثير جمالها باستهواء الأفئدة إليها واجتذاب الأفكار لما فيها من روعة وإبداع ثم هى بعد ذلك تبقى

عارية من الجمال حتى يخلق فيها نظر الإنسان جمالا ولعل المرء لايدرك الجاذبية فى الشفق حتى ينظر إليه الفنان ويصيح انظروا ما أجمل الشفق .

إن دنيا اللون والعطر بستان حياتنا الجميل . إن هـذه الدنيا منفصلة عنا ولـكنها مرتبطة بنا خلقت من أجلنا . إن القلوب تصل إليها من منافذ خفية وكل موجود مدين فى عرفان الجمال للأنظار المشاهدة فلولم ير الجمال أحـد لبـكى حسرة وألما والعيون التى نفذت بأشعتها على مواطن الجمال هى التى عرفتنا كنوز الحسن فى البحار والجبال . فالعالم من غير تجلياتنا عليه محو وهباء وجلوة النور والصدى بغير تجلينا عدم وفناء .

قديكون من أعمال الفطرة أن تخلق التزاحم وتضع العوائق والعقبات فى سبيل الـكمال الإنسانى ثم يكون فضل الإنسان الحقيق فى أن يذللها ويزيلها ويسخر جهات الـكون لتحقيق مثله العليا وكأن الفطرة بهذا العمل العكسى هى التى تساعد الإنسان وتحفزه على التشييد والتجديد وعلى الابتكار والخلق والتعمير والعشق هو الذريعة الوحيدة لإحكام الذاتية وبقوته يثور الإنسان وتفور عزيمته طيرانا وتحليقا فى سماء المثل العليا الرفيعة ومن ثم يسيطر على جميع العوائق والعقبات وهذا هو الذى تختلف فيه التعابير لتلتقى عند معنى واحد يعبر عنه بالسكر أو التفانى أو الجذبات الـكلية .

وفـكر الإنسان وفطرته العليا قوتان تجتازان به حدود الزمان والمـكان وتحطمان من طريقه سلاسل القهر والجبر وبدون هذه المعانى لايتاح لأحد أن يظفر بآماله

أو يبلغ شاطئ حريته. ومن أهم ميزات العشق الرجاء القوى الدائم الذى لا ينقطع ولا يضعف .

إن إقبالا يعد العقل من خدام الحياة ويرى أن للعقل عليها أياد وحسنات ولكنه ليس كل شئ فيها وليس من الحكمة أن يكون التعويل عليه وحده بل وأن تنتهى مراحله عند غاية محدودة ومن دلائل عجز العقل وانحصاره فى نظر إقبال قلة الجرأة وانعدام المخاطرة التى تكتسح أمامها كل شئ فالعقل وحده لا يحقق أثرا من الخلق والتكوين ولا يبلغ معنى من الابتكار إلا بمؤازرة العشق والوجدان والعقل كثير التردد قليل التقدم وبينما العقل فى تبلبل واضطراب يعوقانه نرى العشق يعلو بقافلة الحياة إلى السحاب والتاريخ الإنسانى شاهد بأن أكبر الحوادث ومعظم الأمور الجسيمة التى غيرت حياة الشعوب والأقوام كانت جميعها فى الأكثر الأعم مدفوعة بتيار المشاعر والعواطف لا بعلل العقول والأفهام واستنباط النتائج من المقدمات .

يشكو إقبال العقل تقيده بالظن والتخمين ويرى أنه لا نتيجة ترجى من ذلك إلا فقد الاستعداد وانهيار قوى العمل فى حياة الإنسان وإقبال يسلم بأن العقل يصل بالقوافل الذاتية فى سيرها إلى المنازل المنشودة كما يصنع العشق ذلك ولكن شتان ما بين الطريقين فالعقل يوصل إلى الغايات بالخداع والحيلة والمكر والعشق يدفع الركب نحو الغاية بقوته القاهرة .

كلاهما يسرع نحو المنزل وكلاهما أمير القافلة
العقل يقود بالحيلة والعشق يدفع بالقوة

إذا اصطحب العقل حرارة الذوق صار قلبا وإذا فقد القلب حرارة الشعور فهو لايفضل التراب .

والعشق هو الذى من أجله نشأت الحرارة فى الذرات وظهر ميل العناصر وانجذابها للاتصال بأمثالها وأشباهها وامتزاج ذرات المواد بما يماثلها لإحكام وجودها من أمتع البحوث فى علوم الطبيعة .

قال ديكارت إننى أفكر إذن فأنا موجود ولكن إقبال يخالفه فيقول « إننى عاشق إذن فأنا حى » وليس العشق ضمانا للحياة وحدها بل هو ضمان لها وللخلود معها والفكر يثير الشك فى الوجود والعشق يجعل الوجود نفسه مؤمنا . »

أنا موجود أو غير موجود هكذا كان العقل يتساءل فى حيرته ولكن صوت العشق نادى فى إيمان إننى موجود » .

العشق ينشئ ثباتا فى الحياة وثقة فى البقاء بعد الرحيل من الدنيا والزمان أسير العشق لأن العشق أعلى منه وقد كان العشق وسيبقى أبدا وهو الجوهر الحقيقى للروح .

خلود الحياة فى فلسفة إقبال

كان شبح الموت المخيف الرهيب يبدو أمام الناس جسيما عظيما وبقدر ما كانت جسامته وخطره كان يبدو فى عين إقبال ضئيلا متلاشيا . لعله كان يرى أن العقبة الكؤود فى طريق رقى المسلمين الحرص على الحياة ، ومخافة الموت . أو كما عبر عنه الرسول الأعظم «حب الدنيا وكراهية الموت» وقد وجد أن خوف الموت ليس معناه إلا أمر واحد وهو ترجيح حياة الذلة والعبودية على موت الشرف والكرامة. فحاول أن ينتزع هذا المرض النفسى من صدور أهل الإسلام مبيّنا أن خوف الموت والإيمان لا يجتمعان فى قلب واحد وأن الذين تسنموا غارب العزة والشرف هم الذين يحملون رؤوسهم على أكفهم فى ميدان الكفاح لا تنخلع قلوبهم فرقا ولا ترتعش عزائمهم جبنا . وإنما يُقبِلون على الموت إقبالهم على العرس ويفرحون بالتضحية فرحهم بالنصر مؤمنين بالفوز فى الدنيا والسعادة بلقاء الله (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) فإما النصر وإما موت فيه الفخر .

ثم يذكّرنا إقبال بأسلافنا الماضين الذين ملكوا الممالك وأدالوا الدول ووطئت خيولهم القلاع والحصون وما اشتروا هذا المجد إلا بدمائهم . فهو فى قصيدته الشكوى يذكرنا بهذه الحقيقة فى جلاء حيث يقول :

بمعابد الإفرنج كان أذاننا ... قبل الكتائب يفتح الأمصارا
لم تنس أفريقيا ولا صحراؤها ... سجداتنا والأرض تقذف نارا
كنا نقدّم للسيوف صدورنا ... لم نخش يوما غاشما جبارا
وكأن ظل السيف ظل حديقة ... خضراء تنبت حولنا الأزهارا

ثم يقول :

لو ان آساد العرين تفزعت ... لم يلق غيرُ ثباتنا الميدان
وكأن نيران المدافع فى صدو ... ر المؤمنين الروح والريحان

* * *

ويصف ذلك المسلم الذى ينطلق كالسهم النافذ إلى العدوّ بعد أن يكبّر تكبيرة الجهاد فى الميدان فيقول :

ذلك المؤمن المجاهد يغشى ... غمرة الحرب والردى يخشاه
تحت ظل السيوف ماض قوىٌّ ... درعه لا إله إلا الله

يبيّن لنا بعد ذلك أن الحالة قد تغيرت وأن سنة الأقوام قد تبدلت واستحكم الجبن فى قلوب الكثيرين من المسلمين وأصبحت وجوههم تصفرّ اصفرار الشمس عند الأصيل إذا ذكر الموت أو الحرب ثم يخاطب الذين يتقاعسون عن الجهاد ويتخلفون عن النضال قائلا : « إن خطباء منابركم ووعاظ أنديتكم أصبحوا غير نافعين ولا مغنين عنها » .

ثم يقول :

لم يبق فى يد مسلم درع ولا ... سيف يصول به ليوم جهاد

ولو انه وجد السيوف فهل له ذوق الخلود وحب الاستشهاد
من كان يجزع من منية كافر هل يستطيب مصارع الأمجاد

إذا كان المرء مخلصاً لله حق الإخلاص وإذا كان واثقاً بأن الموت ليس إلا العقبة الأولى التى يجتازها المرء إلى الحظيرة الأبدية والمتعة بلقاء الله . أقول إذا كان الإيمان هكذا فلا محل للخوف من الموت . أما أولئك المضطربون الخائفون فهم أولا شاكون فى لقاء الله وفى الخلود . وثانياً فهم يعبدون المال ويؤثرون الحياة الدنيا ويظنون أن هذه الحياة المادية هى المرحلة الأخيرة للسعادة لذلك يخشون أن يموتوا فيُحرموا . وإقبال يحكم على هؤلاء بأنهم فقراء وأن نارهم لا تساوى التراب . وهم على كل حال سيموتون طوعا أو كرها :

المؤمن الحق كان الله غايته والله كان لديه السمع والبصرا
والآن أضحى إله المال كعبته وخوفه الموت أفناه وما شعرا
سيان فى الشرك هذا عابد ذهبا يسعى إلى جمعه أو عابد حجرا
يا مؤمناً بلقاء الله مالك فى ذعر من الموت قد أشبهت من كفرا
قد عاد قلبك ميتاً بين أضلعه كأنه فى حنايا الصدر قد قبرا
من كان يحسب أن الموت هاوية وأنه عدم يستأصل البشرا
فنار آماله ينحط عنصرها إلى التراب ويلقى الموت محتقرا

لما كان سم الموت ساريا فى كل الدماء البشرية فقد حاول إقبال أن يوجد من نفس السم ترياقا؛ وكيف استطاع أن يصل بمهارة إلى استخلاص هذا الدواء الغريب ؛ انه عمد إلى تذكيرنا بأن الموت أمر محتوم وأن لكل إنسان أجلا

محدودا وإذا كانت هذه النهاية قضاء نافذا فى الخلائق فالخوف منها لا يجدى فتيلا ومحاولة الفرار مع كونها جبنا وانحطاطا فى الوجدان فهى مخالفة لحكم العقل وصواب التفكير أيضا . فالعاقل لا يفكر فى النجاة من القضاء المبرم كما لا يفكر فى أن ينفذ من أقطار السموات والأرض وهو فى هذه الحالة إلى الجنون أقرب وبالمجانين أشبه . ولهذا عرض لنا عدة صور تمثل فناء هذا الكون وهى صور من حوادث الطبيعة تحمل إلينا فنًّا بديعاً فى منظرها الرهيب المخيف وتذكرنا عند مطالعتها بعوالم السماوات والأرض جميعا فى طريقها إلى الانتقال أو الزوال. وكما أنها تعالج فينا خوف الموت فهى كذلك تنبهنا من غفلتنا وترفع عن أعيننا أغشية الغرور والركون إلى زهرة الدنيا وفتنتها :

تحت نور الأفلاك عيش جميل ... وأرى النور ينطفى ويحول
وعلى كاهل المساء ترى للشمـ ... ـس نعشا بكى عليه الأصيل
فى سنا البدر للكواكب أكفان ... توارى بها الشعاع النحيل
بينما هذه الجبال حصون ... وإذا صخرها كثيب مهيل
وتقيم الأمواج فى البحر أبرا ... جا ومن أوجها الرفيع تزول
ورياح الخريف تكمن للزهر ... وفى ثغره ابتسام بليل
ثم تأتيه ساعة يذهب الزهر ... هشيما وقد طواه الذبول
ليس زاد المسافرين سوى الخو ... ف من الموت والحياة رحيل
رب لحن فاق البلابل سحرا ... فى ضمير الأوتار مات جنينا
سر النار قبل أن يبلغ المهد ... توارى تحت الرماد دفينا

قطرات الندى على الورد تجرى ... لؤلؤا سائلا على مرجان
لم تكد تُسعِد النواظر ، حتى ... بدد الريح شملها فى ثوان

إن كأس الردى تطوف على الدنـ ... ـيا وتسقى أبناءها أجمعينا
وبلا موعد ودون انتظار ... تبغتُ الأولين والآخرينا
عالم الكون كلُّه عالم الـ ... ـمحو الذى فيه مصرع العالمينا

وقد حاول أن يبدد من النفوس استسلامها إلى الدنيا وإخلادها إلى نعيمها الزائل ودعانا إلى الحذر منها والاحتياط فيها فقدم هـذا التشبيه الرائع فى هذه الأبيات :

مثل الحيـاة كطائر مترنم ... غنى فأرقص حوله الأزهارا
ما كان أعذب لحنه لكنه ... كالحلم حلق فى الفضاء وطارا

لايعلم الإنسان كيف أتى الى ... دنيا المتاعب أو متى يترحل
مانحن فى الأكوان غير حديقة ... أزهارها عما قليـل تذبل
يأيها الحرص ابك فى الدنيا دما ... دنياك ليس بها لحىٍّ منزل
ان الحيـاة شرارة لم تبتسم ... إلا لتجعلنا لهـا أحطابا
فى عرس دنيانا مآتم للردى ... تطوى شيوخا فى البِلى وشبابا
والمرء لم يبرح أسـيرا حائرا ... مابين سر الأمس أو لغز الغد
ان الحياة على الأنام بخيـلة ... بدوامها والعيش غـير مخلد
الموت فيهـا هين كنسيمها ... والعيش أصعب من منال الفرقد

الله تعـــالى هو المنفرد بالبقاء وجميع العالم لابد أن يفنى وتفسير حـلم الموت جرى فى حياة الملوك والصعاليك والعظماء والسوقة . أما خلود الإنسان فهو من تقدير الله فى الأزل إلا أن هذا الهيكل الترابى الناقص لابد أن يمر عليه الموت ولا بد أن يمر الإنسان من هذا العالم المملوء بالحوادث التى لم تترك صحراء ولا مدينة ولم ينج منها بر ولا بحر وفى ذلك يقول : ـ

الرعـــد والبروق والزلازل ... والقحط والآلام والنوازل
بنات دنيـــانا التى لاتلد ... إلا خطوبا جمرها متقـــد
فى الكوخ والقصر وفى الصحراء ... والمدن المنيعـــة الشماء
وفى رياض البلبـل الرنان ... وفى تلال البُوم والغربان
يقتحم الموت بجيش القدر ... حصون فخفور وبطش القيصر
إذا رأيت الموج فى البحر سكن ... فالموت كامن لإغراق السفن
لا نغم العود ولا شكوى الحزين ... ولا ابتسام البشر أو دمع الأنين
ولا امتشاق السيف بين الدارعين ... ولا صدى التكبير بين الهاتفين
يعيد نبض القلب فى الصدر الخراب ... أو يرجع النفس إذا حان الذهاب

وتعد هذه الصور الشعرية التالية فخرا لكل لغة ونغما شجيا لكل لسان فهو يوضّح لنا أن الآلام لا بد منها لتمحيص الإنسانية وعلى نيرانها تنضج الأرواح القوية ولا يمكن الوصول إلى الأفراح إلا بعد الأحزان ولا تنقش الحكمة على القلب إلا بحروف من دمه . والبلبل الذى لم يعرف قسوة الخريف لا يحسن استقبال الربيع والآلام هى الطريق إلى النور والدرجات العالية فى معراج

العظمة . والذى لم يعرف أنين المساء والعاشق الذى حُرم فى هواه من حسرة جواه وقاطف الزهر الذى حافظ على يده سليمة من الشوك والذي قضى طول عمره فى الرفاهية والترف لم يكدح فى تحصيل علم ولم يكدّ فى اقتناء فن وإحياء عبقرية. أولئك جميعا محرمون إلى الأبد من الإحاطة بكنوز أسرار الحياة واستخلاص الذهب من مناجمه العميقة . يقدم لك هذه الأمثال الجميلة فى هذه القصيدة :

إن كانت الحياة خمرا صافيا ... يغمرنا من رأسنا إلى القدم

ففى الدموع للحياة جدول ... تصفو به النفس وتنبت الهمم

ان حباب خمرة الآمال لا ... يرقص إلا فوق أمواج الألم

والله فى حكمته علّمنا ... أن انشراح الصدر قبل ألم

عواصف الخريف فى ليل السهاد ... علمت البلبل ترجيع النغم

دم الأمانى فيه للشعر مداد ... وفى خطوب الدهر أسفار الحكم

نشيد هذا الكون يبدو ناقصا ... حتى يتم الدمع ألحان النشيد

ما أيقظ الشباب من سكر الهوى ... إلا الأسى ينبه العقل الشريد

يارب شاك صاغ فى آلامه ... جواهر الألحان من بحر الأنين

قد كان مثل العود فى أحلامه ... فأيقظته ضربات العازفين

آلامنا إلى العلا أجنحة ... نعلو بها فوق مطارات النسور

الروح سرٌّ والحياة ظلمة ... وشعلة الآلام للأرواح نور

فى خفقان القلب لحن صامت ... لم تحكه على غصونها الطيور

ان الذى لم يدر أنّات المساء ... ولم تسامر عينُه نجم السماء

ولم يحطم جام قلبه الأسى ... ولم ينر ظلام ليله البكاء
والسادر اللاعب طول عمره ... لم يستمع إلا إلى عذب الغناء
والعاشق المحروم فى غرامه ... من لوعة الذكرى وحسرة الجفاء
ومجتنى الزهر الذى لم تختضب ... يداه فى الشوك بحُمرة الدماء
جميع هؤلاء مهما سعدوا ... من نعم الدنيا بأمن ورخاء
فإن أسرار الحياة تختفى ... عنهم وهم عنها دواما فى اختفاء

وإنه ليملكك العجب إذا رأيت الشعراء جميعا فى ناحية وإقبالا وحده فى ناحية أخرى فهم يتغنون بالوصال ويذمون الفراق ويتبرمون بالأسفار ويحمدون الإقامة الهانئة بينما هو يحب الرحلة والتجوال ويطرب لدمدمة الرعود وأزيز المراجل وصخبة الأمواج فيقول :

الوصل فى الحب غال ... وقيمة الهجر أغلى
الوصل حلو ولكن ... عواقب الهجر أحلى
فى القرب موت الأمانى ... والعيش فيه فناء
والبعد فيه حياة ... يذكى ضياها الرجاء
إن انقادا الأمانى ... وحسن شدْوِ الطيور
وضجة الخلق سعيا ... فى العالم المعمور
والسحب حين تراها ... تسقى الربى واليبابَ
والموج فى البحر يعلو ... حتى يفوق الهضابَ

وكل ما فى البرايا من روعة وجلال
لولا يد الهجر فيه لم يزْدَهِرْ بالجمال

يحدثنا إقبال عن الظواهر الكونية بلغة ساحرة ويبيّن لنامرارا أن الربيع لا تتفتح أزهاره ولا تنضرُ أغصانه ولا يبدو كل ذلك جميلا فى الحدائق إلا عند ماتتساقط كل الأوراق بعواصف الخريف وتبدو الطبيعة جافة صامتة نائمة حتى يُوقظهاذلك الربيع بتغريد أطياره كما مر فى الصور السابقة فيقول لنا إن ظواهر الحياة تعطينا درسا بليغا فليس الموت إلا غروبا لشمس الروح ثم تسطع بعدذلك فى صبح الخلود الذى لا فناء بعده :

يزعم الجاهلون أن المنايا مغرب فيه للحياة انقضاء
أفلم ينظروا إلى الشمس يبدو نورها بعدما طواها المساء
تغرب النفس ثم يشرق صبح فيه للنفس بالخلود ارتقاء

عند ما أريد بناء مستشفى فى الحجاز أراد إقبال أن يقدم إلينا من سحره بلسما يهوّن صدمة الموت ويوضّح أن المرء بعد اجتياز تلك المرحلة يحيى حياة هانئةلايحياها الخضر فى عمره الطويل. ثم يهوّن احتمال الصدمة الأخيرة بعبارات سما فيها خياله وتصويره . فأنت ترى أن الشاعر ينظم القصيدة فإذا لم يجدها ملائمة لطبيعة روحه حذف منها أشياء وأثبت غيرها جديدة وأعمل فيها التغيير والتبديل . كذلك الرسام والمهندس والكاتب وكل الفنانين الذين نشاهد مبتكراتهم أمام أعيننا . والقدرة تبدع فى فن الإنسان وترقى به تحسينا وتجميلا . وليس الموت إلا حالة يراد بها إصلاح النفس وأعلاؤها وتتجلى لك هذه الحقيقة

واضحة فى هذه الأبيات :

يا أساةَ الحجاز هل لاعلتم ... أن بُرء الحياة أرض الحجاز
إن سر الحياة يكمن فى الموت ... فيحكى حقيقة فى مجاز
فرح المؤمنين فى سكرة الموت ... بقرب المهيمن المتعالى
هو أسمى من عيشة الخضر ... فى الدنيا طوال الدهور والأجيال
لم جئتم للمؤمنين ببرء ... إن إيمانهم يداوى الجريحا
والذى ذاق من يد الوحى كأسا ... ليس يحتاج للدواء مسيحا
كل كون أبلته أيدي الليالى ... أحرقوه ليصنعوه جديدا
يهدم البيت بعد حين ليبنى ... منزلا عاليا وقصرا مشيدا

فى أحوال عديدة وبأساليب مختلفة يبين شاعرنا أن الحياة تختفى ضعيفة لتظهر قوية فلا خوف من ذهاب شىء لأنه سيظهر بصورة أجمل وأحسن كما مرّ فى الصورة السابقة ، وفى هذه القطعة يتحدث لنا عن تزلزل الحياة واضطرابها الدائم ليزيدنا يقيناً بها :

فى خضم الحياة يضطرب المو ... ج ولا يستقر فى أىّ حال
ثوران الحياة فى الكون بادٍ ... كل شىء به رهين انتقال
كل ذرات هذه الأرض دوما ... فى احتدام وثورة واشتعال
لا يغرنكَ فى الجبال سكون ... قد يجىء السكون بالزلزال
ليس ذاك الثبات فى الفلك الـ ... ـدائر إلا من خدعة الأنظار
لا تنى فى المسير قافلة الكون ... ولا تنتهى من الأسفار

عالم دائم التجدد موّار ا ... خُطىٰ ليس فى الطريق بوان
لا يمـل التغيير إلا خمول ... ليس يدرى ما لذة الطيران
الحيـاة الجهاد والجد والوث ... بة والعزم ماضياً والبـكور
يُقطَف الزهر فى الفروع ولـكن ... فوق تلك الفروع تنمو زهور

إقبال يعرف هـذه الحقيقة ويخلق لها من الطبيعة أجمل الصور وأحدث التشبيهات ليزيل اليأس المظلم بنور الأمل المشرق . وفى هذه الأبيات دقة هذه المعانى متجلية تريك الحياة ماثلة فى تغيرها من جميـل إلى أجمل ومن حسن إلى أحسن . فهو يخاطب النجم الذى يلمع فى ظلام حالك مضطرباً فى القبة الزرقاء قائلا : لعلك تخشى فناء حياتك بإشراق الصباح ، فلذلك تقضى ليلك فى فزع. ويقول للمسافر فى رحلة الدنيا : إن موت البراعم حياة للزهور :

فناء ملايين النجوم مبشّرٌ ... بأنوار شمس فى السماوات تولد
ونوم الردى سكر سيعقب نشوة ... بخمر حياة فى الخلود تُجدّد
وتوديع أيام البراعيم مؤذن ... بخلق الزهور الباسمات جمالا
ومصنع هذا الـكون بالخلق دائر ... فإنى أرى فيـه السكون محالا
وليس سوى التغيير فى الـكون ثابت ... يغيّر حالا ثم ينشئ حالا

فى هدوء المساء يقف إقبال فى عالم سكينته وأحلامه على شاطئ نهر (راوى) ناظراً إلى منار قصر الملك الجفتائى الذى يُسمعه قصة انقلاب الزمن ثم يتأمل إلى سفينة تجرى مسرعة فى البحر ثم تغيب عن الأنظار فيترجم عن فـكره المنير بهذا البيت :

سفينة عيش المرء تبدو وتختفى ولكنها فى الموج لا تتحطم

وقد تحدث إقبال فى صور مختلفة عن خلود الحياة الإنسانية والآن : تأمل إلى النهر الذى ينحدر من القمم المرتفعة فى ملاءته البيضاء هابطا كسلاسل الفضة مُرسلا من خريره نغما شجيا يتعلم منه البلبل ترجيع ألحانه حتى إذا هبط إلى السفوح والوديان تفرقت قطراته كما يتفرق الأُلّاف وكأنك لا ترى الآن من ذلك الماء السلسال شيئا فإذا سرت قليلا بعد ذلك بين الرمال رأيت النهر متجلياً فى حلاه الفضية يسقى من حوله الغابات والأعشاب . كذلك نهر الحياة يهبط من سمائها ثم يغيب حيناً ليظهر منسقا فى مجرى الخلود . ويقدم لنا هذه الصورة الأنيقة :

من رؤوس الجبال ينحدر النهر طروب الأمواج عذب الأغانى
ينقل الطير عنه بين الروابى ما يبث الغصون من ألحان
كخدود الحور الحسان تراه فى صفاء البلّور حلو الخرير
ثم تمضى تلك المياه ضَياعاً فى تلال منثورة وصخور
قطرات من النمير طوَتْها فى ثنايا الرمال أيدى الفراق
ثم تجرى بها الينابيع فى الأرض فتحظى بعد النوى بالتلاق
فإذا النهر بعد ذلك فى مجراه يحيى الزهور والأعشابا
فضة تنبت الزمُرُّدَ فى الأرض وتسقى النخيل والأعنابا
وحياة الإنسان نهر سماوى توالت بسيره الأقدار
كلما غاض ماؤه عاد فياضا فما ينقضى له تيّار

شعلة النفس لا تصير رمادا ضوؤها خالد على الأزمان
كل شئ يمضى وكل حياة تنقضى غير جوهر الإنسان

ويطالعنا إقبال ببرهان عميق يحملنا على الإذعان والتصديق ويزيد الإيمان فى أنفسنا جلاء ووضوحا وذلك أنه لما كان الحرص على الحياة وتنازع البقاء مما هو مركز فى جميع طباع الأحياء مستقر فى غرائز الكائنات وكأن القدرة بذلك نقشت سر الخلود فى حب الحياة . وعموم الموت وشموله يدلنا على أنه لايؤثر فى حقيقة الوجود وأنه لايزيد عن كونه أمرا عرضيا كالنوم الذى لايؤثر فى حيوية النائم وإلى هذا المعنى يشير بقوله :

سر الخلود جرى مع الدم فى العرو ق وخالط الأرواح والأحياء
لم يُحْيِنا الرحمن فى الدنيا سدى وهو الحكيم مشيئة وقضاء
لما رأيت الموت يشملنا عا مت بأنه لن يستحيل فناء
الموت مثل النوم يبدأ سكـ رةً ويعود صحوا دائما وبقاء

لا توجد فى علوم الطبيعة قيمة خاصة للحياة الإنسانية وليس للمعانى الإنسانية العليا شأن خاص فى هذه الكائنات ولكن الدين يعلّمنا أن الإنسان أشرف المخلوقات بل ان هذه الكائنات خلقت لأجله .

وإذا كان هذا صحيحا فتأملوا إلى تلك النجوم التى تنير منذ ملايين السنين التى تكبو العقول دون حساب أعمارها فلنوازنها بالإنسان الذى هو أبعد نظرا وأعلى قيمة وشرفا من النجوم ومما وراء الأفلاك. وليست السماء فى سعة فطرته إلا نقطة ومقصد حياته أعلى من مقامات الملائكة ومن أنفاسه يتجلى النور فى

محافل القدرة وقد حمل الأمانة التى عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها. فهل تحياهذه النجوم كل هذا العمر الطويل والإنسان الذى يساميها بقلامة ظفره يفنى فى لحظة؟ . وهل هو أقل من هـذه الذرات اللامعة حتى تبقى هى فى لمعانها ثم يمحى ضوءه فى لمحة؟ . :

يا أيها المسلم إنّ الأرض والسماء لك
ضـياؤك القدسى أعلى من شرارات الفلك
ما جئت فى الدنيا لتفنى وهى بالخلد تدوم
هل تصبح الشمس أقل قيمة من النجـــوم

تأملوا إلى حقيقة البذور عند ما غطّيت بتراب الأرض وهى لم تضمحلّ تحت الثرى ولم ينضب معينُ حيويتها وهى دفينة فى ترابها. بل كانت فى تفاعلها مضطربة للنشوة والنماء وشعلة الحياة المستورة فى وجودها لم تنطف من تلك الظلمات حتى نمت وترعرعت وتفتحت أكمامها بالزهور الباسمات عن أجمل الألوان وأعطر النسيم حتى أوحت إلى نفس الشاعر هذه الأبيات:

لقد دفنوا فى التراب البذورا فلم تفن فى لحدها الهامد
ولم تنطفئ نارها فى الحياة على طول مرقدها البارد
لقد نسجت للحياة القباء وصاغت من الزهر أبهى حُلاه
نما غصنها زاهرا واستعادت من الموت تجديد ذوق الحياه

الشاعر الواحد يعبر عن المعنى الواحد بأساليب مختلفة ولا ضير عليـه من تـكرار المعنى الذى تفتن له فى تجديد الحلة وتجميل الأسلوب وهـذا هو شأن

إقبال . فقد عبر لنا عن مساء الموت وصبح الخلود فى الصور السابقة ثم هو يعيد هذا المعنى فى ثوب آخر حين يعرض علينا الصباح مقبلا فى حلّته الباهرة فيوقظ العالم لاستقبال الحياة بنشوة وأمل وما الموت إلا صورة لهذا المشهد الطبيعى الجميل وإليك هذه الأبيات :

حينما يسفر الصباح نديّا ناصعا فى مواكب الإشراق
يغسل النور فى المشارق أدران الدياجى عن حلة الآفاق

* * *

ويطير الكرى وينتبه العشب وتصحو عزائم الكائنات
ويهبّ الأحياء فى البر والبحـ ـر ليستقبلوا عروس الحياة

* * *

وإذا كان للخلائق ناموس يرينا الصباح بعد المساء
فكذا تذهب الحياة ولكن بعد ليل الحِمام صبح البقاء

ليست حلقات الحياة الإنسانية ضيّقة إلى حد أن ترتبط بالهيكل الترابى وجودا وعدما .

ثم ان الدنيا أول المنازل وليست آخرها . هذه القبة الزرقاء ليست نهاية وجودنا وليست الأجسام إلاّ وكرا لهذه الأرواح فإذا ذهب الوكر يخلق وكر آخر . هـذا هو عمل الفطرة التى لا تتقيد بسلسلتى الليل والنهار . وقد حدثنا إقبال عن هذا العمل أحسن الحديث وبيّن أن المسلم عظيم الشأن فى الخلود وأنه أقوى وأعظم من هذا الكون المحدود :

فوق السماء أيها الحرّ سماوات أخر ... وفوق هذا المجد فى دنياك مجد منتظر
بعد الحياة أيها المسلم تبدأ الحياة ... صانع دنياك وأخراك معاً هو الإله
إن البرايا دول بها الفضاء حافل ... لم تنقطع من الطريق هذه القوافل
وكم وراء عالم الألوان من عوالم ... فلا تضع حدًّا لما فى النفس من عزائم
كل الذى تعرفه ليس نهاية الوجود ... فكم توارت مدن وراء هذه الحدود
إن هُدِم العشّ ففى البستان تنشأ الوكور ... طِر للخلود مؤمنا ليس الجمود للطيور
فبعد هذا الظل يا بلبل ماء وهواء ... وجنة أخرى يطيب فى رياضها الغناء
الليل والنهار للآمال لا يتسعان ... فاطلب مقاما للعلا فوق الزمان والمكان

تذهبُ الأفراد ويبقى النسل والأمة . ويجب على المسلمين أن يذكروا أن بقاءهم فى هذه الدنيا ضرورى لتكميل حكمة الله، والرسالةُ التى لم تتم فى أمّتى الخليل والكليم يتمها أذان المسلم . إن النسيم العليل يمرّ على البراعم ولكن الزهور لاتستكمل نموها حتى تُدمى يد البستانى أغصانها وأشجارها بالتشذيب. والصاعقة تسقط على وكر القمرى فيموت والبلبل يقع فريسة فى شرك الصيّاد ولكن رونق الربيع باق. وآلافُ الطيور تقبل وتنشد ألحانها وتطير والبستان لا يزال قائما :

إذا سقطت زهرة فى الربيع ... فكم فى بساتينه من زهور
ويارُبّ لؤلؤة حطموها ... لترفع فى التاج أو فى النحور

يغيب الصباح من المشرقين ويمضى المساء من المغربين
وما زال يقبل هذا وذاك جديدين فى حُلة النيرين

* * *

مئات السنين مضت فى الحياة وما استنفدت بحر أزمانها
وكم أفرغ الشاربون الكؤوس وما زالت الخمر فى حانها

* * *

وكم زال أمسٌ فوافَى غدٌ وكم أشرق النور بعد الظُلَم
يزول عن الأرض أفرادُها وتبقى الشعوب بها والأمم

المسلم آية من آيات الله ، وآيات الله لاتزول . المسلم باق ليرفع العَلَم ويتسنم خلافة الأرض . وأعـداء الإسلام يحاولون أن يسقط هذا العَلَم وأن يذهب المسلمون ولـكن هؤلاء الأعـداء أنفسهم كثيرا مّا يشاهدون نور الإسلام فيصبحون فى طليعة أنصاره وحماته فينقلب عدوانهم حماية ورعاية. وإذا سقطت بعض مواطن المسلمين فالمسلم سيبقى والإسلام لن يفنى :

ذلك المسلم من أندلس سيعيد العزمُ فى الشمس مكانه
من سقاه العشق يوما خمره لم يعد فى السكر محتاجا لحانه

* * *

والليالى علّمتنا عِبَرا فى الذي مرّ به غزو التتار
كفروا ثم اجتلوا نور الهدى فاهتدوا لما رأوا ذاك المنار

* * *

عرفوا الإسلام فانقادوا له وغدا أعداؤه ركن حماه
عزت الكعبة وانهار الصنم وهوى الشرك بتوحيد الإله

* * *

إن هذا العصر ليل فأنِرْ أيها المسلم ليلَ الحائرين
وسفينُ الحق فى لج الهوى لا يرى غيرك رُبّانَ السفين

* * *

أنت كنز الدر والياقوت فى موجة الدنيا وإن لم يعرفوك
محفل الأجيال محتاج إلى صوتك العالى وإن لم يسمعوك

* * *

ليس فى الوقت فراغ فاعتزم واملأ الدنيا بأعمال شريفه
أنت نور الأرض تهدى أهلَها لن يُرى غيرُك فى الأرض خليفه

ما زال المسلم ممتحناً بالشدائد والحوادث الجسام . ولقد انهالت على المسلمين مصائب الزمن ورأوا من البلايا ماضاع بمثله ملك جميع الأمم السابقة من إغريق ويونان ورومان وفراعنة . ولكن الحوادث ارتدت عن المسلم كما ترتد الحصباء عن القلعة الشماء . وكل مصيبة تنزل بالمسلم تصير عاملا على إسعاده وسبباً فى رقيه:

نحن نهدى الخلق زهراً وثمارا وسوانا يبعث النار ضراما
كل نمروذ إذا أوقد نارا عادت النيران برداً وسلاما

* * *

نحن بالإيمان نبنى عزنا لا نبالى الهول أو نخشى الصعاب

وإذا الباغى رمى فى غرسنا جذوة الظلم جعلناها ترابا

* * *

ذهب اليونان والرومان وا فرس قدما وفراعين الزمان
وهُدى الإسلام ما زال على قمة الدنيا يدوّى بالأذان

وهاهو يذكّرنا بأن الممثل لوجود الملة هو الأمة، وأما الأفراد فهم زائلون، بهذا يدعو المسلمَ إلى أن يبذل نفسه فرداً لكى يحيى دولةً وشعباً، ثم يذكّره بأصله الأزلى وفرعه الأبدى ويضع نار اليقين فى صدر المسلم محمولة إليه فى ثنايا هذه الأبيات :

معيشة الفرد خيال والبقاء للأمم
فكن فداء المبدأ الـ أعلى إذا نادى العلم

* * *

منزلك العلوى لا تحجب صرحه الغيوم
أنت من الجيش الذى غبار خيله النجوم

* * *

فى العالم الأول من مطالع الأنوار كنت
والناطق الأخير فى رسالة الرحمن أنت

* * *

قم وانشر التوحيد فى الدنيا ووحّد الأمم
فأنت خير من دَعا وأنت خير من حكم

المنظر الذى يروع الإنسان هو حركة الموت التى تسكن بعدها الأعضاء وتبرد الحواس ، فحينما يراك إقبال مرتعدا مذعورا لهذا المشهد الرهيب يضع على قلبك برد العزاء ويبين لك أن ملك الموت لا يميت الأرواح وإن أفنى عالم الأشباح :

يعصف الموت بالجسوم ولكن ليس يُفنى من قوة النفس شيّا
تصعد الروح للخلود ويبقى عالم الغيب والشهادة حيّا
لا تمت من مخافة الموت جهلا فبغير الأنفاس روحك تحيا

ليس الإنسان من هذا العالم فى شىء فجميع ما حوله من المظاهر المادية تضمحل وتذهب مع الهشيم ويبقى بعد ذلك جوهر الإنسان ساطعا . يحدثنا عنه إقبال :

هوى سرير « كيقباد »(١) وانطوى إكليل « جمّ »
وأصبح الكل رمادا مثل هيكل الصنم

***

أما أنا فلست أدرى أين يعلو نظرى
أنا تراب غير أن الـ شمس دون جوهرى

فى سكون السحر تتفتح قلوب الشعراء كما تتفتح الأزهار لتحتضن النسيم وتستقبل الندى وتضىء مشاعر ذلك القلب على الأحياء وغير الأحياء حتى تتسع

(١) كيقباد وجم من ملوك الفرس القدماء .

للوجود كله بما فيه من ماض وحاضر فينظر إلى تل من الرماد فيسمع من صمته حزن الماضى ويقول إننى كنت شجرة مشتعلة يأوى المدلج إلى نارى ثم أطفأتنى عواصف الصحراء . هكذا سمع إقبال وسرعان ماتلفت فإذا نهر «السار»[1] قد صفت مياهه كأنها مرآة لنجوم السماء فعادت نفسه الحزينة إلى الأمل بعد اليأس والرجاء بعد الخوف وحدّث عن هذه المشاعر بقوله :

قد تغنى قلبى فأسمعَ أذنى نغما فاق رنة الأوتار
وكأنى رأيت نهر حياتى نابعا من صفاء عين السار

* * *

أزلىٌّ بعنصرى أبدىٌّ منزلى فى الخلود فوق المنازل
إن جسمى من التراب ولكن روحىَ البحر ماله من ساحل

ما دام المرء لايقف على حقيقة نفسه ومادام يقيس الجوهر الإنسانى بالهيكل الترابى فإنه كل وقت مستهدف للخوف من ساعته الأخيرة . وإقبال يندّد بهؤلاء ويصفهم بهذا البيت :

يلازم خوفُ الموت كلَّ مضلل يرى أن مقياس الحياة ترابها

إن الذى يحافظ على كمال ذاتيته يحيا بكل شىء حتى بعوامل الموت نفسها هذه الكواكب والأقمار تزول ولكن نشوة الذاتية لا يخبو لمعانها إلى الأبد . والذى تمكن من كمال ذاتيته ونضج إيمانه لا يخاف من الموت القادم . وقد أفهمنا إقبال مرارا أن ارتكاب أقبح الذنوب أساسه الخوف ولاسيما خوف الموت . هذه الخشية وما يتبعها من يأس وقنوط يسمّيها أم الخبائث كالخمر التى تخدر الأعصاب

(١) أحد الأنهار الصغيرة .

وتذهل الروح عن مقاومة الصعاب . وكثيرا ما وازن بين القلوب الفزعة المضطربة والقلوب الآمنة الثابتة وبيّن أن الواثق بنفسه يهجم على الأسد كأنه من المعز والخائف يفر من الغزال كأن أسدا تعقّبه . ولو لم تكن فى قلوبنا شائبة الوجل لعبرنا البحر كأنه صحراء . وأما الفزع فيرينا فى كل موجة تمساحا :

يعلو على الموت من تسمو إرادته ... وفى عزيمته صدق وإيمان
عمر الكواكب محدود وأنت إلى ... غير انتهاء بكأس الخلد ريان
يرى الجبان غزال القاع مرتعدا ... كأنه أسَدٌ فى القاع ضرغام
والحر يلقى أُسود الغيل مبتسما ... حتى كأن أسود الغيل أغنام
إن الشجاع يخوض البحر مقتحما ... كأنما الموج أزهار وأدواح
وموجة النهر فى عين الجبان بها ... غول وحوت وتنّين وتمساح

ويقول :—

المؤمنون على عنا ... ية ربهم يتوكلون
لا خوف يفزعهم ولا ... هم فى الحوادث يحزنون
لو مر أضعفهم على ... فرعون يجتز الرؤوسا
لأراك فى الإفصاح ها ... رونا وفى الإيمان موسى
إنى رأيت الخوف فى الـ ... ـدنيا عدواً للعمل
هو مطفئ نور الرجا ... ء وسالب كنز الأمل
يرمى الإرادة بالتزا ... زل والعزيمة بالخور

ومن احتواه الخوف لا يجنى من الروض الثمر
المؤمن الوثاب تعـ ـصمه من الهول السكينة
والخائف الهيّاب يغرق وهو فى ظل السفينة
تلقاه عنـد شبابه هرما قد انحطت قواه
وتعثرت قدماه قبـ ـل الخطو وارتعشت يداه
فى السلم قبل الحرب مس لوب الشجاعة حائر
الصبر عنه نافر واللب منه طائر
أعداؤكم يخشون سيـ ـف يقينكم قبل السيوف
ومرامهم أن تُسرعوا بالخوف من قبل الحتوف
حتى تروا نظراتهم مثل الخناجر فى الصدور
وهناك يقتطفونكم من أرضكم قطف الزهور
الحقد والكذب الصرا ح وكل مكر أو دهاء
واليأس والجبن المذ لّ وكل غش والتواء
تلك الرذائل فى شعو ب الأرض أبواب الفناء
لولا المخاوف ما سمع نا باسمها تحت السماء
الشرك يصنع من خيوط الخوف أشراك البلاء
لولاه لم نسمع بكف ر أو نفاق أو رياء
المؤمنون لهم من المولى أمان الأولياء
بلغوا الكمال فهم عن الـ ـدنيا العريضة أغنياء

ثقة الكريم بنفسه تعلو به فوق الزمن
والحزن سم قاتل لا تشربوا سم الحزَن
الموت والحرية الشما ء والشرف المكين
هى خير ما نحيا به وهى الغنى للمؤمنين
أما المفضّض والمذهّ ب والمفوّف والنضيد
فلقد تركناها لِعُ بّاد الحطام وللعبيد

القلب المحيط بأسرار الطبيعة لا يأخذه هلع ولا يشك فى أن وراء سكون الجسم محشراً جديداً للخلود وفى صمت الليل تكمن أحلام لثورة الغد :

فى سكون الماء يختبئ الفجر وصمت الظلام حُلم النهار
وسكون القبور يرقب للبع ث قدوما فى موكب الأقدار

وعلامة المؤمن الحق أن يرضى بحكم الأجل بل يتسامى إلى أكثر من ذلك فيرى فى لقاء الله سعادة يبتسم لها كما ابتسم اقبال قبل موته بهذه الكلمات:

آية المؤمن أن يلقى الرّدى باسم الثغر سرورا ورضا
لا أرى مؤمنا يخالجه الخو ف إذا أقبل القضاء عليه
يتلقّى الردى بصبر جميل وابتسامُ الرضى على شفتيه

كان خالد بن الوليد يعرض عند موته أكثر من مئة وعشرين إصابة وهو فخور بتلك الجروح إلا أن فخره هذا كان ينقصه الاستشهاد . فإن عظيم النفس لا يموت موت الحشرات فى مساربها بل موت الأسود مناضلة عن عرينها. وقد كان إقبال يرثى أحد الذين ماتوا بعد أن خلّدوا لأنفسهم ذكراً عاطرا تحت السماء وكأنه يصف نفسه حينما قال : ـ

مات ولـكن لم يمت فهو مخـلد الثنـاء
له من الذكرى حيـاة لايشوبها الفناء
إن شئت فاحى مثـله قبل نهاية الأجل
إن الحياة فى الجها د والخلودُ للعمل

توجهت قافلة من قوافل الحجيج من مكة إلى المدينة ففاجأها قطاع الطريق. فاستولى على رجال القافلة الرعب وسقطوا فريسة النهب والسلب إلا فتى بخاريا صمد للموت ولـكنه نجا وسار وحيدا يناجى أشواقه إلى المدينة فـكأن صداها هذه الأبيات : ـ

هل أتاكم حديث قافلة الحجاج إذ غالهـا عـدوٌّ مَريد
فى طريق المدينة انتُهب الركبان والمنزل المراد بعيـد
يسأل العابرون عن ساحل الصـ ـحراء والجو موحش عربيد
فتلقّـتْهم المخاوف بالموت و ضلت بهـم فياف وبيـد
غـير ذاك الفتى البخارى لم يبرحه إيمان قلبـه الوثاب
يتمنى فى الشـوق سم المنا يا كتمنى الظمآن برد الشراب
ملء جنبيه للمدينة شـوق يتغنى بنشوة التوحـيد
ويرى الخنجر المصوّ ب بالموت إلى صدره هلال العيد
كان خوف الردى يقول له ارج ع ويقول الإيمان سر فى أمان
ومضى آمنا وحل كريما وتلقته روضة الرضوان
قد يسير الحجيج فى المحمل الشامى فى مأمن من الأخطار

ونعيم الأشواق يعرفه من ذا ق مرّ الأخطار بين القفار

* * *

يخسر العقل نوره حين يأوى قانعا بالهوان خوف الخسارة

إن فى لذة المتاعب ربحا معنويا يفوق ربح التجارة

كل أمة عظيمة لم تكتب عظمتها إلا بالتضحيات والدماء الغالية . فاسمع إقبالا يبيّن لنا أن ديباجة الكعبة مخضبة باللون الأحمر . فهى قصة تبدأ بالدم وتنتهى به . بدأت أولا بإسماعيل الذى أراد أن يضحى نفسه فى مقام التسليم لله والطاعة لأبيه، فهى قصة دامية وإن لم تُرَق فيها الدماء . وكذلك انتهت بذكرى الحسين الذى جاءت إلى الحرم تقطر دما من كربلاء :

فى الكعبة العليا وقصتها نبأ يفيض دماً على الحجر

بدأت بإسماعيل عبرتها ودم الحسين نهاية العبر

إن إرواء الشجرة القومية لا يكون من ماء البحر بل من دماء صدور الشهداء الأبطال . وشرف الملة يتلألأ فى ذلك الجام الذى امتلأ بدم الشهداء :

ارفعوا الورد والشقائق اكليل ثناء على ضريح الشهيد

ذاك لون الدم الذى أنبت المجد وروّى به حياة الخلود

كانت إحدى بنات العرب واسمها فاطمة تسقى الغزاة ماء فى حرب طرابلس ثم استشهدت. فهو يلقب هذه المجاهدة بلا سيف ولا ترس شرفَ أمة الإسلام. كانت عينه تسكب دموع الشعر فى هذه الحادثة ولكن مأتمها الحزين كان يبعث

أيضا سحر النشيد فى البستان الذى أذبلت عواصف الخريف بأغصانه عادت إحدى البراعم الساقطة فنمت وتفتح زهرها الجميل بعد أن ظن أنها جفت وماتت:

فى ثنايا الوديان تختبئ الغز لان خلف الشعاب مختفيات
والبروق اللوامع استترت خلف ضباب السحائب المطرات

وبعد أن كشف فى جملة أشعاره تلك الحقائق الجليلة بيّن أيضا أسرار الموت والحياة فى كتابه « جاويدنامه » على لسان الملك الشهيد « تيبو » الذى يُسمع قصّة بحرويرى[1] حيث يوضّح أن الحياة أصل الحقيقة وأن الموت خدعة عارضة. وأن الحياة محرمة على الأذلاء الذين استعبدهم خوف الموت :

إن الجبان يموت فى أوهامه حذر الممات وخوفه يفنيه
والحر تسعده المواطن كلُّها بالعيش حتى موته يحيه
وأرى المنايا كالحياة تفاوتت فى سُوقها الأقدار والأرواح
لا يستوى قتل الحسين وغيره هل يستوى المصباح والإصباح

ليس الموت إلا اسما لحياة الذلة. وفقد الرؤوس فى النضال مع الشرف لا يقلّ قيمة عن البقاء الدائم . فلحظة من عمر الأسد خير من حياة الشاة مائة عام :

العمر لا يقاس بالأعوام والعقل لا يقاس بالأجسام
واليوم من عمر أسود الأجم بألف عام من حياة الغنم

الخضر قد قال له الإسكندر مقالة على الزمان تؤثر :

عش ساعة فى لجج البحار ومت شهيد الموج والتيار

(١) نهر فى الهند .

ولاتعش دهرك عيش الخامل مقيّدا بين صخور الساحل
الموت فى الوغى وفى الميدان ولا حياة الأسْرِ والهوان

ليست قيمة الحياة بقصرها أو بطولها ولكن قيمتها فى أعمالها ولذتها فى جهادها . فالفراش يبذل الحياة رخيصة فى لذة لمحة يطوف بها حول السراج حتى يفنى فى ناره المتوجهة :

رأيت الفراشة حول السراج تحوم على ناره بالجناحْ
فحاولت انقاذها فانثنت تعاتبنى فى مقال صُراح
هبونِىَ من دهركم لحظةً أموج بها فى اللهيب اضطرابا
أنال بها شرفا فى الجهاد واصبح من بعد هذا ترابا

* * *

أحبّ احتراق بنارا شتياق ولا أرتضى عيشة الخاملين
فناء الفراشة فى النار يعلو حياة الجبان طوال السنين

الأعمال كثيرة والأوقات قصيرة لا يهمنا أن نعيش طويلا ولكن يهمنا أن نعمل عملا جليلا . إن الأحياء الحقيقيين هم الذين جاهدوا وهم الذين صوّر لنا جهادهم إقبال وضرب لنا منهم الأمثال .

ووقف إقبال على قبر نابليون وقفة المستعبر مفكراً يقول : إن هذا وإن نام فى راحة الأبد ولكن لا يزال أمام أعيننا ذلك الوقت الذى زلزل فيه العالم ، ثم يكشف أسرار الموت والحياة وهو قائم على ذلك القبر. ويترك لنا رسالة الحياة والعمل، ويقول لنا إن الدنيا لحظة أو لحظتان وبعدها نوم القبر الطويل فى منازل

الصامتين فارم سهمك إلى قبة الفلك :

إذا كانت الأقدار سرا محجّبا ... فإن جهاد الحر يجلو لنا القدر
جهاد الفتى يعلو به فوق قدره ... وفوق الأمانى والمواهب والفكر
لقد بلغ الإسكندر القمة التى ... يقصّر عن أدنى مواقعها الصّقر
رأى جبلُ الألوند أسياف جيشه ... فأذعن حتى ذاب من رعبه الصخر

* * *

وتيمور بين الفاتحين مضت له ... وقائع لم يسمع بهن زمان
يمزّق شمل السهل والوعر جيشه ... كما انساب فى شلاله فيضان

* * *

بنور الجهاد الحىّ سار محمد ... بجيش على راياته الفوز إكليل
يكبّر جند الله حول ركابه ... فيهتف بالبشرى وبالنصر جبريل

* * *

أرى فرصة الأعمال ومضة بارق ... يضىء ثناها لمحة ويزول
إلى الفوز جاهد ما استطعت ولا تنم ... ففى القبر نوم بعد ذاك طويل
منازل وادي الصامتين على البِلى ... ستبقى بها حتى النشور مقيما
إذا العزم نادى فارم سهمك صاعدا ... على قبة الأفلاك وامض عظيما

شكوى وجواب شكوى

قصيدتان تعدان فى طليعة ما نظم إقبال فى اللغة الأردية حاول بهما أن يستحث همم المسلمين إلى طلب الرفعة والطموح إلى المجد واستخلاص تراث الماضى من بين براثن الدهر والعودة بالركب الإسلامى إلى قافلة الحياة الدائبة فى سيرها صوب الكمال . أما أولاهما فقد اتجه بها إلى الله تعالى شاكيا ما أصاب المسلمين من الأحداث والغير التى تخلفت بهم عن ركب الحضارة وهم الذين حملوا شعلتها ورفعوا مصباحها لعصور الدهر وأجياله .

تراه فى مطلع شكوى يصور أشجانه وآلامه ثم يوجه العتب المرير إلى نفسه واستسلامها للمحن ويقول لماذا أبقى بقاء الزهرة الخرساء ولا أحلق كالطير المغرد .. ثم يستأذن على عتبات المقام الإلهى وفى فمه التراب ليعلن صرخة المسلمين ويجأر بدعواتهم ولم لا وقيثارته مملوءة بالأنين والأشجان تريد أن تنطق على شفتيه بأنفاسه المتصاعدة .

رباه إليك شكوى عبيدك الأوفياء الذين لم يتعودوا إلا إزجاء الحمد وترتيل الثناء .

لقد كانت الدنيا قبل هذا الدين الإسلامى عالما من الظلام تسوده الوثنية وتحكمه الأصنام وفى بقاع هذا المعمور كانت سجدات الإنسان لا تعرف غير الأوثان ولم يكن الإنسان يعبد غير التماثيل المنحوتة من الأحجار والصور المصنوعة من الأشجار وحارت فلسفة اليونان وتشريع الرومان وضلت حكمة

الصين فى الفلوات . ولـكن ساعد المسلم القوى اقتلع من الأرض شجرة الإلحاد وأطلع على الإنسانية نوراً من التوحيد وظلا من الاتحاد .

رباه ! لقد كانت بساتين هذا الـكون بغير أنغام وأزهارها خالية من العطر وكان هواؤها دوى العاصفة ونسيمها دمدمة الرعود حتى إذا جاء رسول مكة الأمى علّم أهـل الأرض حياة أهل السماء ودلّ سكان عالم الفناء على طريق عالم البقاء .

نحن الذين نشرنا فى الروض العبير ومحونا آية الليـل بآية الصبح المنير ؛ أصبح إيماننا جنون عشق فوجهنا الإنسانية بنورك فى مثل كرة الطرف إلى معرفة الحق والنور والجمال .

لقد كانت الدنيا عامرة بشعوب وممالك وكان بها السلجوقى والتورانى والصينى وكان بها ملك ساسان وبقايا الرومان واليونان فرفعنا علم التوحيد وجمعنا أبناء البشر وأجياله أسرة مؤمنة بك موحدة لك . أصلحنا الفاسد وقومنا المعوج وناضلنا فى البر والبحر وارتفع صوتنا بالأذان فوق معابد أوربا وارتسمت سجداتنا على رمال الصحراء فى أفريقيا لم نخش عسف الأكاسرة ولا طغيـان الجبابرة ولا سلطان الأباطرة وأسمعنا العالم كله كلمة التوحيد . وصليل السـيوف المشرعات كان يدوى مع الهاتفين لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك القدوس العزيز الحـكيم لم نـكن نحرص على الحياة ولـكن كنا نجاهد من أجل دينك ليحيا إلى الأبد فى تفانينا وما بعنا الأرواح لدنيا نشتريها بل كنا نطوف حول الـكرة ورؤوسنا على أكفنا لنجعل اسمك الأعلى مناراً ونحن نحطم فى تطوافنا

الهياكل والأصنام جاعلين فضتها ونضارها ترابا تحت الأقدام . ولو أن أقدام الأسود تزلزلت من هول الميادين فلقد كانت أقدامنا على الشوك والنار لا تأذن لشمس النهار أن تغرب حتى يضئ لنا هلال الانتصار. لقد نقشنا توحيدك على كل قلب والإيمان بك فى كل ضمير . نرحب بالحتوف ونرى الجنة تحت ظلال السيوف؛ من الذى جعل درعه يوم الجهاد باب خيبر؟ ومن الذى حمل مصباح الحق إلى مدينة قيصر ؟ من قبلنا هدم التماثيل وقوض صرح الأباطيل .. من الذى رد جيوش الكفار وأبطل فى الفرس عبادة النار ؟ .

أما أيقظنا الكون الهاجع بصوت الأذان . . ألم نقم الصلاة تحت الأسنة فى الميدان ؟ حتى سجدت لك على الأرض الأوثان وسمع تكبيرنا فى الجنة رضوان .

لقد كانت وجوهنا إلى الكعبة وعزائمنا إلى الميدان وقلوبنا إليك وصلى بين يديك السوقة والأمير والغنى والفقير ووقف محمود الغزنوى الملك وعبده إياز وجسماهما فى الهند وقلباهما إلى الحجاز، كنا ندور بكأس الإيمان فى محفل الكون والمكان لم نقف عند الصحارى والقفار بل امتطينا النجائب من أمواج البحار حتى استضاءت النيرات بوجوه مجاهدينا فى بحر الظلمات ومحونا الباطل من كتاب الدهر وحررنا المستعبدين وملأنا بجباهنا بيتك المعمور وجعلنا لآياتك مصحفا فى الصدور .

إنى لأرى فى شعوب المدنية الزائفة من يجترئون على الخطايا ويقتحمون حرم الفضائل والآداب وفيهم سكارى الخمر وسكارى الإلحاد ، ولكن الدنيا ترسل عليهم السحب أمطارا وتمطر أرضنا صواعق ونارا .

نظرت إلى الأوثان والطواغيت فإذا هى راقصة فى ملاعب الأهواء ، إنها ساخرة منا ومأمر سخرية الأعداء ، أقول إن المؤمنين قد انتثروا وكاد المخلصون أن يندثروا ولم تعد الصحراء ترى حداة القوافل ولا المتعبدين فى المنازل .

ونحن لا نشكو أن فاضت خزائن الكفار بالنضار ولكن الشكوى أن يصيبنا الفقر والقصور حتى لا نجد للجنة صداق الحور ولا ثمن القصور .

يارب رحماك هب لنا ما عودنا فضلك من نصر وتأييد فقد دارت بنا الكواكب فى أفلاكها دورة العكس .. إن قدرتك هى قدرتك وما لفضلك حد ولا لنعمائك عد .. لو شئت أجريت النهر فى الصحراء أو رفعت الجبال من الماء .

لم يبق لنا يارب من ثروة سوى الفقر ولا من قوة سوى العجز إن ذهاب المسلمين من الدنيا هو ذهاب الدنيا بأسرها وما نطلب البقاء فيها لحظة إلا للفناء فى حبك يا أرحم الراحمين .

لقد ذهب الأغيار بما كان فى أيدينا وبقيت قلوبنا عامرة بك وما بقاء الدين إلا ببقاء أهله والجام بما فيه لا يبقى بغير ساقيه رباه أين محافل العشاق ! أين الذين توضؤوا للصباح بمدامع الأشواق؟ أين الذين اقتبست الشمس من وجوههم الإشراق ؟ .

لقد مضى زجل المسبحين وخفت أنين المستغفرين وخلا ضمير الليل من دعوات المتبتلين وبكاء المصلّين وهبـوك قلوبهم يارب وفازوا بأجر العاملين وأصبحت الأرض بعدهم خالية والديار خاوية فـكأنهم ما سلموا حين قدموا أو كأنهم ما أقاموا بعد أن سلموا .

من لى بنور محمد ليـكون مصباحى حين أنقّب عن حفلهم الذاهب ونورهم الغارب... لالا .. إنى لن أصغى إلى أنات قلبى المحزون فما زال من الدنيا سحر ليلى ولا غرام قيس وما برحت صحراء نجد مرتعا للمها والغزال ومبعثا للهوى والدلال ولن يزول جمالها حتى تزول الجبال .

إن جمال أمة محمد لايزال يجتذب قلوب الـكون بإشراقه الساطع فأنقذنا من ظلمة هذا اليأس المميت .

مازال فى قلوبنا وفاء الصديق وعدل الفاروق وفى كل قلب للقرآن مصحف عثمان ولا زالت قلوبنا عامرة بتقوى على وسلمان وصوت بلال فى الأذان لم نفقد الإيمان القويم ولا قياس طرق التسليم . أيقظنا يا رب بصلصلة الجرس الأول وأحينا بقانون الوفاء . لقد أكملت الدين على قمة فاران وأنرت قلوب العاشقين بجذوة الإيمان فأحرق متاع حب دنيانا بذلك الشرر من وميض محبتك .

لقد طرب أعداؤنا بين الجداول وسكروا بالأنغام فى ظل الخمائل وهم فى الأوطان ونحن خارج البستان فأرسل فراشك مرة أخرى يطف حول نار حبك ومر البرق القديم بإحراق القلوب الجامدة .

رب اهد القلوب إلى قبلة الحجاز وأعطها جناحا من الإيمان لتعرف قوة الطيران. ان العبير حائر بين البراعم والأزهار والأنغام محتبسة فى الأوتار والطور فى شوق إلى تجلى أنوارك وإقبال أسرارك .

ربنا وأنت الحكيم القادر احلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ألهم النملة الضعيفة حكمة الإيمان حتى تضع يدها على ملك سليمان وافتح العيون على ضياء الحق للعالمين حتى نرى براهمة الهند مسلمين إن عطر الأزهار قد باح بسر البستان ونمت الصرخات عما فى الوجدان .

أعد الطيور المغردة إلى أغصان الصنوبر فقد فرت من روضها إلا بلبلا يحمل فى قلبه ضجة القيامة وهول المحشر .

أعد الأوراق الذابلة إلى روضها الأخضر وجدد فى المسلمين ظمأهم إلى حياض الكوثر.

يارب إنى بلبل تحررت من موسم نيسان لأرسل أنغامى طليقة بالشكوى فى مسمع الزمان فاجعل ندائى قبسا من وحى الإيمان ان خمرى حجازية وإن كنت أعجمى الدنان ونغمى من الهند ولكن صوتى من عدنان .

شكوى

شكواى أم نجواى فى هذا الدجى ... ونجوم ليلى حُسَّدى أم عوّدى
أمسيت فى الماضى أعيش كأنما ... قطع الزمان طريق أمسى عن غدى
والطير صادحة على أفنانها ... تُبكى الربى بأنينها المتجدد
قد طال تسهيدى وطال نشيدها ... ومدامعى كالطل فى الغصن الندى
فالى متى صمتى كأنى زهرة ... خرساء لم ترزق براعة منشد

* * *

قيثارتى ملئت بأنات الجوى ... لابد للمكبوت من فيضان
صعدت إلى شفتى بلابل مهجتى ... ليبين عنها منطقى ولسانى
أنا ما تعديت القناعة والرضا ... لكنما هى قصة الأشجان
أشكو وفى فمىَ التراب وإنما ... أشكو مصاب الدين للديان
يشكو لك اللهم قلب لم يعش ... إلا لمجد علاك فى الأكوان

* * *

قد كان هذا الكون قبل وجودنا ... روضاً وأزهاراً بغير شميم
والورد فى الأكمام مجهول الشذى ... لا يرتجَى ورد بغير نسيم
بل كانت الأيام قبل وجودنا ... ليلا لظالمها وللمظلوم
لما أطل محمد زكت الربى ... واخضر فى البستان كل هشيم
وأذاعت الفردوس مكنون الشذى ... فإذا الورى فى نضرة ونعيم

من قام يهتف باسم ذاتك قبلنا ... من كان يدعو الواحد القهارا
عبدوا تماثيل الصخور وقدسوا ... من دونك الأحجار والأشجارا
عبدوا الكواكب والنجوم جهالة ... لم يبلغوا من هديها أنوارا
هل أعلن التوحيد داع قبلنا ... وهدى الشعوب إليك والأنظارا
كنا نقدّم للسيوف صدورنا ... لم نخش يوماً غاشماً جبارا

* * *

قد كان في اليونان فلسفة وفي ... رومان مدرسة وكان الملك في ساسان
لم تغن عنهم قوة أو ثروة ... في المال أو في العلم والعرفان
وبكل أرض سامري ماكر ... يكفي اليهود مؤونة الشيطان
والحكمة الأولى جرت وثنية ... في الصين أو في الهند أو توران
نحن الذين بنور وحيك أوضحوا ... نهج الهدى ومعالم الايمان

* * *

من ذا الذي رفع السيوف ليرفع اسـ ... ـمك فوق هامات النجوم منارا
كنا جبالا في الجبال وربما ... سرنا على موج البحار بحارا
بمعابد الأفرنج كان أذاننا ... قبل الكتائب يفتح الأمصارا
لم تنس افريقيا ولا صحراؤها ... سجداتنا والأرض تقذف نارا
وكأن ظل السيف ظل حديقة ... خضراء تنبت حولنا الأزهارا

* * *

لم نخش طاغوتا يحاربنا ولو ... نصب المنايا حولنا أسوارا
ندعو جهارا لا إله سوى الذي ... صنع الوجود وقدر الأقدارا

ورؤوسنا يارب فوق أكفنا ... نرجو ثوابك مغنما وجوارا
كنا نرى الأصنام من ذهب ... فنهدمها ونهدم فوقها الكفارا
لو كان غير المسلمين لحازها ... كنزا وصاغ الحلى والدينارا

* * *

كم زلزل الصخر الأشم فما وهى ... من بأسنا عزم ولا إيمان
لو أن آساد العرين تفزعت ... لم يلق غير ثباتنا الميدان
وكأن نيران المدافع فى صدو ... ر المؤمنين الروح والريحان
توحيدك الأعلى جعلنا نقشه ... نورا تضىء بصبحه الأزمان
فغدت صدور المؤمنين مصاحفا ... فى الكون مسطورا بها القرآن

* * *

من غيرنا هدم التماثيل التى ... كانت تقدسها جهالات الورى؟
حتى هوت صور المعابد سجدا ... لجلال من خلق الوجود وصوّرا
ومن الألى حملوا بعزم أكفهم ... باب المدينة يوم غزوة خيبرا؟
أمن رمى نار المجوس فأطفئت ... وأبان وجه الحق أبلج نيرا؟
ومن الذى بذل الحياة رخيصة ... ورأى رضاك أعز شىء فاشترى؟

* * *

نحن الذين استيقظت بأذانهم ... دنيا الخليقة من تهاويل الكرى
نحن الذين إذا دعوا لصلاتهم ... والحرب تسقى الأرض جاما أحمرا
جعلوا الوجوه إلى الحجاز وكبروا ... فى مسمع الروح الأمين فكبرا

محمودُ مثـل ايازَ[1] قام كلاهما ... لك بالخشوع مصلياً مستغفرا
العبـد والمولى على قدم التقى ... سجدا لوجهك خاشعين على الثرى

***

بلغت نهاية كل أرض خيلنا ... وكأن أبحرها رمال البيد
فى محفل الأكوان كان هلالنا ... بالنصر أوضح من هلال العيد
فى كل موقعة رفعنا رايـــة ... للمجد تعلن آية التوحيد
أمم البرايا لم تكن من قبلنا ... إلا عبيدا فى إسار عبيد
بلغت بنا الأجيـال حرياتهـا ... من بعد أصفاد وذل قيود

***

رحماك رب هل بغير جباهنا ... عرف السجود ببيتك المعمور ؟
كانت شغاف قلوبنا لك مصحفا ... يحوى جلال كتابك المسطور
إن لم يكن هذا وفاء صادقا ... فالخلق فى الدنيا بغير شعور
ملأ الشعوب جُناتها وعُصاتها ... من ملحد عات ومن مغرور
فإذا السحاب جرى سقاهم غيثه ... واختصنا بصواعق التدمير

***

قد هبت الأصنام من بعد البلى ... واستيقظت من قبل نفخ الصور
والـكعبة العليا توارى أهلها ... فـكأنهم موتى لغير نشور
وقوافل الصحراء ضل حُداتها ... وغدت منازلها ظلال قبور

---

(١) السلطان محمود الغزنوى وايازخادمه .

أنا ما حسدت الكافرين وقد غدوا ... فى أنعم وموا كب وقصور
بل محنتى ألا أرى فى أمتى ... عملا تقدمه صداق الحور

***

لك فى البرية حكمة ومشيئة ... أعيت مذاهبها أولى الألباب
إن شئت أجريت الصحارى أنهرا ... أو شئت فالأنهار موج سراب
ماذا دهى الإسلام فى أبنائه ... حتى انطووا فى محنة وعذاب
فتراؤهم قفر ودولة مجدهم ... فى الأرض نهب ثعالب وذئاب
عاقبتنا عدلا فهب لعدونا ... عن ذنبه فى الدهر يوم عقاب

***

عاشوا بثروتنا وعشنا دونهم ... للموت بين الذل والإملاق
الدين يحيا فى سعادة أهله ... والكأس لا تبقى بغير الساق
أين الذين بنار حبك أرسلوا ... أنوار بين محافل العشاق
سكبوا الليالى فى أنين دموعهم ... وتوضأوا بمدامع الأشواق
والشمس كانت من ضياء وجوههم ... تُهدى الصباح طلائع الإشراق

***

كيف انطوت أيامهم وهم الألى ... نشروا الهدى وعلَوا مكان الفرقد
هجروا الديار فأين أزمع ركبهم ... من يهتدى للقوم أو من يقتدى
ياقلب حسبك لن تُلِمّ بطيفهم ... إلا على مصباح وجه محمد
فازوا من الدنيا بمجد خالد ... ولهم خلود الفوز يوم الموعد

يارب ألهمنا الرشاد فمالنا · فى الكون غيرك من ولى مرشد

***

ما زال قيس والغرام كمهده وربوع ليلى فى ربيع جمالها
وهضاب نجد فى مراعيها المها وظباؤها الخفِراتُ ملء جبالها
والعشق فياض وأمة أحمد يتحفز التاريخ لاستقبالها
لو حاولت فوق السماء مكانة رفّت على شمس الضحى بهلالها
ما بالها تلقى الجدود عواثرا وتصدها الأيام عن آمالها

***

هجر الحبيب رمى الأحبة بالنوى وأصابهم بتصرم الآمال
لم يبق فى الأرواح غير بقية رحماك يامرآة كل جمال
لو قد مللنا العشق كان سبيلنا أن نستكين إلى هوى وضلال
أو نصنع الأصنام ثم نبيعها حاشا الموحد أن يذل لمال
أيام سلمان بنا موصولة وتقى أويس فى أذان بلال

***

ياطيب عهد كنت فيه منارنا فبعثتَ نور الحق من فاران
وأسرت فيه العاشقين بلمحة وسقيتهم راحا بغير دنان
أحرقت فيه قلوبهم بتوقد الـ بإيمان لا بتلهب النيران
لم تبق نحن ولا القلوب . كأنها لم تحظ من نار الهوى بدخان

إن لم يبر وجه الحبيب بوصله فمكان حزن القلب كل مكان

* * *

يا فرحة الأيام حين نرى بها روض التجلي وارف الأغصان
ويعود محفلنا بحسنك مسفرا كالصبح فى إشراقه الفينان
قد هاج حزنى أن أرى أعداءنا بين الطلا والظل والأحضان
ونعالج الأنفاس نحن ونصطلى فى الفقر حين القوم فى بستان
أشرق بنورك وابعث البرق القديـ ـم بومضة لفراشك الظمآن

* * *

أشواقنا نحو الحجاز تطلعت كحنين مغترب إلى الأوطان
إن الطيور وإن قصصت جناحها تسمو بفطرتها إلى الطيران
قيثارتى مكبوتة ونشيدها قد مل من صمت ومن كتمان
واللحن فى الأوتار يرجو عازفا ليبوح من أسراره بمعان
والطور يرتقب التجلي صارخا بهوى المشوق ولهفة الحيران

* * *

أكبادنا احترقت بأنات الجوى ودماؤنا نهر الدموع القانى
والعطر فاض من الخمائل والربى وكأنه شكوى بغير لسان
أو ليس من هول القيامة أن يكو ن الزهر نماما على البستان
النمل لا يخشى سليمانا إذا حرست قراه عناية الرحمن
أرشد براهمة الهنود ليرفعوا الـ ـإسلام فوق هياكل الأوثان

* * *

ما بال أغصان الصنوبر قد نأت عنها قماريها بكل مكان
وتعرت الأشجار من حلل الربى وطيورها فرّت إلى الوديان
يا رب إلا بلبلا لم ينتظر وحى الربيع ولا صَبَا نيسان
ألحانه بحر جرى متلاطما فكأنه الحاكى عن الطوفان
يا ليت قومى يسمعون شكاية هى فى ضميرى صرخة الوجدان

* * *

إن الجواهر حيرت مرآة هـ ذا القلب فهو على شفا البركان
أسمعهمو يا رب ما ألهمتنى وأعد إليهم يقظة الإيمان
وأذقهم الخمر القديمة إنها عين اليقين وكوثر الرضوان
أنا أعجمى الدنّ لكن خمرتى صنع الحجاز وكرمها الفينان
إن كان لى نغم الهنود ولحنهم لكن هذا الصوت من عدنان

جواب شكوى

أما القصيدة الثانية فهى جواب الشكوى تخيلها إقبال صوتاً سماويا يدوى بصيحة الحق جواباً لهذه الشكوى التى تبدو فى صرخاتها المتململة المضطربة كأنها خيال جائر لا يقوم على الحجة والبرهان ولا يستقر على دليل من الواقع.

قال إقبال : كل كلام يصدر عن القلب يترك أثره فى القلوب ، والأفكار الصادقة لا أجنحة لها ولكنها تسبق الطيور . وكل كلام قدسى المنبع فهو أبداً يتجه إلى العلا ومن عجب أنه نجم من التراب ومتى صعد كان أول منازله السحاب .

كان عشق فاتناً ساحراً جموحاً فشق ستار السماء بأنين لا يتهيب ولا يرتعد، ولما سمع شيخ السماء زفرات الشكوى والبكاء قال إنه « فى مكان ما كائن يتكلم » فتساءلت النجوم والسيارات فى عجب وإنكار « وكيف اقترب هذا الكائن من بساط العرش الرفيع » فقال القمر « إنه إنس من أهل الأرض » وقالت المجرة « عجبت لهذا الإنسان كيف يستتر عن العيون ويختفى عن المادة خلف الظنون » .

هكذا كان الجميع يشتجرون فى أمرى فلا يهتدون ولئن كان من بينهم من فهم الشكوى وعرف النجوى فهو رضوان إذ قال « إنه ذلك الذى أخرج

أبواه من الجنة .. وهو قوي العنصر رفع الله مكانته ، وأسجد له ملائكته ».

وسأل سائل : كيف تعلمت هذه القبضة من التراب أن تخترق من العناصر كل حجاب .. حقا إن سكان الأرض المستخلفين فيها لمخلوقات جامحة ..

هذا هو نفس آدم ما أقدره فى علم الكيف والكم ولكن ما أجهله بأسرار العجز والفناء .

وأخيراً دوى صوت تفزعت له الجنبات واخترق بجلجلته ذرات النيرات : « يا هذا ! إن قصتك محزنة شائكة وقدحك ملىء بدموع مضطربة حيرى ولقد أطافت صيحتك بالسموات ، فما أبعد قلبك المجنون عن قرار السكون ، ولكنك على كل حال أعلنت شكواك فأثبت قدرة الخالق فيك ».

لقد مددنا بساط الكرم فأين السائلون ومهدنا الطريق إلى المجد فأين السالكون .

لقد أنزلنا الأنوار على الفطر ولكن الجواهر ظلت غير قابلة ، وكأن هذا التراب ليس الذى جبلت منه البداية الأولى للإنسانية العالية .

إن الإنس كما ترى قد نسوا ناموس فطرتهم وتغير ترابهم ولو أنهم أدركوا سر خلقهم وحكمة وجودهم لأعطوا فوق ما يطلبون ونالوا من العظمة فوق ماينشدون . ولكن الأداة أدركها الفساد ومالت القلوب إلى الإلحاد .. وهؤلاء المتأخرون فى هذه الأمة قد أصبحوا خجلا لماضيها وتوهينا لعظمتها . لقد انقرض الذين هدموا الأصنام وجعلوها جذاذا تحت الرغام . أما هؤلاء فقد جددوا لها

البنيان وأصبحوا صناعها فى هذا الزمان . كانوا هم أبناء إبراهيم غير أنهم أقرب إلى آزر القديم .

الشارب والخمر جديدان والدنّ أيضاً جديد وها هى أصنام جديدة تطبع الأجيال الحديثة على غرارها .

لقد انطوى عهد أولئك الذى لهم من سمات الجلال ما هو خليق بالدلال . انهم كانوا مرآة متاع العظمة وصفاء موسم الورود وشقائق نعمان الصحراء وأغنية أحلام البيداء .

ويومئذ تفانى كل مسلم فى الله وكان يوم محمد المحبوب مهرجانا للشعوب .

هل لكم فى عهد جديد تكونون فيه عبيداً لله وجنوداً لمحمد وجواهر فى عقد الملة ...

أنّى وقد أصبح عسيراً عليكم وثقيلا على أجفانكم أن تستقبلوا نور الصباح بتكبيرة صلاتكم وصحو حياتكم لكأن الطبائع فقد نامت مع الأجفان وما أشبه نهار المنام بليل الظلام .

أليس رمضان يقيد حريتكم ويخالف مدنيتكم ... فاشهدوا على أنفسكم أهذا هو الوفاء لماضيكم وملتكم .

إن وجود الشعب من وجود الملة ، والدين فى الأمة هو قوام الدولة فإذا ذهب الدين فما أنتم ببباقين .

الدين هو الذى يجمعكم صفا واحداً ولولا التساند بين الكواكب لم ينعقد حفل النجوم ولم يسطع جمال القمر الساحر .

من هؤلاء الذين ضاعت علومهم وفنونهم من الدنيا ومن أولئك الذين أصبحوا لايبالون أن يعيشوا بلا مأوى. بل ماهذا البيدر الذى لم تجد الصواعق مكانا تستقر فيه نيرانها سواه... ثم من هؤلاء الذين يبيعون تركة الآباء ويحاولون الشهرة بتجارة القبور، لعلكم تستطيعون بأنفسكم أن تدركوا الجواب عما تسألون فأى هذه الحقائق تنكرون ومن أولئكم الأبرار الأخيار الذين محوا الأباطيل من صحائف الأجيال والأمصار .

من الذين حرروا شعوب الإنسانية من الذل ومن الذين عمروا الكعبة بجباههم ومن الذين ضموا القرآن إلى صدورهم ...

أليسوا آباءكم وأجدادكم وقد بقيتم بعدهم تضعون يدا على يد ، وترتقبون ما يأتيكم به الغد .

لقد وعد المسلمون جمال الحور ونعيم القصور ووعدوا خلافة الأرض وأن تدين لهم الدنيا بكنوزها والأرض بخيراتها والسماء بنجومها وملائكتها والآخرة بجناتها ونعيمها هاهى الدنيا، قد أفلتت من أيديكم لأن أيديكم قد أصبحت طليقة من سنن الفطرة ومن عروة الدين أليس ربكم هو الذى يقيم العدل والحق وهو أحكم الحاكمين .

أكنتم تنتظرون أن يعمل أعداؤكم فى الأرض وأن يتخلقوا بأخلاق أسلافكم فى الجهاد وينفقون أوقاتهم فى الزراعة ثم يحرمون الحصاد .

لقد سار الكافر فى طريق المسلم الأول فأعطى حظاً من الدنيا ولكنكم لاتنشدون اليوم محاسن الحور ولا كنوز القصور ... ألا لقد يفنى تجلى النور ولكن ذهب

الكليم من الطور أن أمر المسلمين فى الخسارة والربح واحد والذى يقع لأقصاهم ينال أدناهم ... أليس نبى الجميع واحـــداً وكذا الدين والإيمان والحرم والقرآن .؟

وإلهكم إله واحد فهل كان من الصعب أن تحيوا متحدين .

نار العصبية هنا وجذوة الجنسية هنالك فحدثونى عن قوم أدركوا نجاحهم بالفراق ونالوا سعادتهم بالشقاق .

لقد تركتم القرآن وجعلتم مقياس رقيكم صلاحية الزمان واتخذتم من المدنية كل شعار واتبعتم سبيل الأغيار فلم يبق فى القلوب مذاق ولا للوعة احتراق .

ها هى مساجد الله لا يعمرها غير فقرائكم فهم الصائمون والمصلون وهم العابدون والذاكرون وهم الساترون لعيوبكم وأنتم بهم ترحمون .

أما الأغنياء فهم فى سكر غفلتهم معرضون .

ومن عجب أن الملة البيضاء ما تزال قويمة البناء ممتدة النماء بحرارة أنفاس الفقراء .. ولقد فقدتم القوة فى سحر الكلام ومررتم بالمواعظ مر الكرام ولولا روح من بلال مابقى للأذان جمال .

مساجدكم تبكى قلة صفوفها والمحراب موحش من المصلين والمنابر ساخرة من سيوف تحول حديدها إلى خشب لا يقاوم الفار .

أما دياركم فقد امتلأت بالمفاخر والرتب والألقاب فاليرزا فى إيران وفى

غيرها الصاحب والخان ولـكننا ننشد رتبة المسلم فى هذه الأوطان .

عندما كان المسلم ينهض إلى طلب المجد فـكم اقتحم الصعاب وعزمه غير هياب وكم كان عدله ميزانا للصواب لم يلوثه رياء ولم يفسده دهاء تخطى بشجاعته الأوهام وفاق الأحلام ... كان خاليا من المقاصد الشخصية والمتع النفسية مثل الـكأس المليئة بالشراب وشرابها لغيرها .

كان المسلم مشرطا لعروق الباطل وكان العمل فى قانون حياته هو الجوهر لا العرض معتمداً على قوة ساعده بعـد ربه ... وإذا كنتم تخافون الموت فقد كان خوفه من الله الذى خلق الموت والحياة .

أين فيكم دولة عثمان ورفده وفقر علىّ وزهده ... وما الذى بقى لديكم من فضائل المسلمين الأولين وتراث المؤمنين السابقين لقد أصبح بعضكم يبغى على بعض بينما هم كانوا هم متراحمين .. كم تخطئون وتغتابون الصالحين .. وكم ستروا عيوب الخلق وهم أئمة المتقين .

أيطمع كل امرئ منكم أن يبلغ أوج الثريا بلا عزم قويم ولا قلب سليم لقد ملـكوا عرش (كسرى) وسرير (كيقباد) وتاج (فغفور) وعظمة القياصرة أما أنتم فقد اقتنيتم الـكلام وأكثرتم الأوهام . لقد كانوا حكام أنفسهم قبل أن يكونوا حكام الخلق وكانوا بناة الأخوة والاتحاد فى الأمة وأنتم تفقدون المودة حتى فى الأسرة . كانت حياتهم عملا وأصبحت حياتـكم أملا تبحثون عن الزهرة فلا تجدونها أما هم فقد كان لهم من الدنيا بستانها وصار لهم

من الآخرة رضوانها لا تزال الشعوب تؤلف من مجدهم الأنغام ولا تزال عاطرة بذكرهم الأيام .. فهم نجوم الآفاق ونور الأخلاق .

عاشوا حياتهم أحرار القلوب وبراهمة بيت المحبوب ... ابتعدوا عن الأوكار وهجروا الديار وأقاموا على النجوم المطار. أما شباب اليوم فالعطلة والفقر والشقاء وينسبون إلى الدين ما لحقهم من بلاء . ومنهم بليتهم ولكن لا يشعرون ... لقد أطلقتهم المدنية من القوانين . فعاشوا مستهترين صنعت لهم هيكل الصنم فألهتهم عن جلال الحرم ... فلم يبق قيس يحن إلى ليلى بين الشعاب ... بل يتمنى فى حرية العشق أن يرى ليلى بغير حجاب وأن يشهد جمالها بغير نقاب .

هذا الشباب يستطيع لو شاء فى عهد جديد أن يجدد قوة الايمان وأن يحمل شعلة الهداية يوقدها من تعاليم خاتم الأنبياء والرسل فتنشر فى الربوع إيمان إبراهيم ... فالنار قد تحرق وقد تُنضج أيها الشاكى الولهان ... لا تحزن من رؤية البستان . وقد فقد زاهى الألوان فسرعان ما تلمع الأزهار من كواكب البراعيم ويتلألأ دم الشهداء على شفاه الورود ... ألا ترى السماء بلونها العنابى أليس هذا لمعان الأفق يستقبل اليوم الجديد ويستبشر بالشمس الطالعة ...

انظر إلى الأرض ... هلا ترى قوما يلتقطون الثمار وآخرين فى البوار ألا ترى مئات النخيل خاوية الأعجاز بينما مئات أخرى فى باطن الأرض فى طريقها إلى ربيع الحياة فلو سقيناها من تعاليم الملة السمحة لأينعت ونمت فنخيل الإسلام أنموذج للإثمار والنماء .

واستطرد إقبال يبين أن المسلم لا وطن له ولا مكان ولن يفنى مسلم بفناء الأزمنة والأوطان إذ لا علاقة بين الكأس وسكر الشراب . ولقد تعرضت الأوطان الإسلامية لهجمات التتار وما حدث من غوغاء إثر حملات البلقان وكان كل ذلك امتحانا لذاتية المسلم فما ارتاع ولكن بقى الإسلام والمسلم فى كل البقاع.

فلماذا إذن يرتاع مسلم اليوم من صهيل خيل الأعداء . ولن يطفىء ذلك نور الحق الوضاء .

فهيا أظهر حقيقتك للأقوام والشعوب فمحافل الأكوان فى حاجة إليك ترنو إلى حرارة أنفاسك ومضاء عزمك .. فلتتدفق دماؤك بالحرارة ليحيا الدهر فى حماية دينك .

إن خلافة الأرض لك فكن بها خليقا ... وقم لتثبت وجودك فيتم بك نور التوحيد ... فإنك عطر ولكن حبستك عن العالم براعم وزهرات ... فقم واحمل الأمانة فى عنقك وانشر أنفاسك حتى تعطر نسيم البستان .

لا تكن كنغمة الأمواج حبيسة الشواطىء ولكن كن فيضانا بالعمل وانشر جناحك حول الآفاق وأثر الدهر بنور إيمانك وأرسل الضياء بقوة يقينك وباسم نبيك .

فلو لم يكن الزهر فى البستان ما تغنى قمرى على الأغصان وما صدحت العنادل بأعذب الألحان ولو لم تبتسم البراعيم بين الأوراق مارأيت ابتسام الزهر فى حديقة الدهر . ولو لم يكن اسم محمد لما نبض الوجود بالحرارة .

جواب شكوى

كلام الروح للأرواح يسرى ... وتدركه القلوب بلا عناء
هتفت به فطار بلا جناح ... وشق أنينه صدر الفضاء
ومعدنه ترابى ولكن ... جرت فى لفظه لغة السماء
لقد فاضت دموع العشق منى ... حديثا كان علوى النداء
فخلق، فى ربا الأفلاك حتى ... أهاج العالم الأعلى بكائى

* * *

تحاورت النجوم وقلن صوت ... بقرب العرش موصول الدعاء
وجاوبت المجرة علّ طيفا ... سرى بين الكواكب فى خفاء
وقال البدر هذا قلب شاك ... يواصل شدوه عند المساء
ولم يعرف سوى رضوانَ صوتى ... وما أحراه عندى بالوفاء
ألم أك قبلُ فى جنات عدن ... فأخرجنى إلى حين قضائى

* * *

وقيل هو ابن آدمَ فى غرور ... تجاوز قدره دون ارعواء
لقد سجدت ملائكة كرام ... لهذا الخلق من طين وماء
يظن العلم فى كيف وكم ... وسر العجز عنه فى انطواء

وملء كؤوسه دمع وشكوى ... وفى أنغامه صوت الرجاء
فيا هـذا لقد أبلغت شيئا ... وإن أكثرت فيـه من المراء

***

عطايانا سحائب مرسلات ... ولـكن ما وجدنا السائلينا
وكل طريقنا نور ونور ... ولـكن ما رأينا السالـكينا
ولم نجـد الجواهر قابلات ... ضياء الوحى والنـور المبينا
وكان تراب آدم غير هـذا ... وإن يك أصـله ماء وطينا
ولو صدقوا وما فى الأرض نهر ... لأجرينا السماء لهم عيـونا

***

وأخضعنا لملـكهم الثريا ... وشيدنا النجوم لهم حصونا
ولـكن ألحدوا فى خـير دين ... بنى فى الشمس ملك الأولينا
تراث محمـد قد أهملوه ... فعاشوا فى الخلائق مهمَلينا
تولى هادمو الأصنام قدما ... فعاد لها أولئك يصنعونا
أباهم كان إبراهيم لـكن ... أرى أمثال آزر فى البنينا

***

وفى أسلافـكم كانت مزايا ... بكل فم لذكراها نشيـد
تضوع شقائق الصحراء عطرا ... برياها وتبتسم الورود
فهل بقيت محاسنهم لديكم ... فيجمل فى دلالـكم الصدود
لقـد هاموا بمخالقهم فناء ... فلم يكتب لغـيرهم الخلود

وكوثر أحمدٍ منكم قريب ولكن شوقكم عنه بعيد

* * *

وكم لاح الصباح سنا وبشرى وأذّنت القمارى والطيور
وكبرت الخمائل فى رباها مصلية فجاوبها الغدير
ونوم صباحكم أبدا ثقيل كأن الصبح لم يدركه نور
وأضحى الصوم فى رمضان قيدا فليس لكم به عزم صبور
تمدن عصركم جمع المزايا وليس بغائب إلا الضمير

* * *

لقد ذهب الوفاء فلا وفاء وكيف ينال عهدى الظالمينا
إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يُحى دينا
ومن رضى الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قرينا
وفى التوحيد للهمم اتحاد ولن تبنوا العلا متفرقينا
تساندت الكواكب فاستقرت ولولا الجاذبية ما بقين

* * *

غدوتم فى الديار بلا ديار وأنتم كالطيور بلا وكور
وكل صواعق الدنيا سهام لبيدركم وأنتم فى غرور
أهذا الفقر فى علم ومال وأنتم فى القطيعة والنفور
وبيع مقابر الأجداد أضحى لدى الأحفاد مدعاة الظهور

سيعجب تاجرو الأصنام قدما إذا سمعوا بتجار القبور

* * *

من المتقدمون إلى المعالى على نهج الهداية والصواب
ومن جبهاتهم أنوار بيتى وفى أخلاقهم يتلى كتابى
أما كانوا جدودكم الأوالى بناة المجد والفن العجاب
وليس لكم من الماضى تراث سوى شكوى اللغوب والاكتئاب
ومن يك يومه فى العيش يأسا فما غده سوى يوم العذاب

* * *

أتشكو أن ترى الأقوام فازوا بمجد لا يراه الزاعمونا
مشوا بهدى أوائلكم وجدّوا وضيّعتم تراث الأولينا
أيحرم عامل وِرد المعالى ويسعد بالرقىّ الخاملونا
أليس من العدالة أن أرضى يكون حصادها للزارعينا
تجلّى النورِ فوق الطور باق فهل بقى الكليم بطور سينا ؟

* * *

ألم يبعث لأمتكم نبىّ يوحدكم على نهج الوئام
ومصحفكم وقبلتكم جميعا منار للأخوّة والسلام
وفوق الكل رحمن رحيم إله واحد رب الأنام
فمالنهار ألفتكم تولى وأمسيتم حيارى فى الظلام
وحسن اللؤلؤ المكنون رهن بصوغ العِقد فى حسن النظام

* * *

وكيف تغيرت بكم الليالى ... وكيف تفرقت بكم الأمانى
تركتم دين أحمدَ ثم عدتم ... ضحايا للهوى أو للهوان
رقى الشعب قد أضحى لديكم ... تقرّره صلاحية الزمان
وكيف تقاس أوهام ولغو ... بحكمة مُنزل السبع المثانى
أرى ناراً قد انقلبت رمادا ... سوى ظل مريض من دخان

***

أرى الفقراء عبادا تقاة ... قياما فى المساجد راكعينا
هم الأبرار فى صوم وفطر ... وبالأسحار هم يستغفرونا
وليس لكم سوى الفقراء ستر ... يوارى عن عيوبكم العيونا
أضلت أغنياءكم اللاهى ... فهم فى ريبهم يترددونا
وأهل الفقر ما زالوا كنوزا ... لدين الله رب العالمينا

***

أرى التفكير أدركه خمول ... ولم تبق العزائم فى اشتعال
وأصبح وعظكم من غير سحر ... ولا نورٍ يطل من المقال
وعند الناس فلسفة وفكر ... ولكن أين تلقين (الغزالى)
وجلجلة الأذان بكل أرض ... ولكن أين صوت من بلال
منائركم علت فى كل حى ... ومسجدكم من العبّاد خالى

***

فأين أئمة وجنود صدق ... تهاب شَباة عزمهم الحراب

إذا صنعوا فصنعهم المعالى ... وإن قالوا فقولهم الصواب
مرادهم الإله فلا رياء ... ونهجهم اليقين فلا ارتياب
لأمتهم وللأوطان عاشوا ... فليس لهم إلى الدنيا طِلاب
كمثل الكأس تبصرها دهاقا ... وليس لأجلها صُنِع الشراب

* * *

جهاد المؤمنين لهم حياة ... ألا إن الحياة هى الجهاد
عقائدهم سواعد ناطقات ... وبالأعمال يثبت الإعتقاد
وخوف الموت للأحياء قبر ... وخوف الله للأحرار زاد
أرى ميراثهم أضحى لديكم ... مضاعا حيث قد ضاع الرشاد
وليس لوارث فى الخير حظ ... إذا لم يحفظ الإرثَ اتحاد

* * *

لأى مآثر القوم انتسبتم ؟ ... لتكتسبوا فخار المسلمينا
فأين مقام ذى النورين منكم ... ودولة عزه دنيا ودينا
وفقر علىٍّ الأواب هلا ... ربحتم فيه كنز الفاتحينا
أقمتم فى الذنوب وفى الخطايا ... وتغتابون حتى الصالحينا
وهم ستروا عيوب الخلق فضلا ... وإن كانوا أبرّ المتقينا

* * *

أريكة قيصر وسرير كسرى ... قد احتميا بملككم العميمِ
وأنتم تطمحون إلى الثريا ... بلا عزم ولا قلب سليم

تضيعون الإخاء وهم أقاموا صروح إخائهم فوق النجوم
طلبتم زهرة الدنيا وعدتم بلا زهر يضوع ولا شميم
وكان لديهم البستان محضا وهم أصحاب جنات النعيم

***

يعيد الكونُ قصتهم حديثا وينشىء من حديثهم الفنونا
فكم نزحوا عن الأوكار شوقا إلى التحليق فوق العالمينا
ويأس شبابكم أدمى خطاهم فظنوا فيه بالدين الظنونا
هى المدنية الحمقاء ألقت بهم حول المذاهب حائرينا
لقد صنعت لهم صنم الملاهى لتحجب عنهم الحرم الأمينا

***

لقد سئم الهوى فى البيد قيس ومل من الشكاية والعذاب
يحاول أن يباح العشق حتى يرى ليلاه وهى بلا حجاب
يريد سفور وجه الحسن لما رأى وجه الغرام بلا نقاب
فهذا العهد أحرق كل غرس من الماضى وأغلق كل باب
لقد أفنت صواعقه المغانى وعاثت فى الجبال وفى الهضاب

***

هى النار الجديدة ليس يُلقَى لها حطب سوى المجد القديم
خذوا إيمان إبراهيم تنبت لكم فى النار روضات النعيم
ويذكو من دم الشهداء ورد سنىّ العطر قدسىّ النسيم

ويلمع فى سماء الكون لون من العنّاب مخضوب الأديم
فلا تفزع إذا المرجان أضحى عقودا للبراعم والكروم

* * *

فكم زالت رياض من رباها وكم بادت نخيل فى البوادى
ولكن نخلة الإسلام تنمو على مر العواصف والعوادى
ومجدك فى حمى الإسلام باق بقاء الشمس والسبع الشداد
وانك يوسف فى أى مصر يرى كنعانه كل البلاد
تسير بك القوافل مسرعات بلا جرس ولا ترجيع حادى

* * *

ضياؤك مشرق فى كل أرض لأنك غير محدود المكان
بغت أمم التتار فأدركتها من الإيمان عاقبةُ الأمان
وأصبح عابدو الأصنام قدما حماة الحِجر والركن اليمان
فلا تجزع فهذا العصر ليل وأنت النجم يشرق كل آن
ولا تخش العواصف فيه وانهض بشعلتك المضيئة فى الزمان

* * *

أعد من مشرق التوحيد نورا يتم به اتحاد العالمينا
وأنت العطر فى روض المعالى فكيف تعيش محتبسا دفينا
وأنت نسيمه فاحمل شذاه ولا تحمل غبار الخاملينا
وأرسل شعلة الإيمان شمسا وصُغ من ذرة جبلا حصينا

وكن فى ثمة الطوفان موجا ومزنا يمطر الغيث الهتونا

* * *

فباسم محمد شمس البرايا أقيمت خيمة الفلك المنير
تلألأ فى الرياض وفى الصحارى وفوق الموج والسيل المغير
ونبض الكون منه مستمد حرارته على مر العصور
ومن مُرّاكش يغزو صداه ربوع الصين بالصوت الجهير
وما مشكاة هذا النور إلا ضمير المسلم الحر الغيور

* * *

ورفع الذكر للمختار رفع لقدرك نحو غايات الكمال
فكن إنسان عين الكون واشهد مقامك عاليا فوق المعالى
بخنجر عزمك الوثاب لاحت على الأعلام أنوار الهلال
نداؤك فى العناصر مستجاب إذا دوى بصوت من بلال
وعقلك فى الخطوب أجل درع وعشقك خير سيف للنضال

* * *

خلافة هذه الأرض استقرت بمجدك وهو للدنيا سماء
وفى تكبيرك القدسى يبدو صغيرا كل ما ضم الفضاء
فيا من هب للإسلام يدعو وأيقظ صدق غيرته الوفاء
سترفع قدرك الأقدارُ حتى تشاهد أن ساعدك القضاء
وقيل لك احتكم دنيا وأخرى وشأنك والخلود كما تشاء

* * *

فاطمة الزهراء

نسبُ المسيح بَنى لمريمَ سيرةً ... بقيتْ على طُول المَدَى ذِكراها
والمجدُ يُشْرِقُ مِن ثلاث مطالع ... فى مهد « فاطمة » فما أعلاها
هِىَ بنتُ مَن؟(١) هِىَ زوجُ مَن؟(٢) هِىَ أمُّ مَن؟(٣)
من ذا يُدانى فى الفخـــار أباها

(١) هى ومضةٌ من نور عين المصطفى ... هادى الشعوب إذا تروم هُداها
هو رحمةٌ للعالمين ، وكعبة الـ ... آمال فى الدنيا وفى أُخراها
من أيقظ الفطر النيام بروحه ... وكأنه بعد البلا أحياها
وأعاد تاريخ الحياة جديدةً ... مثل العرائس فى جديد حُلاها

(٢) وزوج فاطمة بسورة «هل أتى» ... تاجٌ يفوق الشمس عند ضحاها
أسدٌ بحصن الله يرمى المشكلا ... ت بصيقل يمحو سطور دُجاها
إيوانه كوخٌ وكنز ثرائه ... سيفٌ غـدا بيمينه تياها

(٣) فى روض فاطمة نما غصنان لم ... ينجبهما فى النيّرات سِـواها
فأميرُ قافلة الجهاد ، وقطب دا ... ئرة الوئام والاتحاد ، ابناها
«حسَن» الذى صان الجماعة بعدما ... أمسى تفرقها يحـلّ عراها
ترك الإمامة ثم أصبح فى الدنيا ... رَ إمام ألفتها وحسن علاها

و«حُسَيْن» فى الأبرار والأحرار ما أزكى شمائله وما أنداها
فتعلَّموا ريّ اليقين من الحسي ـ ـن إذا الحوادث أظمأت بلظاها
وتعلَّموا حُرِّية الإيمان من صبر الحسين وقد أجاب نداها
الأمهات يَلِدْن للشمس الضيا ء وللجواهر حسنها وصفاها
ما سيرة الأبناء ، إلا الأُمهات فهم إذا بلغوا الرقى صداها

* * *

هى أُسوة للأُمهات وقُدْوة يترسم القمر المنيرُ خُطاها
لما شكا المحتاج خلف رحابها رقّت لتلك النفس فى شكواها
جادت لتنقذه برهن خمارها يا سحب أين نداك من جدواها
نور تهاب النار قدس جلاله ومُنى الكواكب أن تنال ضِياها
جعلتْ من الصبر الجميل غذاءها ورأتْ رضى الزوج الكريم رضاها

* * *

فَمُها يُرتِّل آىَ ربِّك بينما يدها تُدِير على الشعير رحاها
بلّت وسادَتَها لآلِئُ دمعها من طول خشيتها ومن تقواها
جبريلُ نحو العرش يرفع دمعها كالطلّ يروى فى الجنان رباها
لولا وقوفى عند أمر المصطفى وحدود شرعته ونحن فداها
لمضيت للتطواف حول ضريحها وغمرت بالقبلات طيب ثراها

صوت إقبال إلى الأمة العربية

أُمة الصحراء يا شعب الخلودْ ... من سواكم حلّ أغلال الورى
أيُّ داعٍ قبلكم فى ذا الوجود ... صاح لا كسرى هنا لا قيصرا
من سواكم فى حديث أو قديم ... أطلع القرآن صبحاً للرشاد
هاتفاً فى مسمع الكون العظيم ... ليس غيرُ الله ربًّا للعباد
حدِّثونى اليوم عن أى خوان ... قدّم الحكمة قوتاً للفِطن
يا مصابيح التآخى والتفانى ... أنزل الله فأصبحتم لمن

* * *

وابل من فيض أُمىِّ اللقب ... الكريم الفرد فى كل الكرام
أنبت الزهرَ بصحراء العرب ... بل سقى فى القفر بستان الوئام
بهدى الحرية العُليا أنار ... فهى روض مونق من غرسه
يومها الحاضر فى كل الديار ... لم ينر إلا بذكرى أمسه
كل صدر من بقايا آدم ... صاغ فيه للعُلا قلباً جديدا
منح الإنسانَ مُلك العالم ... بعد ما علّمه النهج الرشيدا
كل رب غير خلاق النسَم ... صار من عزمته تحت الثرى
كل غصن كان فى يُبس العدم ... بنداه اخضرّ حتى أثمرا

* * *

لا تسلنى الآن عن ثورته ... إنها ميدان بدر وحُنَيْن
فى أبى بكر وفى صاحبه ... فى علىّ ثم فى صبر الحسين
سيف أيُّوب وتقوى بايزيد ... فيهما مفتاح كنز العالَمين
أسكَر الدنيا بجامٍ واحد ... فحوى الدنيا وضمّ المشرقين
ها هنا الحكمة والدينُ القويم ... وهناك الحكم للدنيا يقام
كلُّ قلب فيه للمجد الصميم ... ثورة تعلو به فوق المرام

* * *

لا تقل أين ابتكار المسلمين ... وسل الحمراء واشهدْ حُسن تاج
دولة سار ملوك العالمين ... نحوها طوعاً يؤدُّون الخراج
دولة تقرأ فى آياتها ... مظهر العزّة والمُلك الحصين
وكنوزُ الحقّ فى طيّاتها ... دونها حارت قلوب العارفين
أُرسل الشكر إلى غير انتهاء ... لنبىّ الله قدسىّ الجناب
أشعلَ الإيمانَ ناراً بالعراء ... أوقد النور بكفّ من تراب
وحباه الله من عليائه ... عزمة فلّ بها سيف الغيَرْ
راكب الناقة فى صحرائه ... سار فيها راكباً خيلَ القدر
كبّروا لله فى ظل الحروب ... وصفوفاً تحت ظلّ المسجد
ضجة دانت لهم فيها الشعوب ... وارتقوا فيها مكان الفرقد

* * *

وَى كأنْ لم تشرقوا فى الكائنات ... بهدى الإيمان والنهج الرشيد
ونسيتم فى ظلام الحادثات ... قيمة الصحراء فى العيش الرغيد
كلُّ شعب قام يبنى نهضةً ... وأرى بُنيانكم منقسما
فى قديم الدهر كنتم أمةً ... لهف نفسى كيف صرتم أمما
كل من أهمل ذاتيَّتَه ... فهو أوْلىٰ الناس طرًّا بالفناء
لن يرى فى الدهر قوميَّتَه ... كلُّ من قلّد عيش الغُرباء
فكّروا فى عصركم واستبقوا ... طالما كنتم جمالا للعُصُر
واملأُوا الصحراء عزماً واخلقوا ... مرة أُخرى بها روح عمر

فقر الصالحين

يا عَبيدَ الماء والطين اسمعوا ... ما هو الفقر الغنىُّ الأرفعُ ؟

هو عِرفان طريق العارفين ... وارتواء القلب من عين اليقين

ذلك الفقرُ عزيزٌ فى غناه ... هامة الجوزاء من أدنى خُطاه

يرعش الدهر إذا دوّى صداه ... ليس غير الله فى الكون إله

خاشعٌ لله ذيّاك الفقير ... وإليه خاشعاً يسعى الأمير

حاله شوقٌ وذوْقٌ ورِضا ... ثم تسليمٌ بما الله قضى

يا له فقراً به الكون صفا ... فهو ميراث النبىّ المصطفى

ليله المظلِمُ للمجد سراج ... يصنع الجوهر من أدنى زجاج

ربما غيَّرَ ناموس الفلك ... وازدهى من نوره نور الملك

ذلك المسكين فى رقعته ... يسعُ العالم فى مُهجتهِ

صامتٌ ليس يُطيل الكلِما ... وهو بالصمت يربّى الأُمما

جعل العصفور نسراً فى الفضاء ... فبدا للأرض تفسير السماء

مسلم دولته فوق الحصير ... كان يخشى بأسه ألفُ سرير

يتلاشى الجمرُ فى نيرانه ... ويخاف البحر من طوفانه

لم يحد شعب عن النهج المنير ... ولديه مثل ذيّاك الفقير

فامتحن وجهك فى مرآته ... علّه يحييك من آياته

فقرنا ليس برقصٍ أو غنـاء ... ليس سُكر النفس فى موت الرجاء
فقرُنا معناه تيسير الجهود ... فقرُنا معناه تسخير الوجود
فقرنا العادى سراجٌ لو ظهر ... يخجل الشمس ويُزرى بالقمر
إنه إيمـان بدر وحُنَيْن ... إنه زِلزال تـكبير الحسَيْن
صاح دَعْنى أكتم الهمّ الدفين ... إن كأسى ليس يروى العابثين
من تـكن همتُه نسج الحصير ... فهو لا يعـلمُ ما نسج الحرير
فليكُن يوسُف للذئب طعاما ... ثم لا يصبِح للضيم غلاما
ليس للشيطان فينا مَطلب ... لا ولا للص فينـا مأرب
فـكنوز الدين قد طارت شعاعا ... وتراث المال قد أمسى ضياعا
منزل الشاهين فى أوج السحاب ... ما له يسكن فى وكر الغراب
لم يزل فى الرَّوْض ظلٌّ وثمر ... فالتمس عشَّك فى أعلى الشجر
أيُّهـا الشادى بقرآنٍ كريم ... وهو فى ركن من البيت مقيم
قم وأبلغ نوره للعـالمين ... قم وأسمعه البرايا أجمعين
إن تـكن فى مثل نيران الخليل ... أسمع النمرود توحيدَ الجليل
مَن له من ثروة الهادى نصيب ... فهو من جبريل فى الدنيا قريب
حينما آمنت بالله الأحـد ... لم أُذِلّ النفس يوماً لِأَحد
إن أكن فى صورة النمل خفاء ... لست أرجو من سُليمانٍ عطاء
يا غريباً عن مقام المصطفى ... عُد إلى الحقّ تجد نور الصفا

تصوير الألم وتجديد الأمل

شعر رمزى يصور لنا فيه إقبال عظمة الفطرة الإنسانية ومقام المؤمن فى تقدير ربه وإقبال فى هذه القصيدة يدعو إلى الوحدة الإسلامية ويخوف المسلمين من شبح الفرقة الرهيب الذي مزق ألفتهم وأضعف من قوتهم وقدتناول ذلك كله فى شعر رمزى يلمع فيه إلى الأشياء إلماعا مستنهضا عزيمة المؤمن منبها إدراكه إلى ما فى الوحدة الإسلامية من سعادة ينعم فى ظلها الجميع قال :

يا أرض إنى من ترابك قبضة ... وترى الكواكب أننى مرآتها
أنا من غبار الشعب أم اسكندر ... عندى الحياة وفى دمى ثوراتها

* * *

الأرض لا تخفى حقيقة جوهرى ... أنا مقصد التقدير فى الأكوان
وحقيقتى نور فمالى سابح ... فى لجة الظلمات والأشجان

* * *

أنا فى رمال البيد كنز مختف ... حجبت نضارى هذه الصحراء
لم أحنِ رأسى خاشعاً إلا لمن ... بيمينه الإحياء والإفناء

* * *

فقرى لخلاقى غنى عن خلقه ... فأنا الغنى وإن غدوت فقيرا

وأرى فناء العيش خيرا للفتى من أن يعيش على الفناء أسيرا

***

أنا أمة فيما أريد لأمتى ولايتى دنيا من الأجيال
وأرى بمنظار الحقيقة كلما يبديه فى الحق الصريح خيالى

***

قم أنقذ الوطن الكريم ولا تنم هذى الحوادث آذنت بدخان
إنى لألمح فى السماء تآمرا وأرى طلائعَ وابل النيران

. . .

فاخلق لروحك من زئيرك نشوة فى المجد ترهب فى العرين أسودا
واجعل نشيدك قول ربك لا تخف حتى يخاف البرق منك رعودا

***

وليبد فى الأكوان قدرك عاليا وليعلُ صوتك فى السماء رفيعا
لتراك أنظار الخليقة كلّها فوق الكواكب والنجوم جميعا

***

دنياى آلام تذيب حشاشتى لا تمنعونى أن أبث جروحى
إنى سأوقد فى القلوب شموعها وأزيد شعلتها بجذوة روحى

***

اليوم أسمعك احتدام مشاعرى وصراخ إيمانى وصوت مُنايا
المستحيل بدا لعينى ممكنا سأرى الخليقة مارأت عينايا

وغـدًا سأجمع ذلك الحَب الذى نثرته فى ظلمائها الأهواء
لأرده عقـدا سليما حاليـا تعنو لحسن نظامه الجوزاء

* * *

لِمَ لَمْ يعرف قلبك المجـد الذى لم يزدهر إلا بأصلك فى القـدم
وبقيت فى أرض المـذلة لا ترى كالعين إلا مثل آثار القـدم

* * *

أتعيش بين المؤمنين مفرقا للمسلمين وتدعى التوحيـدا
وتظن ذكرك طاعـة وعبادة وهواك صار إلهك المعبودا

* * *

فإذا بدا لك فى الحياة تغير فاعلم بأنك أنت قـد غيرتها
صور مشوهة تراها باكيا أنسيت أنك هكذا صـورتها

* * *

من نور عينك أرسل الضوء الذى تهفو الفراش لناره وتحلق
من دمع عينك أرسل الغيث الذى من فيضه يجرى السحاب المغدق

. . .

الشمس لم ترفع بمَشرق نورها ورق الغصون الخضر فى الأشجار
من كان معدنه الرقى فإنه مثل الندى يعلو مع الأنوار

. . .

وشرارة الحُب المقـدس تجعل ا قلب المعـذب شعلة من نور

والقلب فى خمر الصبابة يزدهى خصبا وينبت فيه نخل الطور

***

حرية الأوطان ينمو غرسها فى الاتحاد على هدى الإيمان
أما امتياز أنا وأنت فإنه شرك الردى والذل والحرمان

***

من يجنى أشجار الخلاف فإنما يجنى الضريع ويحصد الزقوما
قد مزقت أجيالَ آدم بعدما أقصته من غرف الجنان قديما

***

لم ألقَ فى هذا الوجود سعادة كمودة الإنسان للإنسان
لما سكرت بخمرها القدسى لم أحتج إلى تلك التى فى الحان

***

معنى احتراق القلب فى الإخلاص أن القلب يصبح كله أنوارا
ولقد تحولت الفراشة شمعة لما أن احترقت فأضحت نارا

عزيمة المسلم

يبتسم المسلم فى سلمه ... عن رقة الماء ولين الحرير
وتبصر الفولاذ فى عزمه ... إذا دعا الحرب ونادى النفير
يمشى على الأشواك والنا ... ر والسيف ويمضى ساخرا بالعذاب
فهو ترابى ولكنه ... حر طليق من قيود التراب
المسلم الصادق فى عزمه ... ينازع الأقمار تاج الفلك
لا يجعل العصفور صيدا له ... لكنه يرقى لصيد الملك

* * *

النشيد الإسلامي

الصِّينُ لَنَا وَالْعُرْبُ لَنَا ... وَالْهِنْدُ لَنَا وَالْكُلُّ لَنَا

أَضْحَى الْإِسْلَامُ لَنَا دِينًا ... وَجَمِيعُ الْكَوْنِ لَنَا وَطَنَا

تَوْحِيدُ اللهِ لَنَا نُورٌ ... أَعْدَدْنَا الرُّوحَ لَهُ سَكَنَا

الْكَوْنُ يَزُولُ وَلَا تُمْحَى ... فِي الدَّهْرِ صَحَائِفُ سُؤْدَدِنَا

بُنِيَتْ فِي الْأَرْضِ مَعَابِدُهَا ... وَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ كَعْبَتُنَا

هُوَ أَوَّلُ بَيْتٍ نَحْفَظُهُ ... بِحَيَاةِ الرُّوحِ وَيَحْفَظُنَا

فِي ظِلِّ السَّيْفِ تَرَبَّيْنَا ... وَبَنَيْنَا الْعِزَّ لِدَوْلَتِنَا

عَلَمُ الْإِسْلَامِ عَلَى الْأَيَّا ... مِ شِعَارُ الْمَجْدِ لِمِلَّتِنَا

بِهِلَالِ النَّصْرِ يُضِيءُ لَنَا ... وَيُمَثِّلُ خِنْجَرُ سَطْوَتَنَا

وَأَذَانُ الْمُسْلِمِ كَانَ لَهُ ... فِي الْغَرْبِ صَدًى مِنْ هِمَّتِنَا

قُولُوا لِسَمَاءِ الْكَوْنِ لَقَدْ ... طَاوَلْنَا النَّجْمَ بِرِفْعَتِنَا

يَا دَهْرُ لَقَدْ جَرَّبْتَ عَلَى ... نِيرَانِ الشِّدَّةِ عَزْمَتَنَا

طُوفَانُ الْبَاطِلِ لَمْ يُغْرِقْ ... فِي الْخَوْفِ سَفِينَةَ قُوَّتِنَا

يا ظِلَّ حَدَائِقِ أَنْدَلُسٍ أَنَسِيتَ مَغَانِيَ عِشْرَتِنَا
وَعَلَى أَغْصَانِكَ أَوْكَارٌ عَمَرَتْ بِطَلَائِعِ نَشْأَتِنَا
يا دَجْلَةُ هَلْ سَجَّلْتِ عَلَى شَطَّيْكِ مَآثِرَ عِزَّتِنَا
أَمْوَاجُكِ تَرْوِي لِلدُّنْيَا وَتُعِيدُ جَوَاهِرَ سِيرَتِنَا
يَاأَرْضَ النُّورِ مِنَ الْحَرَمَيْـ نِ وَيَا مِيلَادَ شَرِيعَتِنَا
رَوْضُ الْإِسْلَامِ وَدَوْحَتُهُ فِي أَرْضِكِ رَوَّاهَا دَمُنَا
وَمُحَمَّدُ كَانَ أَمِيرَ الرَّكْـ بِ يَقُودُ الْفَوْزَ لِنُصْرَتِنَا
إِنَّ اسْمَ مُحَمَّدٍ الْهَادِي رُوحُ الْآمَالِ لِنَهْضَتِنَا
دَوَّتْ أُنْشُودَةُ «إِقْبَالٍ» جَرَسًا يَحْدُو فِيهِ الزَّمَنَا
لِيُعِيدَ قَوَافِلَنَا الْأُولَى فِي الْمَجْدِ وَيَبْعَثَ أُمَّتَنَا

نشيد الأخوة الإسلامية

قاله الأستاذ الشيخ الصاوى شعلان أحد المترجمين
فى عهد إنشاء جماعة الأخوة الإسلامية بمصر

بِنُورِ الْوِئَامِ وَبُشْرَى الْإِخَاءْ ... نَزُفُّ إِلَى الْمُسْلِمِينَ النِّدَاءْ
هَلُمُّوا جَمِيعًا فَرَبُّ السَّمَاءْ ... بِتَوْحِيدِهِ وَحَّدَ الْمُسْلِمِينْ
أُخُوَّتُنَا بَيْنَ كُلِّ الْقُلُوبْ ... كَقِبْلَتِنَا فِي جَمِيعِ الشُّعُوبْ
تَلَاقَى الشَّمَالُ بِهَا وَالْجَنُوبْ ... مَعَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ فِي كُلِّ حِينْ
تُوَحِّدُنَا فِي الصُّفُوفِ الصَّلَاه ... وَيَجْمَعُنَا فِي الْجِهَادِ الْحَيَاه
إِلَى الِاتِّحَادِ دَعَانَا الْإِلٰهْ ... لِإِنْشَاءِ دُنْيَا وَإِعْلَاءِ دِينْ
لَقَدْ خَلَّدَ الدِّينُ فِينَا مِثَالَا ... نَزِيدُ بِهِ أُلْفَةً وَاتِّصَالَا
فَآخَى صُهَيْبًا وَآوَى بِلَالَا ... وَنَادَى بِسَلْمَانَ فِي الْأَقْرَبِينَ
حَيَاةُ الْأُخُوَّةِ مَجْدٌ رَفِيعْ ... وَعَيْشُ التَّفَرُّقِ مَوْتٌ سَرِيعْ

لِدِينِ الْجَمَاعَةِ نَادُوا الْجَمِيعْ وَعِيشُوا بِإِيمَانِكُمْ أَجْمَعِينْ
بَنَيْنَا الْإِخَاءَ لِكُلِّ الدِّيَارْ عَلَى أُلْفَةٍ أَيْنَعَتْ بِالْفَخَارْ
كَمَا يَنْظِمُ الرَّوْضُ كُلَّ الثِّمَارْ كَمَا تَجْمَعُ الْجَنَّةُ الْمُتَّقِينْ
فَهَيَّا ارْفَعُوا لِلْإِخَاءِ الْعَلَمْ وَسِيرُوا بِهِ جَبْهَةً فِي الْأُمَمْ
بِصَفْوِ التَّآخِي وَصِدْقِ الْهِمَمْ نُعِيدُ السَّلَامَ إِلَى الْعَالَمِينْ

الكتاب الثاني
في
المتفرقات

الكتاب الثانى
فى
المتفرقات

أمثلة من شعر إقبال

لصاحب السعادة الدكتور عبد الوهاب بك عزام
رئيس جماعة الأخوة الإسلامية بمصر سابقا

(١) الحيـــاة

بكى سحاب الربيع فى جنح الليل فقال : هذى الحيـاة بكاء مستمر فتلألأ البرق الخاطف :

قد أخطأت ! إنها لمحات من الضحك . ليت شعرى من روى للبستان هذا الحديث فهو حوار مستمرّ بين الندى والورد .

(٢) اليراعة

سمعت اليراعة تقول : لست كالنملة ينال الناس شرها ؛ ولست كالفراشة تصطلى بنار غيرها ـ أنا أشتعل بنفسى ولا أحمل لأحد مَنًّا إذا صار الليل أحلك من عين الظبى أنرت بنفسى لنفسى الطريق .

(٣) الحقيقـة

قالت العقاب بعيدة النظر للعنقاء : إن الذى تدركه عينى سراب ـ أجابت العنقاء : أنتِ ترين ذلك ، ولـكنى أعلم أنه ماء . فنادت السمكة من لجة البحر : هنا وجود لاشك فيه وهو فى هياج واضطراب .

(٤) الحكمة والشعر

ضلّ أبو علي في غبار الناقة ، وأمسكت يد الروى ستر الهودج هذا غاص حتى ظفر بالجوهر اللألاء ، وذلك دار مع الغثاء على وجه الماء ـ الحق إن لم تكن فيه حرقة فهو حكمة ، وهو شعر اذا قبس من القلب ناراً .

(٥) الوحدة

ذهبت إلى البحر فقلت للموج المصطخب : أنت في سعي دائم فما خطبك ؟ في جيبك آلاف اللآلئ فهل في صدرك جوهر من القلب كالذي في صدري ـ فاضطرب وجزر ولم يحر جواباً ـ .

ذهبت إلى الجبل فسألت : ما هذا الجمود ؟

ألا ينال سمعك صيحات المكروبين وآهات المحزونين ؟ إن يكن العقيق الذي في أحجارك قطرات من الدم فحدثني فإني محزون .

فانقبض وصمت ولم يحر جواباً .

* * *

قطعت طريقاً بعيدة ... وسألت القمر : يا جوّاب الآفاق ! هل قدّر لك في سفرك قرار ؟

العالم حديقة ياسمين من شعاع وجهك ، فهل نور وجهك من قلب يتجلى ؟ فرأى رقباء بين الأنجم فلم يحر جواباً .

* * *

تخطيت القمر والشمس إلى حضرة الخلاق فقلت ليس فى عالمك ذرة تعرفنى. العالم خلو من القلب وأنا قبضة من التراب ، ولكنها كلها قلب . إن هذه المروج جميلة ولكنها ليست أهلا لنغماتى ـ فتبسم ولم يحر جواباً .

(٦) نسيم الصباح

إنى آتية من صفحات البحار وقمم الجبال ولكن لست أدرى من أين أهبّ إنى أبلغ الطائر المحزون رسالة الربيع وأنثر فى داره فضة الياسمين . وأتقلب فى المرج وألتف على أغصان الشقائق فأبعث اللون والرائحة من مسامّها ، وأتعلق رفيقة بأوراق الورد والزهر حتى لا أثقل على أغصانها ، وإذا رأيت شاعراً هاجته هموم العشق خلطت بنغماته نفساً بعد نفس .

(٧) العشق

عندى خبر هذه الكلمة الأخّاذة للقلوب التى هى سر وليست بسر . أنا أنبئك من سمعها وأين سمعها ! استرقها الندى من السماء فأوحاها إلى الورد ، وأخذها عن الورد البلبل ونقّها عن البلبل ريح الصبا .

(٨) نغمة حادى الحجاز

يا ناقتى الخطّارة وظبيتى المعطارة
وعدتى والشارة
والمال والتجارة يا دولتى السيّارة !

حُثى الخطى قليلا منزلنا قريب

***

جميلة الرواء مطربة الرغاء
محسودة الحسناء وغيرة الحوراء
بُنَيّة الصحراء
حُثى الخطى قليلا منزلنا قريب

***

كم غصت فى الشراب فى وقدة اليباب
وسرت لم تهابى فى الليل كالشهاب
والنوم عنك نابى
حُثى الخطى قليلا منزلنا قريب

***

قطعة غيم غادى سفينة الرواد
كالخضر فى البوادى تمضين فى سداد
فلذة قلب الحادى
حُثى الخطى قليلا منزلنا قريب

***

هيامك الزمام وسيرك الأنغام
يتعبك المقام لا الجوع ولا الأوام
والسفر المدام

حثى الخطى قليلا منزلنا قريب

* * *

ممسية فى اليمن مصبحة فى قرن
ترين حزن الوطن كالخز تحت الثفن
إيه غزال الختن
حثى الخطى قليلا منزلنا قريب

* * *

بدر السماء نعسا خلف التلال خنسا
والصبح قد تنفسا مزق هذا الغلسا
والريح تزجى نفساً
حثى الخطى قليلا منزلنا قريب

* * *

لحنى دواء السقم والروح ملء نغمى
يحدو الركاب كلى من جارح وجلسم
هلم بنتَ الحرم
حثى الخطى قليلا منزلنا قريب

* * *

ومن كلامه فى « نقش فرنك » وهو القسم الرابع من « پيام مشرق » .

(٩) جمعية الأقوام

يريد المُرزّاون أن يسنّوا سنّة جديدة ليمحوا آية الحرب من هذا المحفل العتيق.
فما عرف قبل اليوم أن جماعة من سُرّاق الأكفان ألّفوا جماعة لتقسيم القبور .

(١٠) نيتشه

خفق قلبه لضعف عناصر الإنسان ، وخلق فكره الحكيم صورة أحكم وأمتن، فأثار بين الفريج هياجاً بعد هياج : مجنون ولج مصانع الزجاج ـ إذا بغيت نغمة ففر منه ، فليس فى نايه إلا قصف الرعد قد دفع مبضعه فى قلب الغرب واحمرت يده من دم الصليب ـ هذا الذى بنى معبداً للصنم على قواعد الحرم ، قد آمن قلبه وكفر دماغه .

(١١) جلال الدين الرّومى وهيجل

كنت ليلة أحاول أن أحل عقد الحكيم الألمانى ذلك الذى خلع فكره على الأبدى كسوة الآنى ، والذى أخجل العالم إذ ضاق عن سعة خياله ـ فلما نزلت فى بحره صارت سفينة العقل طوفانا ، ثم سحرنى النوم فأغمضت عينى عن الفانى والباقى ، وازداد شوقى وقدة فتجلى لى وجه الشبح الإلهى : الشمس التى أضاءت آفاق الشام والروم ، والذى وضع شعلته مصباح هدى فى هذه الدنيا

المظلمة ، الذى تنمو المعانى من كلماته كما تنمو شقائق النعمان . قال لى كيف تنام استيقظ ، إنك تجرى سفينة فى سراب . إنك تجتاز طريق الفسق بالعقل . إنك تبحث عن الشمس بمصباح .

(١٢) نهر الكنج وهملايا

قال نهر الكنج يوماً لجبل هملايا وهو يجرى فى سطحه! أيها المتوّج بالبرد من فجر الخليقة والمنتطق بالأنهار الجارية، جعلك الله نجى السماء، ولكن حرمك التبختر فى العراء، ماغناء الرقاد والرسوخ والرفعة، وقد سلبت الحياة والحركة ؟ الحياة سعى دائم كالموج : وجوده حركته الدائمة ـ فلما سمع الجبل تعبير النهر أرسل أنفاسه بحراً من نار وقال : يا من اتخذت صفحة مرآتى أكننت مئات من مثاله فى صدرى ـ هذا التبختر زينة الفناء ! من ذهب عن نفسه فقد حرم البقاء ـ قد غفلت عن مقامك وتخرت بزوالك ياوليد الفلك الرفيع ؛ إن خيراً منك الساحل الوضيع ـ قدمت نفسك قربانا للمحيط ، ونثرت روحك لقاطع الطريق ـ كن فى بستانك ورداً ولا تذهب وراء القاطف لتنشر عبيرك ـ إن الحياة أن تنمو فى مكانك وأن تنشر العبير فى بستانك .

خلت القرون وأنا فى طينتى ثابت القدم ، وتحسبنى إلى الغاية لم أتقدم كلّا قد عظمت حتى بلغت السماء ، واستراحت على سفحى الجوزاء ـ ضل وجودك فى البحر الخضم ـ وصارت ذروتى مسجد الأنجم ـ عينى بأسرار الفلك بصيرة، وأذنى بطيرانه خبيرة ـ احترقت بنار السعى الدائم ـ فجمعت فى صدرى الجواهر

« فى صدرى حجارة ، وفى الحجارة النار ، وليس للماء إلى هذه النار سبيل »
ـ إن كنت قطرة فلا ترق نفسك بيدك ، بل جاهد اللجة وحارب اليم لحياتك ـ
كن جوهراً لألاء ، يزيد جيد الحسناء ضياء أواسم بنفسك وأسرع المطار ، وكن
سحاباً يرمى البروق ويمطر البحار ليستجدى البحر إحسانك ويشكو ضيقه عن
إنعامك ويرى نفسه أقل من موجة لديك ، ويرتمى على قدميك .

(١٣) قصة الطائر الذى أنهكه العطش

بلغ العطش من طائر جهده فاضطرب نفسه موجة من الدخان فى صدره ،
فأبصر فى بستان شذرة من الماس الوضاء تخيل إليه العطش أنها ماء ، وخدعت
الطائر المجهود هذه الشذرة المتلألئة كالشمس فتوهم الحجر الصلب ماء سائلا ،
وغره من هذا الجوهر بريقه فضرب بمنقاره فلم تنقع غلته ـ قالت الماسة : أيها
الطائر المسحور ! لشدّ ماضربت بمنقار الغرور ! لست قطرة من الماء ، ولامشربة
للظماء ليست حياتى من أصل غيرى ـ إن محاولة التقاطى جنون وغرور ، وغفلة
عن الحياة الذاتيـة الظهور ـ إن مَاْئى يكسر من الطير منقاره ـ ويصدع من
الإنسان جوهر روحه ـ خاب أمل الطائر فأعرض عن هذه الشذرة الوضاءة ،
وانقلب الأمل فى صدره حسرات ، واستحالت أنيناً هـذه النغمات ـ ثم بصر
بقطرة من الطل على فنن من الورد تتلألأ كدمعـة من عين البلبل ضياؤها
أفناناً فى وهج الشمس وهى من خوف الشمس فى رعده كوكب ولدته السماء
فلبث لمحة فى نشوة الظهور والضياء ، وخدعته ألوان الأكمام والأزهار فلم يأخذ

من الحياة نصيباً كدمعة العاشق العليل ، زانت الهدب لتسيل .

ويسرع الطائر إلى فنن الورد فيلتقط قطرة الندى ـ أيتها المبتغى نجاة من الأعداء ! خبرنى أجوهر أنت أم قطرة من ماء . ألم تر إلى الطائر حين أذاب العطش مهجته، كيف وقى بحياة غيره حياته ؟ لم تكن القطرة فى صلابة الجوهر ولكن كانت الماسة صلبة المكسر . فلا تغفل عن حفظ الذاتية لمحة ، وكن قطعة ماس لا قطرة .

كن ناضج الفطرة راسخاً كالجبال وتحمل بحاراً من السحاب الهطال . وجد نفسك تقوى نفسك واستحل فضة بجمود زئبقك . أظهر نغمة الذاتية من أوتارها ، وتجل للناس بأسرارها .

(١٤) فى الكلام على الوقت

اسمع نكتة تضىء كالدر ، لتعرف فرق ما بين العبد والحر : العبد ضال فى الليل والنهار ، والزمان فى قلب الحرّ ضال . العبد ينسج من الأيام كفنه ويخيط الليل والنهار على نفسه ، والحر يخلع نفسه من الطين ، ثم ينسج على الزمان محرابه المتين . العبد طائر فى شبكة الصباح والمساء ، حرمت روحه لذة السبح فى الهواء ، وصدر الحر الهمام ، قفص لطائر الأيام . فطرة العبد تحصيل الحاصل وخواطره تكرار قاتل . مقامه من الجمود واحد ، وصوته بالليل والنهار راكد . والحر كل حين خلاق ، يسكب نغمه مجددة فى الآفاق . فطرته لا تحتمل التكرار ، وليست طريقه حلقة البركار ، العبد فى سلاسل من أيامه ، والقضاء

والقدر ورد لسانه ، وهمة الحر مثيرة على القضاء قصور يده الحادثات ، كما تشاء . الماضى والآتى ماثلان لديه ، والآجل عاجل بين يديه ... نضر الله عهداً كان سيف الزمان ، حليف أيدينا على الحدثان ، فبذرنا الدين فى أرض القلوب ، ورفعنا الحجاب عن وجه الحق المحجوب ... وحلت عقدة الدنيا أناملنا ، ونضر وجه الأرض سجودنا ، وشربنا الصهباء من دنّ الحق ، ثم سرنا بنشوته بين الخلق . يامن أترعت كأسه الخمر المعتقة ، وأذابت كأسه الصهباء المحرمة ، وملأه الكبر والغرور ، فعيّرنا بالفقر والمتربة . لقد كانت كأسنا كذلك زينة المحافل ، يوم كنا وصدرنا بالقلب آهل ، وثار من غبار أقدامنا عصر جديد ـ ينجلى بكل أمل بعيد ، ورويت مزرعة الحق بدمائنا ، وسعد عبّاد الحق ببلائنا ، ودوّى العالم بتكبيرنا ، وعمرت كعبات من ترابنا . وأنزل الحق كلمة « اقرأ » فينا ، ثم قسم رزقه بأيدينا . فإن يكن ذهب منا الخاتم والتاج ، فلا تحقر ذلك الفقير المحتاج . إن نكن بزعمك مفسدين ، وبالأفكار العتيقة مغرمين ، فنحن لانزال الأحرار أنصار التوحيد ، قوامين على العالمين والله شهيد .

فرغنا من غم اليوم والغد ، وحالفنا الله الأحد ، فنحن فى قلب الحق سر مكنون ، ونحن ورثة محمد وموسى وهارون ، لا يزال نورنا فى الشمس والقمر مصوناً ولا يزال سحابنا بالبرق مشحونا . إن ذات المسلم مرآة الحق ، وإن وجود المسلم من آيات الحق .

فى حفلة الذكرى

لحضرة صاحب السعادة محمد على علوبة باشا

سفير مصر فى الباكستان

رأيته لأول مرة فى القدس من عشرين عاما مضت أيام كنا وكيلين للمؤتمر الإسلامى العام الذى انعقد هناك للدفاع عن فلسطين ولقد كنا نحن الاثنين من خطباء هذا المؤتمر . كنت أعرفه قبل ذلك بالاسم ، فلقد سبقته شهرته إلى الأقطار العربية كشاعر ، ومفكر ، وفيلسوف . ولم أكن أعرف عنه غير ذلك ، لأن قصائده ، وأفكاره ، وحكمه ، وعظاته ، كانت كلها باللغة الفارسية أو الأوردية ، فلم يصلنى من معانيها سوى القليل النادر الذى لا يكفى لإعطاء حكم صادق على الرجل ومقدرته ، فذلك يستدعى الإحاطة باتجاهاته ، وبما يرمى إليه من أهداف — فهل كان شاعراً للشعر ، ومفكرا يبغى إبراز جوامع الكلم فى ثوب قشيب يشعر بأدبه وبلاغته فحسب ؟ وهل كان هدفه أن يترك للناس نماذج من حسن البيان يتغنون بها فى الحب أو الوصف ، وفى المديح أو الهجو ، وفى الحماسة أو فى الدعة والسكون ، وفيما إلى ذلك مما ترك لنا رهط من الشعراء الأولين ، أو كان أكثر عمقا وأبعد غورا ؟ لم يكن لدىّ من المعرفة ما يسمح لى أن أحكم عليه ، ولم أكن لأتمكن كذلك من الحكم عليه بمجرد التعارف ، والمحادثة ، وإطراء المعجبين

به ممن عاشروه واستساغوا قليلا ، أو كثيرا من شعره ـ

رأيته ، فوجدته متوسط القامة ليس رابى الجسم ولا ضامره . كان هادئا ، قليل الكلام ، كثير التفكير ، تعلوه سمات العلماء المتواضعين ـ فما ان أتى دوره فى الخطابة وألقى كلمته بالأوردية وبها حديث نبوى شريف ألقاه بالعربية ، وسأتحدث عنه فى كلمتى هذه ـ وفهمت من بعض أصدقائى مغزاها، حتى فهمته هو ، وأهدافه بعض الفهم ، ثم أحببته وشرفت بصداقته ـ

وبعد قليل ، رحلت إلى البلاد الهندية ، وبقيت فيها أربعة أشهر ونصفا ، وحظيت بلقاء هذا الصديق مرة أخرى فى مدينة لاهور الزاهرة، فأخذنا نتحدث فيما يجب أن يعمل للأخذ بناصر فلسطين منكودة الحظ وها أنذا أرجع اليوم إليكم أتلفت يمنة ويسرة للقاء هذا الصديق العظيم ، لأستمتع بأحاديثه العذبة ، وعظاته البالغة فلا أجد له حسا ، وأجد نفسى واقفا ـ والأسى يملأ فؤادى والألم يقض مضاجعى ـ أتحدث فى رثائه ، ورثاء الرجولة والطهر فيه ، وكأن الله جلت قدرته أراد أن يرتفع بهذا الرجل الكريم عن هذه الأرض الفانية التى دنستها الشهوات الوضيعة ، فلا يشهد بعينيه ، ولا يسمع بأذنيه ، ماحلّ بفلسطين من مآس فاجعات .

وإن عزاءنا فيه هو أن روحه الطاهرة تطلّ علينا الآن من جنات الخلد تبارك شعب الباكستان ، وتدعوه لتحقيق آماله فيه وما كان ينادى به فى حياته وما ضحى به فى سبيله من راحته ومن دنياه .

رأيته وصادقته ثم فهمت شيئاً من خبايا نفسه التى بدت فى شعره فعجبت

كيف لهذا الجسم المحدود أن يضم هـذا العقل الجبار والخيال الخصب والثروة الضخمة فى البيان وفى الفلسفة والنفس الثائرة التى لا تعرف هوادة ولا تؤمن بحدود فى سبيل النهوض بالمسلمين وإرشادهم إلى الطريق السوى الذى رسمه الإسلام ؛ وفى سبيل تعريفهم كيف يكون الإيمان وكيف يكون شرف الإسلام وطهره وشهامته ونزاهته وجهاده وتضحياته فى العمل على رفع شأن الفرد وشأن الجماعة .

لقد قرأت عنه كثيراً وسمعت الناس يتغنون بأشعاره فى المذياع وفى مجالسهم العامة والخاصة وأعجبنى منه الكثير وسأعرض على المتكلمين بالعربيـة نماذج معرّبة من شعره لترى كيف أنه فخر العالم الإسلامى كله وأنه ينبغى على البـلاد الإسلامية أن تدرس ما خلفه من ثروة أدبية وفلسفية وأن تخلد ذكره بإنشاء كرسى باسمه فى الجامعات الإسلامية اعترافاً بمـا أسداه للعالم الإسلامى من خير عميم .

ويلوح لى أن فقيـدنا لم يكن يبغى من وراء شعره أن يلعب بالقلوب والأحاسيس لـكنه كان مربيا ماهرا وكان فيلسوفا مؤمنا مجاهدا جعل من نظمه قيثارة توصل حكمة للقلوب فتغذيها وتهذب أذواقها وتهدى العقول إلى الوطنية والـكرامة والإباء والإيمان والقوة والأمل وكان بالأحرى صاحب رسالة أدبيـة إنشائية ووطنية إسلامية فى أرفع مظاهرها .

أود أن أتلو على مسامعكم الحديث النبوى الشريف الذى تلاه فقيدنا العزيز

باللغة العربية فى المؤتمر الإسلامى العام بالقدس الشريف فقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم يقول للمسلمين : « أنا حظكم بين الأنبياء وأنتم حظى بين الأمم » . بيد أن فقيدنا العظيم لم يوجه كلامه هنا للعرب فحسب كما فعل فى الشعر السابق بل وجهه إلى العالم الإسلامى كافة . ونحن إذا نظرنا إلى الشطر الأول من الحديث الشريف حق لنا أن نفخر بالانتساب إلى دين هذا النبى الأمى الذى اختاره ربه خاتما للأنبياء والمرسلين وأنزل عليه قرآنا عربيا مبينا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ قرآنا حول الجاهلين من الوحشية وفساد الخلق وعبادة الأوثان إلى وحدانية الله جل شأنه وطهر نفوسهم من رجس الكفر والضلال ورفعهم إلى أعلى درجات الكمال الإنسانى من القوة والبأس والطهر والإباء والحرية ـ قرآنا سوى بين البشر فلم يعرف تفاوتا بين الأجناس والألوان أو اللغات أو الأوطان بل جعل التقوى والعمل الصالح مدار التفاوت : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

هذا السمو فى المبادئ هو الذى كان ينادى به الفقيد العظيم ، ويذكر به المؤمنين حتى يسيروا على هديه ويفهموا دينهم فهما صحيحا يؤدى بهم إلى أن ينهضوا نهضة عامة من طهارة النفس وقوة الجانب وغزارة المعرفة والعلم فيرتفع شأنهم أمام من لم يعرفوا حقيقة الإسلام ويكونوا خير مثل لخير هدى .

وإذا انتقلنا إلى الشطر الثانى من الحديث النبوى ـ وهو أن المؤمنين حظ النبى بين الأمم ـ لا نجد بدا من أن نتساءل : هل يرضى نبينا صلى الله عليه وسلم

يحظه منا نحن مسلمى الأجيال الحاضرة وبيننا ما بيننا من تنافر وتدابر وتنابذ وفقر وجهل وعزوف عن أوامر الله ونواهيه ؟ وهل هو فى مضجعه الطاهر معتز بنا نخور بحظه منا أو انه يرثى لحال أولئك الذين يلتصقون بدينه اسماً وتشهد عليهم أعمالهم بالزور والبهتان ، ويبرأ إلى خالقه مما يعملون ويقترفون من تبديد أمانة الإسلام المودعة بين أيديهم والمعلقة فى أعناقهم ؟ وهل نحن ـ بالوضع الذى نحن عليه ـ مسلمون حقا أو اننا جناة على الإسلام وغثاء كغثاء السيل وإن أخشى ما أخشاه أن تحل بنا نقمة الله فيعود الإسلام غريبا فى دياره .

أيها المسلمون فى بقاع الأرض كافة إننى أوجه إليكم نفثة مصدور كلمة صريحة لا لبس فيها ولا إبهام ، ألا وهى : أننا باهمالنا لديننا وبالبعد عن مبادئه قد أصبحنا فى حالة من الضعف والانحلال لا يليها إلا الهاوية : فليس لنا علم ولا قوة وليس لنا فى النهاية دين . فانهضوا وتعلموا وتضامنوا واعتبروا بما وقع عليكم وعلى من كان قبلكم من العقاب جزاء وفاقا . اتعظوا بالأندلس وانظروا كيف ضاعت نتيجة الشقاق والأطماع الشخصية والبعد عن مبادئ الدين الحنيف وانظروا إلى محنة فلسطين واجعلوها عبرة العبر ، انظروا إلى مابقى لديكم من تراث وكيف أنكم قد أصبحتم فى مشارق الأرض ومغاربها وفى شمالها وجنوبها فى حالة من الضعف والوهن إن لم نتدارك فيها أنفسنا أضعنا ما بقى لنا من تراث وأصبحنا سخرية العالمين ، وإن عزاءنا الوحيد هو فى رجاء أن تكون تلك اللحظة القائمة من تاريخنا لحظة الظلام الذى يسبق طلوع النهار والضياء المنتشر .

وأما أنت أيها الراحل الكريم فإنك بيننا حيّ لم ترحل ولم تمت « فالميت

ميت الأحياء » لقد رفعك ربك يا إقبال إلى جواره واستجاب لدعائك بخلق الباكستان فلتراقب روحك الطاهرة أعمال المسلمين فى جميع أقطار الأرض . راقب واشهد وأنت بجوار ربك وفى رحمته ورضوانه لترى هؤلاء الأحياء بعدك هم الأموات أو أنهم سيعلمون أن الله سيبدل عسرهم يسرا حين يعدّون العدة ويطيعون الله ورسوله ويغيرون ما بأنفسهم ليغير الله ما بهم ، ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، ومن بعد ضعفهم قوة « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فيحيوا حياة حقة يرضون فيها دينهم ودنياهم .

ألا رحمة الله عليك يا إقبال فقد كتب لك الخلود بعد أن أفنيت جسمك لدينك ولأمتك طيب الله ثراك وأنزلك منازل الصديقين والشهداء والصالحين والسلام على من اتبع الهدى .

(من المحاضرة التى ألقيت فى حفلة الذكرى بلاهور)

شعر إقبال

للأستاذ سيد عبد الواحد مدير الغابات بالباكستان

يقول الشاعر الأكبر محمد إقبال فى قصيدة له إنه انما يتخذ من الشعر وسيلة لهدى الناس إلى السبيل السوى ويدلهم إلى طريق الصواب، فهو يعتقد أن الشعر إذا لم يثر فى الناس الشعور بالصواب والحق لا يؤدى الغرض المتوخى منه ، فالنظم فن كسائر الفنون، غرضه الحقيق هو أن يجعل الحياة غنية جميلة، وإذا أخفق فى هذا فلا فائدة فيه ولا جدوى ثم أن إقبالا يعتقد بأن الفنون إنما تمثل محاولات الإنسان لتفهم حقائق الحياة . وليس من المفروض فى الفنانين أنهم يعدون أنفسهم للإتيان بالمآثر العظيمة لمجرد تسلية الناس والترفيه عنهم بما يبتدعون من ألاعيب فنية ، وإنما أساس فنهم هو الرغبة فى حمل الناس على الاقتناع بتلك الحقائق العظمى التى يؤدى فهمها إلى الترفيه عنهم وإلى ترقية حالهم ، والغرض الرئيسى من فن إقبال الشعرى هو أن يعين قراءه على الكفاح فى الحياة ، ولكى يدرك هذا الغرض كان عليه أن يغنى بنشيد الحياة ، ومما زاد فى متانة شعره وجمال فنه سعة علمه وعظم فهمه، فإننا لنجد فى شعره مزيجا من سلاسة الشعر ووضوح التفكير وعمق الفهم ، صيغت كلها فى قالب منسجم جذاب قل أن يوجد له نظير

فى آداب اللغات الأخرى، نعم ان خياله الفياض قد جعل منه فناناً عظيما ولكنه لم يكن مجرد فنان يهوى الزخرفة والبهرج :

فالواقع أن الحافزين القويين اللذين حفزاه على الأداء الفنى هما إيمانه بقابلية الإنسان على الرقى والتقدم إلى ما لا نهاية لحده واعتقاده بما للإنسان من مقام منقطع النظير فى هذا العالم، وقد أسبغ هذان الحافزان على فنه لوناً جذاباً تهواه النفوس فى جميع أطراف العالم .

ولإقبال شعر كثير بتناول فنونا مختلفة، فقد خلف شعراً فى لغتين (الفارسية والاوردية) وكان يزمع الكتابة بلغة ثالثة لما اختطفته يد القدر ، وماترك بابامن أبواب الشعر الاطرقه إلا الشعر الدراماطيق[1] ، فقد نظم الشعر الغنائى والشعر الفلسفى والشعر القصصى والشعر الوصفى، فكانت قصائده فى جميع هذه الأبواب تقتضى تنوع الموهبة الفنية ، وكذا كانت موهبة إقبال الفنية .

لايتيسر لنا أن نتناول هنا شعره الفلسفى والقصصى، ونظمه فيماوراء الطبيعة، ولكننا سنوجز ذكر أهم قصائده فى هذه الأبواب ، فإن تصنيف أبواب الشعر غالبا ما يكون محض اعتباط وتعسف، وليس من السهل تصنيف شعر إقبال حسب تلك الأبواب وكثيرا ما اختلف الكتاب فى هذا التصنيف فلم تتفق كلمتهم . فقد يعتبر كاتب من الكتاب قصيدة ما من باب الفلسفة فيرى كاتب آخر أنها من باب القصص وهكذا .. ونذكر فيما يلى أشهر قصائده :

١ ـ أسرار خودى ... ... أى أسرار الشخصية .

٢ ـ رموز خودى ... ... أى رموز الشخصية .

(١) التمثيلى .

٣ ـ كلشن زار جديد ... أى روضة الأسرار .

٤ ـ بندكى نامه .. .. أى رسالة العبادة .

٥ ـ جاويد نامه . ...

وتعتبر أكثر القصائد المذكورة أعلاه من باب الشعر الفلسفى ، وربما كان الأصح إدخال بعضها على الأقل فى موضوع ما وراء الطبيعة ، ويجدر بنا ـ ونحن نشير إلى الشعر الفلسفى ـ أن نتذكر أن الناس يميلون عن جميع أضرب الشعر الفلسفى أو قل الشعر المفروض فيه أنه فلسفى ، ولو أن هذا مما يعزى إلى سوء الفهم ، فالواقع أن فيصل التفرقة بين الشعر الوجدانى والشعر الفلسفى قليل طفيف لأن الشعر الفلسفى يصور كالشعر الوجدانى فرط عواطف الشاعر وأحاسيسه ولو بدرجة أقل مما فى هـذا الضرب من الشعر . أما ما يختص بالفلسفة نفسها فلا يستطيع شاعر أن ينظم قصيدة عظيمة فيهـا ما لم يكن له ثمة أساس من العلوم والمعارف ومالم يدرك إدراكا تاما بمبادئها ومقوماتها . وقد قال روشكين الـكاتب الروسى الشهير « إن أعظم فن هو الفن الذى ينقل للمتفرج بأى وسيلة من الوسائل أعظم عدد ممكن من أعظم الأفـكار » . ولـكننا ينبغى أن نتذكر أننا حين نقدر الشعر الفلسفى حقه يترتب علينا أيضا أن نقدر قيم الأفـكار الواردة فيـه إلى جانب جمال النظم وحسن القافية . فالمراد من الشعر الفلسفى هو أن يصب الشاعر أفـكاره الفلسفية فى قالب شعرى يستمده من قرائحه وأحاسيسه . وأول شعر فلسفى نظمه إقبال هو قصيدته « أسرار خودى » وقد أذيعت فى الناس سنة ١٩١٥ ، وتضمنت وصف المبادئ الرئيسية المؤثرة فى تطور

شخصية الإنسان ، فما ان نشرت وترجمت إلى الإنكليزية[١] حتى شاعت فى جميع أطراف العالم . ويقول الأستاذ نيكلسون فى مقدمة ترجمته « إن أسلوب القصيدة الفنى لما يدعو إلى الإعجاب لاسيما إذا علمنا أن اللغة التى نظمت فيها ليست بلغة الناظم ، وقد بذلت غاية ما فى وسعى للاحتفاظ بذلك الأسلوب بالقدر الذى تسمح به الترجمة الحرفية . وإن فى القصيدة الأصلية أبياتا كثيرة من الضرب الذى إذا تلوته مرة علق فى ذهنك ..

وقد وصف إقبال فى « رموز خودى » المبادئ الأساسية التى ينبغى أن يقوم عليها المجتمع الأمثل ، ويتناول فى قصيدة « كاشن زار جديد » المشاكل الروحية الغامضة فيعالجها بالبحث ، إذ يوجه إلى نفسه تسعة أسئلة ثم يجيب عليها واحداً واحداً . أما قصيدته « بندكى نامة » فتتناول شرور العبودية وتهدف إلى إقناع قرائها بالحقيقة الأساسية القائلة بأن شخصية الإنسان لا يمكن أن تتقدم وترتقى إلا فى جو الحرية ، فالعبودية فى أى شكل من الأشكال . وسواء أكانت عبودية سياسية أم عبودية اقتصادية من شأنها أن تحول دون رقى البشر وتقتل فيهم الحوافز التى تدفعهم إلى الابتكار والانشاء ومن نتيجة ذلك أن تدخل فى روح العبيد أفكارا وآراء خاطئة حتى فيما يختص بالفنون الجميلة .

أما قصيدته « جاويد نامة » فهى خيرة قصائده على الإطلاق ، فلم تمض على نشرها بضعة أعوام حتى أصبحت من القصائد الكلاسيكية الخالدة ، وفيها

---

(١) ترجمها الأستاذ آر . أى نيكلسون .

يرافق الشاعر الصوفى العظيم جلال الدين الرومى (الذى يقوم بالنسبة له مقام فرجيل بالنسبة للشاعر دانتى) فيطوف الكواكب والأفلاك ويقابل الشخصيات التاريخية ممن يصورون فى حوارهم الحقائق الأزلية . وتعتبر القصيدة كلها من غرر الشعر الفارسى لما حوته من بلاغة فى التعبير وجمال فى الأسلوب ومتانة فى النظم وغنى فى الوصف ، وعند ما يطوف الشاعر فى المريخ يلتقى بالزعيم المصرى سعيد حليم باشا ، فيأخذ بالمقارنة بين الشرق والغرب ويبين أن خلاص البشر يتوقف على التوفيق بين الحضارتين الغربية والشرقية أو على حد تعبيره بالتوفيق بين العاطفة (أو الحب) والعقل :

فى الغرب : العقل مصدر الحياة
وفى الشرق : الحب قوام الحياة
وبواسطة الحب يحيط العقل بالحقائق
فيعزز شغل الحب
انهضوا وأقيموا دعائم عالم جديد .
بالتوفيق بين العقل والحب

وفى فلك من الأفلاك يلتقى بالشاعر غنى الكشميرى ، فيشير هذا إلى بيع الإنكليز بلاد كشمير إلى مهراجا جولاب سينغ زعيم الدوجرا بثمن بخس لا يتجاوز السبعة الملايين روبية :

إذا مررت يانسيم بجنيف
فاحمل هذه الرسالة منا إلى عصبة الأمم

باعوا الزراع والزرع والأنهار والأشجار
وبالجملة باعوا شعبا بأبخس الأثمان

لا يتسع المجال هنا لذكر جميع ما نظمه إقبال فى باب الفلسفة غير أن من يتأمل فى قصائده وأشعاره فى هذا الباب يجد فيها كثيراً من الخواطر السامية والأفكار الدقيقة والحكم البليغة ، التى قلما توصل الشعراء إلى أمثالها أونظموا فى أشعارهم ما يضارعها .

على أن إقبالا قد اشتهر بشعره الوجدانى (الغنائى) أكثر مما اشتهر بشعره الفلسفى ، ولشعره الوجدانى سحر وموسيقى يأخذان بمجامع القلوب ، ولذا فقد ذاع فى الناس ذيوعا واسع النطاق ، فكلفوا به أكثر مما كلفوا بضروب أشعاره الأخرى والسبب فى ذلك معلوم لا يحتاج إلى بيان . والواقع أن إقبالا وسع مجال الشعر الوجدانى الغنائى (بالنسبة للغتين الفارسية والأوردية) بأن نظم قصائد استحث فيها الناس على السعى فى الحياة والعمل على إدراك السعادة والعيش الهنىء ، مثيراً فيهم الهمم والعزائم ومنددا بأولئك الذين يقعدون عن السعى ويزهدون فى الحياة . فعنده أن الإنسان ينبغى ألا يقعد عن السعى فى الحياة لأن الحياة الحقيقية ما هى إلا آمال متجددة واعتبارات متواصلة وأغراض متعاقبة ، وان نفس هذا التجدد والتواصل والتعاقب لما يجعل النفس تفيض بعواطف وأحاسيس دائمة الاستمرار دائبة الجيشان .

وينبغى لكمال الشعر الوجدانى توافر عاملين: العاطفة الرقيقة المرهفة وإجادة اللغة بالقدر الذى يستطيع فيه الشاعر أن يعبر عن خوالج أحاسيسه الرقيقة

المرهفة. وكان إقبال مرهف الحس مرهف الأذن لاستماع الألحان العذبة والإيقاع المنسجم ، فكان لا يتكلف فى اختيار القوافى والأوزان وإنما يسترسل فيهما استرسالا .

ثم إن لشعره الوجدانى ميزتين تميزانه عن الشعر الوجدانى الذى نظمه غيره من شعراء الأوردية والفارسية ، أولاهما : تصوفه ، وثانيتهما : نظريته فى الجمال والحب. فأما مايختص بالميزة الأولى فإن المعلوم لدى جميع الذين يدرسون الشعر الفارسى أن التصوف هو قوام هذا الشعر (وكذا هو قوام شعر الأوردية إلى حد ما) وقد انقسمت الأفكار الصوفية فى الأدبين الفارسى والأوردى وإلى حد ما فى جميع الآداب الشرقية الأخرى إلى قسمين أو مدرستين وكان الفارق الأساسى بينهما نظرية الوحدة . فالصوفيون المؤمنون بالوحدة زهدوا فى كل شىء وسعوا للاتحاد بالله ، إذ رأوا أن جميع الجهود والمساعى لاتصدر عن ضمير مستقل لأن كل مايصنعه المخلوق من خير أو شر إنما مبعثه فى الحقيقة إرادة الله سبحانه عز وجل ، ويرى الفريق الثانى ـ وهو الذى ينتمى إليه شاعرنا ـ أن للكون والخليقة وجودا حقيقيا إلى جانب وجود الله . وكان لهذه النظرية أثرها فى شعر إقبال إذ مكنته من تصوير عواطف سليمة تروق النفوس السليمة فى جميع بلاد الله . فأكثرية أشعار التصوف والتزهد فى اللغتين الأوردية والفارسية لاتتضمن الوعظ والإرشاد فحسب وإنما تكثر فيها الشكاوى المرة من الزمن وأهله ، أما شعر إقبال فلا يحتوي على شىء من ذلك وإنما ينطق عن عواطف وأحاسيس تبعث على التفاؤل والأمل والرجاء .

أما الميزة الثانيـة فى شعر إقبال الوجدانى فهى نظريته فى الجمال والحب ، فقد كان إقبال يرى الجمال فى كل شىء ، غير أن الجمال الذى راقه أكثر من كل شىء هو جمال القوة والكمال ، فالجمال هو مايراه الذهن لا الصفة الموجودة فى الشىء الجميل ، وضروب الجمال المختلفة تروق أعين ضروب الناس ، ويرى إقبال الجمال فى كل شىء قوى كامل، وقد تركت هذه النظرية الجديدة فى شعره الوجدانى طابعا فريدا تجلت فيه القوة والحياة بأجلى مظاهرهما .

محمد اقبال شاعر الإسلام

ولمحة من تاريخ اللغة الأردية

محاضرة ألقاها الأستاذ الأعظمي أحد المترجمين في مركز جماعة الأخوة الإسلامية بالقاهرة يوم تأبين إقبال ونشرت في عدد جمادى الأولى سنة ١٣٥٨هـ بمجلة الأزهر :

ليس في الناس من يجهل أن الهنود كانوا أسبق الناس إلى الشعر ، والشعر لا يجمل إلا إذا امتزج بالتصوف والحكمة ، وكلها وليدة الهند أيضا . وأقوى دليل على ذلك قول العرب : « الحكمة هندية » . والتصوف في اعتقادي وليد الفلسفة ، وبعبارة أوضح : التصوف هو فلسفة الأديان والعقائد . وإني لا أريد أن أفيض في هذا الموضوع الآن .

كان قبل الإسلام في الهند شعراء وفلاسفة ينظمون الأشعار باللغات الهندية القديمة ، وقد بقيت آثارها إلى الآن ، ويحفظ هذه الأشعار كثير من الهنود ، ولكنها غير مدوّنة في دواوين . وقد دخل الإسلام الهند في القرن الأول الهجري على يد محمد بن قاسم بأمر الوليد ابن عبد الملك الأموي ، فإنه زحف أولاً على بلاد السند ، وجهزه ابن عمه الحجاج بستة آلاف مقاتل ، فحاصر محمد ثغر الديبل ومكانه الآن كراتشي ، واستولى عليه ، ثم واصل الفتح حتى بلغ نهر السند وقتل داهر ملك السند وهزم أتباعه ، وآثرت زوجة داهر وأتباعها

إحراق أنفسهم على الوقوع فى أيدى المسلمين . وزحف المسلمون من السند على بلوجستان وحاصروا ملتان فى جنوب بلاد البنجاب . ومن ذلك الوقت تأثرت اللغة السندية باللغة العربية . وكتابتها إلى اليوم بالعربية . وهذا أول أثر للغة العربية فى اللغات الهندية .

وبعد ذلك حكم المسلمون الهند ، واستمرت دولتهم حوالى خمسمائة سنة ، وآثارها تُظهر إلى الآن عظمة هؤلاء الملوك ، وذلك أنه فى سنة ١٥٠٥ م . فرّ « بابر » أحد زعماء المغول من سلالة تيمورلنك من موطنه الأصلى إلى سمرقند فنزل بها وكثر أتباعه ، ، فدانت له بعد ذلك بلاد أفغانستان ، ثم جاوزها إلى حدود الهند ، فطالب بملك البنجاب متخذا له ذريعة هى أحد أجداده (وهو تيمورلنك) الذى كان قد فتحها منذ مائة وسبع سنين . ومالبث أن والى انتصاراته فى أراضى البنجاب حتى جاوزها إلى ماوراءها ، وكانت بلاد الهند وقتئذ منقسمة على نفسها ، على استعداد لأن ترحب بأى فاتح يكفل لها الهدوء والسلام ولو كان هذا الفاتح أجنبيا لايمتّ إليها بصلة . وظل بابر ردحا من الزمن كان النصر فيه تارة إلى جانبه وأخرى إلى جانب أعدائه من الوطنيين حتى جاء عام ١٥٢٥ م وفيها وقف وجها بوجه مع سلطان دلهى ، أشد ملوك الهند مراسا . وكان ذلك أمام قرية « بانيبت » التى تبعد عشرة أميال عن دهلى ، فانتصر بابر بالرغم من قلة جنده الذى لم يزد على ٢٥ ألفا ، بينما بلغ جيش سلطان دلهى مائة ألف مزوّدين بعدد عظيم من الفيلة لايقل عن ألف . وبانتصار بابر على سلطان دلهى دانت له بلاد الهند الشمالية : وأطلق على نفسه لقب امبراطور الهندوستان.

وبموت بابر (١٥٣٠) وقف تيار الفتوحات المغولية فى الهند زهاء ربع قرن ، ولم يستعد المغول نشاطهم فى الفتح والغزو إلا بعد أن تولى حفيده الأعظم أكبر جلال الدين عرش الأمبراطورية . وكان أكبر خان أعظم ملوك المغول فى الهند ، وتملك كل الهند ، وكان عهده عهد ثقافة ورخاء ، وبقيت امبراطوريتهم إلى أن دخل الإنكليز فى الهند . وتأثرت اللغة الأردية فى عصر أكبر خصوصا وفى عصر ملوك المغول الآخرين عموما ، باللغة الفارسية والتركية ، وتلوّنت بلون جديد ، وانتشرت انتشارا عظيما .

اللغة الأردية:

اللغة الأردية فرع راق من اللغة الهندية الآرية ، وقد تكلم بها أهل الهند فى القرن الرابع الهجرى فى وسط الهند كلغة مستقلة ، وبقيت على هذه الحالة حتى اختارها المسلمون فى القرن السادس لغة واحدة لهم . ولما انتشرت فى « دهلى » وجوارها ، دخلت فيها ألفاظ جديدة ، وتغيرت نوعا ما . وفى القرن نفسه صارت بعد إصلاحها لغة الثقافة . وفى القرن الثامن اختارها الملك أمير خسرُو لغة للحكومة . ومن هذا القرن بدءوا استعمالها فى النظم والنثر . فمن القرن الثامن إلى القرن الثانى عشر الهجرى دونت فيها علوم كثيرة وآداب جمة . وأما الشعراء فنظموا بها أشعارهم من القرن السابع . وفى القرن التاسع استعملها الشعراء الفحول مثل كبير نانك ، وداوسورداس ، ونندداس ، وكوسوانى ، وتلسى داس ، وكانت تسمى إذ ذاك الهندوستانية ، وبعد ذلك دخلت فيها الألفاظ العربية والفارسية والتركية فى كثرة هائلة حتى ظهرت بلباس جديد

واسم جديد فى سنة (١٦١٨) م حين شرع الملك شاه جهان الخامس من أسرة المغول تعمير « لال قلعة » (القلعة الحمراء) التى تم بناؤها بعد عشرين سنة . ويقال: إن جيشه وخدامه كانوا فوق العدّ والحدّ، وهم من جميع الأقوام والبلاد وسكنوا فى معسكر عظيم كان يسمى (أردو) ، ومعناه بالتركية الجيش . وكان فى جوار هذا الجيش سوق يسمى «أردوبازار» (سوق العسكر) ، فكل هؤلاء من الهنود والفرس والأتراك والعرب تنافسوا فى إدخال لغاتهم فى هذه اللغة ، فامتزجت فيها ألفاظ منتخبة من العربيـة والفارسية والهندية الآرية والتركية ، وصارت زبدة اللغات الشرقية ، فيها لطافة الفارسية ، وبلاغة العربية ، وعمق الهندية ، وحماسة التركية ، حتى صارت لغة جديدة ، وسميت « أردو »، لأنها تجددت فى السوق المذكور ، وبقى هذا الاسم إلى قرننا العشرين . ولكن منذ سنة فقط بعد استقلال الهنود استقلالهم الداخلى وتشكيل الوزارات الهندية سميت مرة ثانية « اللغة الهندوستانية » لأنها قُررت لغـة للحكومة . والألفاظ العربية فيها تقارب نصفها ، والفارسية تقارب ربعها ، والباقى من الهندية الآرية والتركية ، ودخل فيها شىء من الإنكليزية منذ دخول الإنكليز فى الهند. ولهذه اللغة كتب مدونة فى النحو والصرف والقواعد والبلاغة. ومن أكبر محاسنها أننا نستطيع أن ندخل فيها ألفاظا من أية لغـة على هيئتها . وهى الآن أكثر انتشارا من اللغة العربية والفارسية والتركية ، لأن عدد الذين يتكلمون بها يبلغ ثلثمائة مليون فى الهند ، ويفهمها أكثر من أربعمائة مليون . وهى تدرس تقريبا فى كل العالم ، وعدد حروف هجائها واحد وخمسون حرفا .

المقاربه بين الأشعار الأردية والعربية :

افتخر الفرس على سائر العالم بستين ألف بيت نظمها الفردوسى فى شهامته، ولكنهم تجاهلوا أنه ألفت فى الهند دواوين بهذا الحجم فى الأفكار فقط . ونظم مهرة الفن مثل أنيس ودبير وتعشّق وغيرهم مئات من المراثى ، وفى كل مرثية خمسمائة وستمائة مسدس، وكل مسدس ثلاثة أبيات. وألفت كتب متعددة فى نقد أشعارهم من الشرقيين والمستشرقين . ونحن لا نجد لهم نظيرا فى غيرهم . وعلماء الفنون الحربية متحيرون كيف قدر هؤلاء على نظم نكات غامضة من فنون الحرب بعبارة بديعة طريفة مع أنهم لم يخرجوا من منازلهم .

ومن أهم موضوعات اللغة الأردية ، الأوصاف الجميلة، والفلسفة والتصوف، والتخيل والمراثى، والغزل والقصة، والمدح ، وغيرها . وبعض شعرائها الماهرين جمعوا دواوين على ألسنة النساء وفى أفكارهن، ولا يمكن أن يعرف القارئ أنها للرجال. وممن يذكر من هؤلاء الشعراء من المتأخرين « سودا ، غالب ، ذوق ، مير، أنيس ، دبير، آتش ، مؤمن، ظفر ، تعشق، داغ ، نفيس، أكبر ، حالى، إقبال » وغيرهم . ومن المعاصرين « آرزو ، حسرت ، سيماب، جليل (أستاذ نظام حيدر آباد) أمجد، ظفر على ، سالك، صفى ، جوش، أثر ، عزيز، وحشت ، محشر ، جغر ، » وغيرهم .

وأهم سبب لانتشار الشعر فى الهند هو المشاعرة : أى المطارحة بالشعر ، وهى أكبر دعاية لنشر هذه اللغة أيضا . فمنذ بدئها إلى يومنا هذا يحتفل الشعراء

بالمشاعرة ويشكلون لأجلها الأحزاب ، ويسمونها « بزم » حتى لا تجد قرية إلا وبها هذه الجماعات ، ينافس بعضها بعضا فى الشهرة والتقدم ، وتقدم الجوائز القيمة للسبق فى مبارياتها ، فتجد الإعلانات المتنوعة فى أكثر الجرائد الهندية لهذه المشاعرات الطريفة كإعلانات الرياضة والألعاب فى الجرائد المصرية. والهنود يشتركون فيها أكثر مما يشترك إخواننا المصريون فى الألعاب والرياضة البدنية. وطريق مبارياتها أن شاعرا منهم مشهوراً يقدّم شطراً لبيت مع شروط، وينشره فى الإعلانات والجرائد ، ويرسله أيضا إلى الشعراء المعروفين بتحديد ميقات الاحتفال ، فكل من يريد الاشتراك فى هذه المباراة من كل نواحى الهند ينظم أشعارا حسب ذوقه وطبعه مراعيا الشروط ، ويحضر يوم المشاعرة ، ويسمع الناس نظمه بصوته الجذاب، ولهجته الخلابة، والذى لايستطيع الحضور لأمر ما يرسل نظمه إلى سكرتير الجماعة ليسمعه أحد الحاضرين باسم الشاعر ، حتى مثل إقبال وغالب وذوق وأنيس : أولئك الشعراء العظام ، كانوا يشتركون فى هذه الحفلات ويُسمعون الحاضرين أشعارهم، وكنت أشترك بنفسى فيها ، وما كنت أقوم منها طول الليل إلا قرب طلوع الشمس ، وكنت أعدها أحب الليالى إلىّ وهذه الجماعات أنواع ، فبعضها للأطفال ، وبعضها للشبان ، وبعضها للشيوخ، وبعضها للنساء . وإذا نظرت إلى كثرة الشعر والشعراء فى الهند اعتقدت أن أرض الهند كلها شعر ، فالأطفال من سن الثامنة ينظمون القصائد ، ولذا انتشر فى الهند مجلات وجرائد خاصة لنشر نتائج المطارحة ، وتجد أكبر عدد للشعراء فى العالم فى الهند ، وتؤلف فيها كل يوم دواوين متعددة فى المواضيع الطريفة

المتنوعة . ومعظم سلاطين الهند وحكامها وزعمائها شعراء ، ولهم دواوين ، ورئيسهم فى هـذا الفن نظام حيدر آباد ملك الدكن والبرار ، ويسمى سلطان العلوم ، وله دواوين الشعر كما لأبنائه دواوين . وهذا الفن خاص بالهنود .

وسبب آخر لانتشار الشعر فى الهند : هو أنه لا توجد فى اللغـة الأردية لغة عامية كسائر اللغات ، بل لغة التخاطب والـكتابة فى الهند واحدة ، والهنود يتكلمون بها حسب قواعدها ، وتختلف باختـلاف الشعوب عمقا وسذاجة . فظهر من هذا أن للشعر مكانة خاصة فى أرض الهند .

ومكانة السير إقبال بين هؤلاء الشعراء العظام ، كمـكانة الشمس بين النجوم المتلألئة ، أو كمقام الملك بين أمراء بلاده . فإذا قرأت شعره تأثرت به تأثرا عظيما كأنك ألهمت شيئا كنت تجهله وهو كان بين يدى خيالك ، فإن الشاعر لا يأتى بشىء مستحيل بل يأتى بشىء ممكن ولـكن يعسر على غيره الإتيان به ، وإذا لم يكن الشعر هكذا فليس بشعر ، بل هو نظم قد رتب الناظم ألفاظاً ظريفة على طريق بديع وسماها شعراً . وإنى شخصياً لا أطرب لأشعار الشعراء المعروفين طربى من أشعار السير إقبال ، فـكلما تلوتها شعرت كأننى أقرأ شيئا جديدا ، لأننى أجد فيها روحا وقوة لا أجدهما فى أشعار غيره ، وكـلكم تعرفون أن روح الشعر تزول بعد الترجمة من لغة إلى لغة إلا إذا كان الشاعر رسول فلسفة أو حكمة أو شىء جديد غير معروف قبله ، فإنـكم حينئذ لتشعرون شيئا جديدا من الروح الجديدة فى أشعار هذا الشاعر بعد زوال أكثرها .

وإنى أحاول الآن أن أعرض على حضراتـكم صورة إجماليـة لألمعية إقبال

التى اتخذ شعره منبرا لها وترجمانا عنها فى هذه القصيدة، عنوانها «طلوع إسلام» ثم أقدم إليكم بعد ذلك أبياتا مختلفة أتقدم بها كنموذج من شعره ، وسأترجمها إليكم الآن نثرا . وهاهى قصيدة « طلوع إسلام » :

«العين التى تعودت أن تنظر إلى عظيم من الأشياء لا تهتم بصغيرها، والعين المتطلعة إلى الفرسان والغزاة لا تهتم بالنظر إلى ما يكون فى الركاب من زينة .

« أنر أيها المسلم فى ضمير « زهرة لاله »[1] سراج الرجا والأمل ، واجعل كل ذرة فى بستان العالم شهيدة البحث والاكتشاف .

أنت يد قدرة الله أيها المسلم وأنت لسانها . فهيا اخلق يقين الهمة ولاتعش أسير الأوهام .

« إن الدنيا تفنى ولكنك أعظم خلودا من الدنيا ، لك مجد الأزل ، ولك نعيم الأبد أيضا ، وأنت الرسالة الأخيرة لله لذلك أنت موصول الدوام .

«اقرأ مرة أخرى فى سيرتك الأولى ، دروس الصدق والعدل والشجاعة ، لأنك أنت المنشود لتسود العالم مرة ثانية .

« فهـذه هى مقاصد الفطرة الأولى ورمز الإسلام الحقيق أن تملك العالم بالأخوة وتحكمه بالمحبة .

«يجب أن تفنى فى دينك وملتك بعد أن تكسر أصنام اللون والدم حتى لا يبقى فى العالم تورانى ولا إيرانى ولا أفغانى .

« ما الذى محا استبداد قيصر وشدة كسرى ؟ أكانت هنالك قوة فى العالم كانت تحاب الجبابرة سوى قوة على ، وفقر أبى ذر ، وصدق سلمان ؟

---

(١) شقائق النعمان .

« عند ما ينبعث فى هذه الشرارة الترابية روح اليقين ، فإنها تطير إلى سماء المجد بجناح جبريل الأمين .

« لاتفيد السيوف ولا التدابير إذا سيطرت العبودية والاستكانة ، ولكن إذا وجد اليقين فهناك تتحطم السلاسل والأغلال .

« هل يستطيع أحد أن يقيس مبلغ قوة ساعد المسلم ؟ إن نظرة المؤمن تبدل الأقدار .

« إن الولاية والحكومة واكتشاف علوم الكائنات ليست إلا تفسيراً لنكتة من نكات الإيمان .

« ولكن من العسير أن يخلق فى النفوس إيمان إبراهيم ، فإن عوامل الحرص والخوف مستترة فى الصدور لتخلق الصور والتماثيل .

« إن امتياز السيد والعبد هلاك الإنسانية ، فاحذروا أيها الجبابرة الأقوياء لأن فطرة العالم تتبدل وتتغير ولا تبقى الحياة على الحال .

« إن حقائق الأشياء واحدة متساوية ، فالذى خلق من تراب كالذى خلق من نور ، ولو شققنا قلب الذرة لتقطر منها دم الشمس .

« إن سيوف الأبطال فى جهاد الحياة هى اليقين المحكم والعمل المستمر . إن الذين ارتفعوا من أسلافكم كالنسور والعقبان ، لم يكن لهم ريش ولاجناح ؛ والذين طلعوا نجوما فى السماء قد غرقوا أولا فى دم الشفق ، والذين كانوا يسبحون فى هدوء البحر دفنوا فى قاعه السحيق . وأما الذين كانوا يصارعون لطمات الأمواج فقد خرجوا إلى الدنيا بعد أن صاروا يواقيت .

« الذين كانوا يفتخرون بكيمياء الذهب صاروا غبارا فى ممر الطريق . والذين كانوا يضعون جباههم على التراب هم الذين صاروا يصنعون الكيمياء .

« إن المؤمن يعيش حيا كالشمس يغرب فى جهة ليشرق فى جهة أخرى ، فهو دائم الإشراق والحياة ، لا يغيب .

« أنت أيها المؤمن سرّ « كن فيكون » فاظهر على العيون وكن عارفا لأسرار حقيقتك وترجمانا لقدرة ربك .

« واستغرق فى ذاتك فهذا هو سر الحياة ، وصر خالداً بعد أن تخرج من حلقة الصباح والمساء .

« إلى اليوم لا يزال الإنسان شرّ فريسة لصيد الحكام ، وإنها لقيامة كبرى أن يبقى الإنسان فريسة الإنسان .

« ولم يخلق هذا الهيكل الترابى فى أول فطرته من تراب الجحيم ولا من تبر الرضوان ، ولكن الحياة تخلق بالعمل ، كذلك الجحيم وكذلك الجنة » .

الفقر والعلم فى تصوف إقبال :

« معجزات الفقر هى التاج والعرش والجنود ، والفقر هو أمير الأمراء ، والفقر هو ملك الملوك .

« ومقصود العلم نزاهة العقل والفهم ، ومقصود الفقر عفة القلب والنظر .

« العلم فقيه وحكيم ، والفقر مسيح وكليم ، والعلم طالب الطريق ، والفقر عارف الطريق ، والفقر مقام النظر ، والعلم مقام الخبر . السكر بالفقر ثواب ، ولكن السكر فى العلم ذنب وعذاب . لو كان قلبك فى هذا التراب حيا ومستيقظا لكسر نظرك زجاج الشمس والقمر » .

قصيدة

لصاحب السعادة السيد عبد الحميد الخطيب

سفير المملكة العربية السعودية فى الباكستان

بعد مطالعة كتاب الحياة والموت فى فلسفة إقبال

أنعم بفلسفة إقبال مصدرها ... تبدى الحقيقة فى أجلى معانيها

عن الحياة وعن موت به انهلعت ... كل القلوب وحدت من أمانيها

وجاء إقبال يدعوها لمعرفة ... تزيل عنها الأسى حقا وتهديها

وتبعث الأمل المسول فى أمم ... كانت تظن بأن الموت يرديها

بما يردد من شعر يذكر بالا ... أخرى ويثبت أن الخير ما فيها

ويجذب الناس للتوحيد فى صور ... شتى تأذى بها من ليس يدريها

وأعجب الكل منها عندما سمعوا ... من الإجابة ما يبدى خوافيها

وساهم (الأعظمى) فى نشر فكرته ... بحسن ترجمة أبدت مرانيها

وصاغ (شعلان) هذا منه فى درر ... من القريض اللآلى لا تدانيها

فجاء سفرا جليل القدر من (حسن) ... به استطال على أقرانه تيها

فليس بدعا إذا حيّ فصاحته ... عبد الحميد خطيبا بات يطريها

ثم الصلاة على من كان قدوتنا ... فى كل هذا وراعى الناس هاديها

وشرعه النور يمحو كل وسوسة ... مما يزينه الشيطان تمويها

عبد الحميد الخطيب

قصيـــدة

لمعـالى محمد باشا الشريق

بعد مطالعة كتاب الحياة والموت فى فلسفة إقبال

أَعْظِمْ بسِفْرٍ نفيس ... للأعظميّ الهمامِ
يبدو كأفقٍ جميـلٍ ... للوحى والإلهامِ
« إقبال » فيـه تجلى ... بدر العـــلا والتمامِ
بل بَنْدَ حقٍّ ونصرٍ ... فى مَوْكبِ الأعلامِ
مَسْماه بعثٌ جديد ... لعزة الإســـلامِ
يا أعظميُّ تقبّـل ... شكرى وطيب سَلامى
«إقبالُ» إن صار جسما ... إلى ظلام الرَّغامِ
فشمسُه ما توارت ... بل لم تزل فى ضِرامِ
مشاعر الشعر منها ... تنير سُبْلَ الأنام

محمد الشريق

الكتاب الثالث
في الثقافة الإسلامية
في الهند والباكستان

أحسن السير

للعلامة الكبير والمؤرخ الشهير شبلى نعمانى

إن هذه الدنيا قد مرت عليها غيرٌ وأدوار ؛ وامتلأ سجلُّها بحوادث وانقلابات بهرت الأنظار ، وغيرت وجهَ المسكونةِ من الظلماتِ إلى الأنوار ؛ ولكن لم تكن الدنيا أنجبت ذلك اليومَ الذى كان التاريخُ ينتظرُه منذملايين السنين . ولم يكن قد طلعَ ذلك اليومُ الذى كان الكونُ منذ الأزل يتطلعُ إليه بالأشواق . وكُرة الأرض بليلها ونهارها متلهفةٌ على ذلك الإشراق . ان جميع المُقدَّرات والعناصر . الشمس التى تنثرُ الذهب الوهاج من الأضواء ، والقمرُ الذى يسكُب الأشعة الفضية باهرة اللألاء . والريح التى تهبُّ بالأنوار، والأمطار التى ترسلها السحائب المتراكمة والديمُ الوطفاء . والنفثات العلوية التى كانت تنبعث جلوتُها من السماء ، التوحيد الذى ارتفع به نداء إبراهيم وجمال يوسف الذى قيل فيه (إنْ هٰذَا إلّا مَلَكٌ كَرِيم) والمعجزات التى أسفرت عنها رسالة موسى الكليم ؛ كل هذه الآيات كانت فى موكب القدر لانتظار منار الكونين وإمام أئمة الثقلين محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم .

إن ظهور ذلك النور القدسى كان صباحا للصباح ونفخةً جديدة فى كيان الحياة البشرية يتجدد بهامولد الأرواح . قال المؤرخون إنه عندما آذنت الأقدار

بمولد الرسول المختار هوي إلى الثرى أربعة عشر من الأعمدة فى إيوان كسرى وأطفئت نيران المجوس وأصبح مكانها الغبار المتلاشى فى بيت النار وغاضت بحيرة ساوى والحقيقة أعظم من ذلك أثرا وأجل خطرا، فقد تهدم الإيوان ليتهدم فى إثره الظلم والطغيان وينمحى عسف الأكاسرة وسطوة بيزنطة وعظمة الصين ولم يكن الذى انطفأ ذلك اللهيب المحتدم فى بيت نار المجوس ولكنها نيران الشرك والإلحاد يطفئها الله من العالم ليشرق مكانها نور التوحيد سيد ولد آدم وغاضت بحيرة ساوى لتكون نذيرا بأن قد دقت ساعة النهاية للشرك حيث تفيض أمواج الكفر فى جميع البلاد فلا تبقى سيطرة الوثنية ولا تحكم الزردشتية ولا صولة الاعتقادات الخرافية .

فى هذا المولد ولد التوحيد وانفتح أمام الدنيا باب السعادة من جديد وطلعت شمس الهداية لتكشف أمام العالم نهج الحياة الرشيد وامتد ظل الجنة فى صورة أخلاق وفضائل وانعكست أنوار السماء فى آداب وشمائل عند ما ظهر الدر اليتيم من بيت عبدالله والكوكب المولود فى زاوية آمنة والكنز المستتر من شعاب مكة، القمر الأوحد فى البوادى والحواضر والجوهر الفرد فى اليواقيت والجواهر محمد المصطفى سيد الثقلين فى الأوائل والأواخر .

والآن نحاول فى إيجاز أن نتناول بعض صفات نبينا العظيم تلك الصفات التى رفعته فوق كل مستوى وسمت به فوق كل مقام، إن نبينا الأعظم قد غرس دوحة الإصلاح البشرى وتعهد هذه الدوحة المباركة الفرعاء ونشر دين الله باهر الضياء وفى حياته عم ذلك النور فى الأحياء وأصبحت قلوب البشرية مرآة لنور محمد سيد الأنبياء .

إن التوفيق العظيم الذى حققه محمد فى حياته والنصر المبين الذى أحرزه فى وجوده والثمار القدسية التى شاهدها من غرسه كل أولئك من المزايا التى لم تكن تتاح لأحد من المصلحين وهى دلائل فضله على جميع الأنبياء والمرسلين. إن الفلاسفة المصلحين من بوذا وزردشت وأفلاطون وحتى أصحاب المبادئ العليا والشرائع القدسية كانوا يريدون فى حياتهم أن يجنوا ثمار إصلاحاتهم وأن يجدوا أنوار مبادئهم ساطعة فى أممهم وشعوبهم ولكن الأقدار نقلتهم من هذه الدار وبقيت اصلاحاتهم إما فى يد أتباع يحرفون الكلم عن مواضعه أو تحت رحمة حكومات جائرة.

كان ظهور شريعة موسى على يد يوشع وانتشار مذهب بوذا على يد آسوقا وذيوع الزردشتية بتشجيع دارا وقيام المسيحية بمناصرة قسطنطين أما نبينا الأعظم فقد بنى القواعد المحكمة ورفع الأركان القدسية وأقام الدين الذى لا يحتاج إلى عطف حاكم أو يخشى من سطوة جبار لأن منزله جبار السموات والأرض ومالك الملك والملكوت ... القرآن والدين تعهد بحفظهما منزلهما «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون».

حيثما كان المتحدث عن نبينا العظيم صديقا أو خصما فلا محيص له من الاعتراف الذى سجلته دائرة المعارف البريطانية بقلم البروفيسير نولديكى مع كونه مغرضا متحيزا قال «إن أعظم شخصية دينية أدركت من الفوز والتوفيق ما لم يبلغه سواها ليست سوى شخصية النبى محمد». لم يصادف مجدد ولا مصلح فى حياته ذلك المحيط الذى بدأ محمد فيه رسالته. وبدأ يرفع منه المصابيح لإنارة الدنيا المظلمة. فى أى أفق

أشرق هـذا النور ؟ أكانت ثمة حكومات منظمة أو مدنية ذائعة أو صناعات معروفة أو كتب متداولة أو مدارس تنتظر طلابها أو كان هناك تساند قوى أو تعاون ملّى أو نظام قانونى ، لم يكن هنالك سوى ما تمليه الفطرة من الشعر وما توحى به مناطق الصحراء وتقلبات الطبيعة فيها من أخيلة تتردد فى القصائد والأراجيز .

وقد دخلت اليهودية إلى أرض العرب فلم تصنع شيئا سوى ما يعلم الناس ودخلت المسيحية أيضا إلى الجزيرة ولم يكتب لها ولا لغيرها أن تجمع شمل العشائر التى كان يضرب بعضها رقاب بعض فى سبيل التفاخر والتكاثر وحب السيطرة والانتصار حتى إذا جاء محمد برسالته السماوية أصلح فى ربع قرن من الزمان ماعجزت عنه القرون والأزمان . وفى تلك الحياة المائجة المضطربة تحولت الوثنية المظلمة إلى توحيد مشرق منير وبعد التناحر والإغارات تجمعت القلوب تحت راية واحدة من تلك البيئات التى كانت لا تنام بها العين لحظة واحدة إلا فى لهيب مستمر مستعر تحترق فيه القبائل ، حيث لا يوجد ثمة قانون ولا مسؤلية محدودة . من تلك الآفاق خرج الأئمة الهداة الذين تنبض قلوبهم بإيمان أصيل وتغلى دماؤهم بكل غرض نبيل ، أفى الأمس القريب جاهلية جهلاء وتردٍ اجتماعى فى الخصومة والجفاء ، وفى اليوم التالى تظهر معجزة محمدية فإذا بالجهالة عرفان وإذا بالمخاوف أمن وإيمان وإذا بهم يظهرون على الدنيا أنواراً ساطعة ويحملون مشاعل الحق إلى الجهات الأربع . مَن غير نبى الله حوّل تلك النفوس المستعصية والقلوب النافرة والأيدى الباطشة المغيرة ، فجعلها بين يوم وليلة تدين بالخشوع لقهار السموات والأرض وتلقى الجباه على الثرى مكبرة خاشعة لله حتى تحوّلت

أيامهم ولياليهم إلى مواسم طاعات كأن أجسامهم فى الأرض وأرواحهم فى السماء.

لم يكن رقى المسلمين قاصراً على ما يصلح الروح والأخلاق فقد امتد أيضا إلى الرفعة الدنيوية فى جميع الآفاق .. فى السياسة والعلم وإدارة الأمور فى الميادين وفى مواكب الفتوح تؤيدهم فيها الملائكة والروح لأن الرسالة المحمدية مجهر يكشف عن جميع القوى الكامنة فى الإنسان ويرقى به حتى يسخر جميع الأكوان .

إن قافلة الإسلام لم تقف رحلها عند جزيرة العرب بل تخطت الحواجز والحدود لأن الإسلام لم ينزله الله لقوم ولا لجنس ولا لجيل بل لجميع الأجيال والعصور . والإسلام دين جميع الأمم وقلب محمد صلى الله عليه وسلم يحتضن جميع العالم لأنه رحمة للعالمين .

كانت رسالة كل رسول فى دائرة قومه كما أرسل عيسى عليه السلام فى بنى إسرائيل . أما محمد فقد جاء ليمحو الفوارق الجنسية والحدود الإقليمية والتعصبات الجغرافية ويركز بنيان شريعة كاملة تنتظم أجيال البشرية وتوحدها فى توحيد رب البرية . وإذا كان المرسلون صلوات الله عليهم شكلوا جماعات قوامها أفراد فى الأمم التى بعثوا فيها فإن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء لتشكيل الأمم كلها فى قالب التوحيد لله والإخاء فى عدالة شريعته وهكذا جمع محمد فضائل الأنبياء والمرسلين ففيه صبر نوح وقوته ووفاء الخليل ومودته ومعجزات الكليم وشدته وثبات يوسف وحكمته وهمة سليمان وشجاعته وبساطة يحيى ووداعته وحلم عيسى ورحمته .

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

عائشة أم المؤمنين

بقلم العالم الهندى المحقق السيد سليمان الندوى

مقدمة :

لا يكاد الكثيرون يعلمون أن فى الباكستان والهند اليوم نهضة إسلامية، يقوم برسالتها جهابذة من العلماء والكتاب ، وتستولى علينا الدهشة لو عرفنا أن جملة كتب الأحاديث النبوية لا توجد كاملة الطبع وافرة الشروح فى أى بلد إسلامى كما هي اليوم فى الباكستان والهند ، فهنالك دار الحديث وبها نسخة لجامع الترمذى بخط المصنف ، ومن بين هؤلاء العلماء العلامة « السيد سليمان الندوى » من أكابر المصلحين ننشر له هذا الحديث عن أم المؤمنين عائشة ، وله مقال تاريخى هام يتعلق بموضوع الشجاعة والبطولة فى الفضليات من نساء الإسلام فى العرب والترك والهند ومقال عن حكمة التكرار فى آيات القرآن الكريم .

وإلى القارئ هذا الحديث الذى لا ننشره للتعريف بعائشة ، بل ليعلم من فى مصر والشرق ، مبلغ اهتمام إخوانهم المسلمين بتراثهم وتاريخهم . ما؟

عائشة أم المؤمنين

قد بلغت رضى الله عنها أسمى درجة ارتقت إليها المرأة فى مقام الصحبة النبوية ، وقد أردنا أن نفرد لمقامها فى العلم والاجتهاد سفرا مستقلا ، ولكننا اليوم نجتزئ بهذا الحديث ، على سبيل المثال .

هى عائشة اسما وأم عبد الله كنية ، والصديقة لقبا ، وأم المؤمنين خطابا ، والدها هو عبد الله أبو بكر الصديق ، ووالدتها أم رومان، أما سلسلة نسبها من جهة أبيها فهى عائشة بنت أبى بكر الصديق بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمر ابن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك . أما نسبها من قبل أمها فهى عائشة بنت أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذينة بن سبيع بن دهمان بن حارث بن غنم بن مالك بن كنانة. وبالنظر إلى النسبين نعلم أنها قرشية تيمية من نسب أبيها ، وكنانية من نسب أمها.

تتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجد السابع والثامن من جهة ، وبالجد الحادى عشر والثانى عشر من جهة أخرى . توفى والدها رضى الله عنها فى العام الثالث عشر بعد الهجرة ، كما توفيت أمها فى السنة السادسة ، ويرى بعض المؤرخين أن وفاتها كانت فى السنة الرابعة أو الخامسة ، وليس بصحيح، فإن صحاح الأحاديث تثبت لنا أن أم رومان كانت ماتزال على قيد الحياة فى حادثة الإفك التى وقعت فى السنة السادسة ، وقد شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تشييعها إلى قبرها ، ودعا لها بالمغفرة ، وبشرها بالجنة . « راجع أسد الغابة ج ٥ ص ٥٨٣ » .

ولادتها وطفولتها

تزوجت أم رومان أول أمرها من عبد الله الأزدى ، ثم تزوجت بعد وفاته من أبى بكر ، فأنجب منها عبد الرحمن وعائشة .

وأكثر كتب التاريخ والسير تقف من مولدها موقف الصمت عن التحديد الصحيح . وذكر ابن سعد أنها ولدت فى أوائل السنة الرابعة من البعثة وعقد لها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العاشرة ، حين كان عمرها ست سنين « انظر طبقات النساء لابن سعد ج ١ » .

لكن هذا ليس بوجيه ، فلو سلمنا بهذا لم يكن زواجها من رسول الله إلا وهى بنت سبع سنين ، وعليه يكون عمرها عند انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى عشرين ، مع أن الذى عليه معظم جهابذة المؤرخين أن عمرها إذ ذاك لا يتجاوز الثامنة عشرة ، كما أجمعوا على أنها رضى الله عنها لقيت ربها سنة ٥٨ هجرية حين بلغت الثالثة والستين من عمرها ، وبهذا التحقيق يتبين أنها ولدت فى أواخر السنة الخامسة من البعثة .

وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم من البعثة إلى الوفاة ثلاثا وعشرين عاما ، منها ١٣ فى مكة وعشرة بالمدينة ، وقد مر أربع سنوات وبعض الخامسة قبل أن تولد عائشة ، وكان أبواها قد أسلما ، وإذاً فقد ولدت عائشة بعد أن ذهبت ظلمات الشرك من بيتها وأشرق عليه الإسلام بنوره الوهاج ، كما تحدثنا هى بذلك رضى الله عنها ، فيما يعلم من رواية البخارى .

وقد جرت سنن الله فى المختارين من الخلق أن ينشأوا فى هذه الدنيا على أسلوب سام مجيد ، ويسيرون فى الناس على نهج من الصلاحية والنمو يعلو بهم إلى مستوى رفيع من العبقرية التى تسترق من حولهم الألباب ، وتكسبهم عند ذويهم التجلة والإعجاب ، فهم حتى فى عهد صباهم تنم مخايلهم عن شمائل عالية ومواهب تفوق النجم ارتفاعا ، والشمس إشعاعا ، ومن هؤلاء بلا شك عائشة أم المؤمنين ، فقد لاحت عليها منذ صغرها دلائل النجابة ، ومخايل السعادة ، وأمارات السمو على أقرانها ، والامتياز على أترابها ، ذكاء وفطنة وحسن سيرة ، كانت راقية حتى فى سرعة النمو وعظم القامة والقيمة !

إن الخالق الأزلى قد اصطفاها ورشحها لأعلى منصب : فى المجد ، وذلك المنصب أن تكون أم المؤمنين ، فهو الذي صاغها فى القالب الممتاز من الصفات العالية التى تؤهلها لمعاشرة أعظم نبى ، وبالأمومة لخير أمة أخرجت للناس .

وإذا سمعنا بأن الصبايا والطفلات كن يجتمعن فى بيت عائشة كثيرا فلأن أم المؤمنين تزوجت حديثة السن ، ولأنها طبعت على السجايا الكريمة ، وعلى الوداعة التى تنشدها الطفولة لتأنس بها فى كل مكان ، وإذا كانت هى أيضا تلاعب الصغار ، وتحبو الأطفال ، بما جبلت عليه من ظرف ومؤانسة ، فقد كانت أصدق الجميع إلى رعاية مقام الرسول الأعظم ، والقيام بما ينبغى لشأنه الأعلى من حرمة وإجلال .

كثيرا ماقدم صلى الله عليه وسلم وهى تلاعب هذه الأزهار البشرية ، فتنهض للقائه بينما يتفرق الأطفال ، ولما كان صلوات الله عليه هو الرؤوف الرحيم

المصلح لجميع الأمم ، فقد كان يسكب حنانه البار على أولئك الصغار ، ويدعوها لمداعبتهم .

وكان يحبب إليها من مشاهدة الألعاب بعض الأنواع المعروفة ، بينما كانت تلعب ذات مرة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألها عن شيء مما كانت تلعب به ، فقالت له : هـذا حصان ، وكانت قد صنعت له أجنحة ، فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : إن الحصان ليست له أجنحة ، فقالت : كانت الأجنحة لخيل سليمان : « هذه الواقعة التى تروى بمعناها ربما كانت قبل تحريم التصوير » فابتسم النبي صلى الله عليه وسلم لهـذا الجواب السديد ، ولما فيه من سرعة البديهة وحدة الذكاء . « راجع مشكاة المصابيح » .

ونحن نرى الأطفال فى كل عصر وجيـل ، لا يستطيعون أن يغوصوا إلى الأغوار العميقة فى الخيـال والتفكير إلا فى سن معين ، ولـكن عائشة كانت طفولتها تدل على أنها فوق الفطرة الإنسانية ، ومستوى الطبيعة البشرية ، فهى فى مدرج طفولتها ، ومنـذ نعومة أظفارها ، تذكر الوقائع ، وتحفظ الآيات ، وتستدل بها على جزئيات الأشياء ، تحدثنا أن آية : (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) نزلت واللعبة فى حجرها . « انظر البخارى ج ٢ » .

زواجها رضى الله عنها

الزوج الأولى لرسول الله صلى الله عليـه وسلم هى خديجة بنت خويلد ، وكانت سنه حين تزوجها خمساوعشرين ، وكانت سنها أربعين ، وبقيت معه خمسة

وعشرين عاما وفى رمضان من السنة العاشرة من البعثة وقبل ثلاث سنوات من الهجرة لحقت بربها ، وسنه عليه السلام إذ ذاك خمسون عاما ، وقد توفيت فى الخامسة والستين من عمرها ، وخدمات خديجة فى رفعة الإسلام ، ومؤازرتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأزمات الصعاب ، جعلت وفاتها أمراً صعبا ، والحياة أمامها مريرة. «تأمل طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٤١» وطالما فكر الصحابة معه طويلا فى هذه المحنة .

وقد جاءت خولة زوج عثمان بن مظعون أحد مشاهير الصحابة المتوفى سنة ٢ هجرية ، قالت له : لم لا تتزوج ؟ فقال عليه السلام : وممن ؟ قالت له : من الثيبات أو الأبكار ، فقال ومن تعنين ؟ قالت : أما الثيب فسودة بنت زمعة ، وأما البكر فبنت أبى بكر ، فاستحسن رسول الله رأيها ، ومضت إلى أم رومان وأبى بكر تحمل إليهما بشرى السعادة من الرغبة النبوية فى هذه المصاهرة ، وكان أبو بكر من رسول الله بمنزلة أخيه ، وقد جرت عادة العرب على اعتبار هذه الأخوة كالأخوة النسبية ، فهى تحرم على الأخ أن يتزوج من ابنة أخيه ، ولهذا سألها أبو بكر: كيف يمكن تحقيق هذه المصاهرة مع قيام الأخوة حاجزا دونها ؟ ولما عادت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمها أن إخاء الإسلام لا يحرم مصاهرة ولا يوجب إرثا ، فمضت إلى أبى بكر وأخبرته الخبر ، فرضى مسرورا . « أسد الغابة جزء ٥ ص ٥٠٢ » .

وكانت قد خطبت إلى جبير بن مطعم ، قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم . « كما ذكر فى طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٣٩ » .

تزوجت وهى فى السادسة من عمرها لا فى السابعة كما يقول البعض خطأ ، ومن أحاديث عائشة تتبين أنها لم تكن تشعر بعقد قرانها ، فقد كانت تلعب ذات يوم فجاءت إليها أمها وأخذتها قريباً من المكان الذى عقد لها فيه أبوها على رسول الله ، على أنها حتى الآن لم تكن قد عرفت ، ولما منعت على إثر ذلك من الخروج فهمت أنها أصبحت زوجا ، ثم أعلمتها بعد ذلك بجلية الأمر . « طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٤٠ » .

ولابن سعد روايتان فى تحديد المهر الذى قدّم لعائشة : إحداهما أنه أمهرها بمنزل قيمته خمسون درهما ، وهذا ليس بشىء ، والظاهر أن الصحيح ما دارت به روايته الأخرى وتتابعت عليه أقواله وتقديراته فى باب مهور نساء النبى صلى الله عليه وسلم وقد صح فيها أن مهر عائشة كان خمسمائة درهم . « طبقات ج ٨ ص ٤٣ » .

وقد وقع اختلاف فى تحديد زمن هذا الزواج المبارك ، ومرجع هذا الخلاف إلى ما قبل الهجرة ، حيث لم يدوّن التاريخ ، وقد ذكر العلامة العينى فى شرح البخارى . أنه كان قبل الهجرة بسنتين ، وقيل : بثلاث ، أو سنة ونصف « عمدة القارئ ج ١ ص ٤٥ » .

ويعرف من بعض الروايات أن هذا الزواج حدث بعد وفاة خديجة بثلاث سنوات . وفى الاستيعاب : وثق ابن عبد البر أن وفاة خديجة فى رمضان ، كما

تقدم ، تلاه فى نفس الشهر زواج سودة ، وبعد ذلك بنحو شهر عقد لعائشة فى شوال من السنة العاشرة من البعثة . أى قبل الهجرة بثلاث سنين « استيعاب فى معرفة الأصحاب ج ٢ ص ٧٦٥ » .

أقامت عائشة رضى الله عنها، فى كنف أبيها أربع سنوات بعد الزواج وقبل البناء منها : ثلاث سنوات وثلاثة أشهر فى مكة ، وسبع أو ثمان بعد الهجرة . وقد اشتد أذى المشركين للمسلمين بمكة، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أن يهاجروا إلى الحبشة، فكانت الهجرة الأولى والثانية، وقد لقوا من النجاشى مرحمة وعدلا ، وأراد أبو بكر أن يهاجر كذلك ، حتى إذا غادر مكة ووصل إلى برك الغماد رده عبد الله بن الدغنة فى جواره على أن يعبد ربه ، ولما استعلن أبو بكر بقراءة القرآن لم يطق الكفار صبرا وضاقوا بأبى بكر ذرعا ، وطلبوا إلى ابن الدغنة أن يسترد جواره من أبى بكر ويترك الاستعلان بالقراءة ولما تكلم ابن الدغنة مع أبى بكر فى ذلك رد عليه الصديق جواره، ورضى بجوار الله عز وجل، واعتزم أبو بكر أن يهاجر إلى المدينة، فأقنعه الرسول صلى الله عليه وسلم بالبقاء. ويمكن القول بأن عائشة قد صحبت أباها عند ما اعتزم الهجرة إلى الحبشة ووصلت معه إلى برك الغماد على بعد خمسة أيام من مكة .

ولما أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة اشتركت عائشة مع أسماء فى تجهيز الراحلتين ، ولما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة وتمت هجرته أرسل أبا رافع وزيد بن حارثة يستقدم أهله، وأرسل أبو بكر غلامه معهما بكتاب إلى عبد الله فقدم إلى المدينة مع عائشة وأم رومان ، فقدموا إلى المدينة

ورسول الله يبنى الحجرات حول المسجد ، وقد أقامت فاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة . فى إحداها « طبقات ابن سعد ص ٤٣ » .

زفافها رضى الله عنها

ونزلت عائشة فى كنف أبيها حيث كان يقيم فى ديار بنى حارث الخزرجى ولبثت مع أمها ثمانية شهور ، كما سبق ، ومرضت فى هذه الأثناء حتى سقط شعر رأسها بأكمله . « ابن ماجه » .

ولما شفيت سأل أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل له : لم لا تدعو إليك أهلك ؟ فقال : ليس لدى الآن مهر ، فقدّم إليه أبو بكر المهر ، ثم بعث به إلى عائشة . « طبقات النساء ص ٤٣ » .

ثم أقبل نساء الأنصار ليقمن زفافها ، فبينما هى تلعب ذات يوم مع أترابها جاءتها أمها وأخذت بيدها وغسلت وجهها وسارت بها وهى لا تعلم حتى رأت نفسها وسط هذا الجمع الحاشد من كرائم السيدات المؤمنات يرفعن إليها التهانى والبشرى قائلات : على الخير والبركة وعلى خير طائر ، ومضين بها إلى منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تمّ هذا الزفاف المبارك السعيد ، زفاف نطالع فيه الحياة الهنيئة فى بساطتها وأفراحها الهادئة البعيدة عن رياء التكلف وخداع المظاهر الكاذبة . وقد أبطل النبى الكريم به كثيراً من العادات المذمومة التى تعوّدها العرب ، فقد كان هذا الزواج فى شوال ، قرانا ثم زفافا ، وكانوا يتشاءمون من هذا الشهر ويتطيرون

به على أثر حدوث طاعون فى بلاد العرب وفى جاهليتها ، وكان ذلك فى شوال فأصبحوا لا يعقدون فيه قرانا ولا يتيمنون بهلاله ، حتى أبطل ذلك الرسول الكريم ، كما أبطل أيضا عادة إيقاد النار والسير بها أمام العروس إلى بيت زوجها يصحبها زوجها فى هودج واحد .

وهكذا يبقى زفاف عائشة فى سموه وبساطته سنة خالدة لمن يدركون أن البساطة هى مبعث لكل صفاء ، وأن الأفراح لا تدوم إلا إذا خلت من الخداع والرياء .

حكمة التكرار فى آيات القرآن الكريم

سؤال يجيب عنه رئيس ندوة العلماء بالهند

العلامة السيد سليمان الندوى

كنت أطالع فى بعض الأيام تفسير النواب صديق حسن خان ، فعثرت على هذه العبارة : وقد نجمت فى هـذا الزمان فرقة تفسر القرآن برأيها وتحذف منه بعض الآيات المكررة ، هـذه الفئة تسمى بالنيچرية (أى الطبيعية) فهل يوجد حقيقة فى الهنـد تلك الطائفة التى تسول لها أنفسها الإقدام على مثل هذا ؟ نعم يوجد من أعداء القرآن وخصوم الإسلام من وجهوا سيلا من الشبه على وجود هذا التكرار ، فقد يذكر آدم وموسى وعيسى مئات المرات ، كما نلمس ذلك التكرار فى سورتى : الرحمن والمرسلات .

وهذا اللون من الاعتراضات الآثمة الباطلة ، وقد سبقت الإجابة عنه عدة مرات ، وقام العلماء الأعلام بما يهدم شبه الملحدين ، ويبطل سخافات المضللين ، وقد ألف العلامة الكرمانى المتوفى سنة ٧٨٦ هجرية رسالة خاصة فى الجواب السديد عن هذه الشبهة ، وأبان فيها أن كل آية كررت فى موضع إنما تشتمل على معنى جديد غير المعنى السابق ، فلكل آية معنى خاص فى موضعها وموضوعها ، وبهذا لا يوجد فى القرآن تكرار .

وفى مثنوى مولانا جلال الدين الرومى نتلقى إجابة طريفة بهذا الصدد ، سار

فيه على طريقة الاستدلال الشعري وهو مع ذلك لا يخلو من جمال فني بديع ، يقول ماملخصه : إننا في اليوم والليلة نكرر طعامنا وشرابنا من ماء واحد وصنف واحد ، ونحن في ذلك لا نشكو سآمة ولا ضجرا ، بل كلما أحسسنا الجوع والظمأ وزاد تشوقنا إلى نعمة الله التي تحيينا أقبلنا على الطعام والشراب، ونظرنا إلى المائدة كأنها شيء ما عرفناه ولا سمعنا به ، فإذا كان هذا شأننا في الدنيا الفانية، فكيف بالمؤمنين الصادقين إن في قلوبهم من الظمأ الروحي والشوق القلبي ، ما يجعلهم يستقبلون في كل آية نورا جديدا وفي كل لفظ غذاء هنيئا لمن أدرك ثمار العرفان ، وخالط لحمه ودمه جمال القرآن .

وإن الشريف مرتضى علم الهدى ، المتوفى سنة ٤٣٦ هـ في كتابه : «غرر الدرر» وكذلك المحدث شاه ولي الله الدهلوي في الفوز الكبير ، قد عقد كلاهما البحوث المفصلة الضافية ، والأجوبة المفيدة الشافية ، عن دحض أمثال هذه الشبهات، ولكن كلام هؤلاء العلماء ينصبّ على نوع خاص من التكرار وينبغي قبل البحث أن نتعرف أقسام الآيات المتكررة ، لنسير في الإجابة على وجه يشفي الغليل .

فبتتبع الآيات القرآنية والتعمق في دراستها وتفهمها ، نجد أن التكرار يرجع إلى أمرين لا ثالث لهما ، وهما تكرار معنوي ، ولفظي .

والمراد بالأول تكرار المفهوم والمعنى الواحد بطرق مختلفة من غير إعادة الألفاظ بنفسها ، كقصص الأنبياء ، والأمر بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة .

والمراد بالثاني إعادة المفهوم ، والمعنى مع إعادة الألفاظ بعينها ، كقوله تعالى

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) فى سورة الرحمن ، وهذا النوع هو الذى تتعلق به إجابة الشريف مرتضى . ولنتحدث عن الأول فنقول :

التكرار المعنوى يوجد فى مواقع مختلفة من الكتاب العزيز ، كالقصص التى لها تأثير بليغ فى النفس ، وكذا مايتعلق بالفرائض التى هى أركان الإسلام ، والعقائد التى من أجلها بعث الرسول الأعظم كالتوحيد وصفات الله تعالى ويوم البعث والتذكير بآثار نعمته ، ومظاهر قدرته .

أما القصص فمنها ما تكرر ذكره كثيرا ، كذكر إبراهيم وموسى وآدم ، ومنها ما ذكر مرة واحدة أو مرتين كقصة ذى القرنين وأصحاب الكهف ويوسف وزكريا وداود وسليمان وطالوت وغيرهم .

والأنبياء الذين يتكرر ذكرهم فى القرآن كثيرا أربعة وهم : آدم وإبراهيم وموسى وعيسى ، ونحن نسائل أنفسنا : لماذا وجد القصص فى القرآن ؟ ولم أعيدت قصص بعض الأنبياء عليهم السلام دون البعض الآخر بوجه خاص ؟ والأصل فى ذلك أن الفطرة الإنسانية مجبولة على التأثر بالوقائع والاعتبار ، بما يحدث فى الكون من أحداث وغير . لهذا وجد فى القرآن الكريم بل الكتب السماوية كلها ، قصص تتناول حياة الأمم وتبين مصيرها وتكشف لنا عما أنزل إليها من أنوار الوحى وأن نتيجة المخالفين كانت عذابا محتما وانتقاما حاسما ، وأن الأنبياء وأتباعهم هم الذين كتب لهم النصر والفوز فى الدنيا ، والأجر والمثوبة فى العقبى . وتكرار أمثال هذه العبر يوقظ فى النفس شعورها وينبه الضمير الخامل ويقيم الحجة مرارا على المعاندين ! فإذا لم تكرر هذه المواعظ لم يقع التنبيه المذكور (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) .

والوجه الأمثل فى هـذا التـكرار أن الدليل الواحد قد تثبت به دعاوى مختلفة كما أن القصة الواحدة يمكن أن يستنبط منها نتائج متعددة فى مواقع متباينة، فقد كررت قصة موسي عليه الصلاة والسلام . وإنك لو أمعنت التدبر والتفكير وجدت أن القصة بذاتها إنما تعاد للإشارة إلى نتيجة غير التى استنبطت من قبل، فهى أحيانا تذكر فى صدد بيان قدرة الله وإظهارها ، وأحيانا تذكر للإبانة عن نعم الله وإحسانه إلى قوم موسى، وأحيانا استدل بها على هلاك القوم الطاغين، وتارة نتبين فيها شرور بنى إسرائيل وكفرهم بما أنعم الله عليهم ، وآونة توضح الفرق بين نبي صادق ودعى كاذب ، وفى بعض الأوقات توضح لنا كيف نصر الله تعالى كليمه وأحسن إليه وحفظه، وبعضها الآخر تكشف لنا عن غرور فرعون واستكباره ومكابرته فى الحق بعد ما تبين . وكذلك يستدل بقصة آدم فى مواطن متعددة من القرآن على مقدار إحسان الله على النوع البشرى وعلى ضعف النفس الأمارة ، وكذلك على عظمة نوع الإنسان واستعداده بالفطرة لسماماة الملائكة الأبرار ، ومن جهة أخرى على مذمة الغرور والاستكبار ، وغير ذلك . وهكذا نستطيع أن نجد فى كل قصة نتيجة جديدة ، وعبرة مفيدة .

أما وقوع التكرار لقصص الأنبياء الأربعة ، فالجواب السديد عن ذلك أن المخاطبين بالقرآن الكريم ينقسمون أيضا إلى أقسام أربعة: الجنس البشرى بأكمله ومشركو العرب ، واليهود ، والنصارى ، فأعيدت قصة آدم لتذكير النوع الإنسانى بأبى البشر ، وبما من الله تعالى عليه حين خلقه وسواه فى أحسن تقويم وأقام نسله لعمارة الأرض وعبادة خالقها ، ولمشركى العرب أعيدت قصة إبراهيم

لأنهم كانوا على كل حال يعتزون بأبوته ، فلهذا كررت قصته لهم لإثارة مشاعرهم إلى التوحيد الذى دعا إليه الخليل . أما اليهود والنصارى فقد كررت لهما قصة موسى وعيسى ليتذكروا ما أنزل عليهما من الأحكام ، والبشرى بظهور سيد الأنام .

وقد كان اليهود فى المدينة وما حولها يكوّنون أكثرية كبيرة وكانت لهم ألوان من التحدى والنضال مما دعا إلى إعادة قصة الكليم . ويليهم مشركو العرب ثم النصارى ، ولبيان هذا نقول : وردت قصة موسى فى القرآن خمسا وثلاثين ومائة مرة ، وإبراهيم ستا وسبعين مرة ، وعيسى أربعا وعشرين .

أما العقائد والفرائض فقد أعاد القرآن ذكرها للتذكير بها وتنبيه القلوب إليها ، فليس كل الناس تفيده الموعظة الواحدة ، والنفس تزداد تأثرا كلما دار على سمعها وبصرها أسماء العقائد والفرائض التى هى قواعد الإسلام وحدوده وفيها مصير الإنسان ونهايته . والأمور التى أعيد ذكرها فى القرآن : هى الإيمان والصلاة والزكاة والتوحيد وصفات الله تعالى وتأكيد ذكره ومظاهر قدرته ومذمة الشرك وبيان أهوال القيامة والجزاء من ثواب وعقاب فى الجنة والنار والتحذير من غرور الدنيا ، والدعوة إلى الأخلاق العالية والعمل الصالح .

وقد جاء ذكر التوحيد ومذمة الشرك والكفر أكثر من خمسين وثلاثمائة مرة . وجاء ذكر الإيمان ومتعلقاته ثلاثمائة مرة . كما ورد اسم الجنة فى خمس وتسعين ومائة موضع ، وذكرت جهنم مائتى مرة على وجه التقريب ، وذكرت الصلاة وأحكامها أكثر من مائة مرة .

وقد قدم إلينا المحدث الشاه ولى الله الدهلوى فى الفوز الكبير بحوثا قيمة فى أسباب هذا التكرار ، فمن ذلك أن موضوع الأوامر والعقائد فى القرآن الكريم على ضربين منها مايتعلق بالأحوال الشخصية والتشريعية فى المعاملات والحدود ، فهذا يذكر مرة واحدة على وجه الخطاب للمكلفين ، والبيان للأمة ، كالطلاق والظهار والإيلاء والعدة والتوريث والقصاص وحد السرقة والشهادة وغيرها . والثانى مايتناول العقائد والقواعد الكلية فى الأوامر والأعمال الصالحات وما يترتب على الطاعة والمعصية من الجزاء ، فإن الله تعالى يذكر الإنسان بها ويحوط النفس البشرية بتكرارها لتغلغل العقائد الصحيحة فى أغوارها ، فهى تلك الأمور التى يمتاز بها الإسلام وتتجلى بها حقيقة المسلم فى جميع العصور والأجيال. فكان حريا بها أن تتكرر فى صور مختلفة من الإعجاز وأساليب قوية من البيان .

وعلى سبيل المثال نقول : إننا لو تصفحنا شعر الحافظ الشيرازى[1] علمنا أن موضوعه كله يتناول محبوبا واحدا هو الذى أغرم به الشاعر وافتتن به . لكننا كلما قرأنا قصيدة أو بيتا جديدا تجدد فينا شعور من رقة الخيال، وسحر البيان، فى أساليب الشاعر وضروب افتنانه .

فكيف بنا إذا قرأنا القرآن ، الذى هو كلام خالقنا ، وخطاب موجدنا وبارينا ، أنزله على محمد هادينا ، فكل ما قرأنا منه آية ازددنا من الإيمان ثروة ،

---

(١) هو أكبر شعراء الفرس المتصوفين ، يشبه عمر بن الفارض عند شعراء العربية.

ومن التذكير قوة ، وازدادت خواطرنا صفاء ، وأرواحنا إشراقا وضياء ، لذلك أمرنا بتلاوته وتكراره صبحا ومساء .

وإذا كان المكرر يجمل فى شىء فما أحلاه فى القرآن ، لمن ذاق حلاوة الإيمان .

التكرار اللفظى يقع فى القرآن الكريم ، إما بإعادة آية ، أو بذكر كلمة واحدة مرتين فى آية . والتكرار يقع فى جميع اللغات لتقوية المعنى ، وهو فى اللغة العربية ما يعبر عنه بالتوكيد اللفظى ، ولا يخلو كلامنا العادى فى اليوم والليلة من التوكيد ، فنقول : « انظر ، انظر » أو : « تعال ، تعال » ومنه فى القرآن : (أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى) ومثله كثير فى الشعر العربى كقول الخنساء :

أردت لنفسى بعض الأمور فأولى لنفسى ، أولى لها

وذكر الفراء لهذا القسم أمثلة كثيرة ، ننقل بعضها عن : « غرر الدرر » قال الشاعر :

وكائن وكم عندى لهم من صنيعة أيادى ثنّوها علىّ وأوجبوا

وتأمل إلى التكرار فى هذا المصراع : « كم نعمة كانت لكم كم كم وكم » ويقول شاعر عربى آخر :

نعق الغراب ببين لُبنى[1]، غدوة كم كم وكم لفراق لُبنى تنعق

---

(١) اسم فتاة يتغزل فيها الشاعر .

فتبين من هذا أن التكرار التأكيدى يجرى فى أسلوب العرب، ويعد من ضروب البلاغة . وقد جاء فى القرآن آيات أعيدت فى سورة واحدة ، منها قوله تعالى : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) كررت إحدى وعشرين مرة فى سورة « الرحمن » وكذلك قوله تعالى (ويل يومئذ للمكذبين) أعيدت إحدى عشرة مرة ، فى سورة « المرسلات » وكذلك وقع هذا التكرار فى سورة « القمر ».

والجواب على هـذا يتناول نواحى مختلفة ، منها أن القرآن فى كل موضع يجرى على أسلوب مختار ، وبلاغة فائقة تتناسب مع كل غاية ، وتوافق كل حالة فمن ذلك مثلا أنك إذا كنت والدا وقد أحسنت إلى ولدك ، ثم رأيت فى أعماله مظاهر العقوق والجحود ، فإنك تقول له : ألم أحسن إليك بتربيتك وتعهدك ؟ ألم أحسن إليك بالثروة والمال ؟ ألم أحسن إليك بالتهذيب والتعليم ؟ ومن هـذا النوع قوله تعالى : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

ويقول مولانا « آزاد البلجرامى » : إن من بين الأشياء البليغة والقصائد الممتعة فى اللغات المختلفة منظومات تشتمل قوافيها على لفظ يسمى « الرديف » ويأتى هذا اللفظ مكررا فى سائر القصيدة . كما أن بيتا واحدا أو مصراعا يكرر فى المخمسات ، ولم يكن ذلك معروفا فى اللغة العربية قبل القرآن[1]، إذاً فالقرآن وحده هو الذى أضاف إلى اللسان العربى جمالا جديدا ، وأهدى إلى أسلوبها لونا

---

(١) يوجد كثيرا فى اللغتين الفارسية والأوردية ولم يستفد منه شعراء العربية إلا أخيرا فى الأناشيد والأغانى .

طريفا من الإبداع لم يكن معروفا ـ أعنى به تكرار بعض الآيات ، كقوله تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) .

« نلاحظ فى هذه الأيام أن الأناشيد الوطنية تكرر فيها بعض كلمات أو أبيات خاصة لترديدها عند الإنشاد » .

وأجاب « الشريف المرتضى » بما ملخصه : أن التكرار على سبيل التوكيد والتذكار ، هو أحد الأساليب العربية فى الشعر ، والقرآن هو الجامع لتمام أصناف الكلام ، لذلك أجرى هذا النوع من التأكيد فى بعض السور والآيات وتستطيع أن تلتمس هذا اللون من البيان فى شعر مهلهل بن ربيعة ، وهو شاعر جاهلى ، وقد أعاد مصراعا واحدا فى مرثيته لكليب عشرين مرة منها :

ألا ان ليس عدلا من كليب ... إذا خاف المغار من المغير
ألا ان ليس عدلا من كليب ... إذا طرد اليتيم من الجزور
ألا ان ليس عدلا من كليب ... إذا ما ضيم جيران المجير
ألا ان ليس عدلا من كليب ... إذا رجف العصاة من الدبور
ألا ان ليس عدلا من كليب ... إذا خرجت مخبأة الخدور
ألا ان ليس عدلا من كليب ... إذا ما أعلنت نجوى الأمور
ألا ان ليس عدلا من كليب ... إذا ضاقت رحيبات الصدور
ألا ان ليس عدلا من كليب ... إذا ما خار جار المستجير
ألا ان ليس عدلا من كليب ... إذا طالت مقاساة الأمور
ألا ان ليس عدلا من كليب ... إذا هبت رياح الزمهرير

ونقل الشريف كثيرا من الشواهد فى قصائد مهلهل ، تركناها خوف الإطالة ، ولكى لايظن القارئ أن هذا الشاعر هو المتفرد بهذا الأسلوب ، نقل إلينا الشريف كذلك قصيدة من شعر الحارث بن عبادة يرثى بها ابنته، وقد تكرر فيها المصراع الأول ، أربعا وأربعين مرة فمنها :

قربا مربط النعامة منى لقحت حرب وائل عن حيال
قربا مربط النعامة منى ليس دون اللقاء من اعتلال

وقد أجاب المهلهل عن هذه القصيدة بمثلها ، وكرر المصراع الأول فيها أربعين مرة ، فمنها :

قربا مربط المشهّر منى كل شقرا وأشقر ذى بال
قربا مربط المشهّر منى فكليب أشاب منى قذالى

وكذلك صنعت ليلى الأخلية ، وكانت شاعرة معروفة فى زمان معاوية فقد كررت فى مرثية توبة على مثل هذا النحو :

لنعم الفتى ياتوب كنت إذا التقت صدور العوالى واستشال السوافل
ونعم الفتى ياتوب كنت ولم تكن لتسبق يوما كنت فيه تجادل

وقالت عمرة بنت النعمان فى رثاء زوجها :

وحدثنى أصحابه أن مالكا أقام ونادى صحبه برحيل
وحدثنى أصحابه أن مالكا ضروب بنصل السيف غير نكول

وإذا كان أعداء الإسلام يأبون إلا تلمس الأوهام ليخلقوا منها أسئلة يستشكلون بها ، كتكرار القرآن ، فإننا نقول لهم : لا اللغة العربية وحدها

اختصت بهذا الأسلوب ، ولا القرآن وحده هو الذى كرر بعض الألفاظ ، ففى الأسفار الدينية جميعها يمكن العثور على الكثير من الألفاظ المكررة والجمل المعادة . ويكفى تصفح هذه الأسفار ، ليعلم أين يكثر التكرار .

بقيت كلمة واحدة إلى أولئك الذين يستشكلون بقوله تعالى : (فبأى آلاء ربكما تكذبان .) فيسألون عن حكمة إعادتها إلى جانب آيات تتعلق بالعذاب والعقاب . اقرأ قوله تعالى : (يرسل عليكما شواظ من نار) إلى آخره يعنون بذلك أن وصف جهنم والمجرمين ليس متعلق النعماء ، ولا موضع ذكرى الآلاء. وأجاب جمهور المفسرين بأن ذكر جهنم وعذابها يشتمل على نعمة عظيمة، وهى العظة والاعتبار ، بما يقع من عقوبة الأشرار .

والجواب السديد عند ناهو أن هذه الآيات فيها نعمة كبرى، وآلاء عظمى، فإن كثيرين من مجرمى النوع البشرى، كثيرا ماتردهم هذه الآيات إلى نور الحق، وترد عهم عن سبيل الغواية، فإذا سمعوا شيئا عن جهنم ووبالها والجحيم وأنكالها، أقلعوا عن الإجرام ، وتابوا عن الآثام .

ويمكن أن يجاب أيضا أن ذكر هذه الآية إلى جانب ذكر العذاب، لم يكن مقصودا به أن تكون مناسبة لكل آية ، ولكنه لما بدئ بها فى أول السورة جرت على وتيرة واحدة ، وأسلوب مطرد ، فى جميعها ، ومثل ذلك قول مهلهل ابن ربيعة :

قربا مربط المشهر منى ليت شعرى وذاك أنعم حال
قربا مربط المشهر منى من يكون الغداة رهن العوالى

فإنك لا تجد مناسبة بين المصراع الأول والثانى ، ولا بين الثالث والرابع وإنما جرت القصيدة على هـذا الاطراد ، كما أسلفنا ، دون نظر إلى مراعاة كل مناسبة فى كل بيت .

قال بعضهم : لو تأملنا آيات القرآن وتدبرنا ، لم نجـد تـكرارا ولا إعادة ، بل نجد فى كل آية معنى جديدا وإفادة . والقرآن بحر خضم لا تدرك جواهره ، وكنز عظيم لا تنتهى مفاخره . وإنما ألمنا يسير من كثير . ؟

مقام المرأة فى الإسلام

لرئيس ندوة علماء الهند ـ السيد سليمان الندوى

إن الكاتب الجليل قد نشر بضع مقالات عن المرأة المسلمة ، تحت عنوان : « نساء الإسلام » . قال حفظه الله :

إن الثقافة الغربية قد واجهت العالم بسيل غامر، من أحاديث أبطالها رجالا ونساء ، ونحن إذ نتحدث عن الفضليات من نساء المسلمين قديما وحديثا نجد أنفسنا فى جو قد امتلأ بأسماء الغربيات ، ففى مدارسنا الإسلامية تجرى على ألسنة الأساتذة والطلاب أسماء فتيات كان لهن فى الحروب والوقائع مواقف وجهود ، كتبت لهن الرفعة والخلود ، فيذكرون اسم جان دارك ، أو يتحدثون عن بعض أولئك المتطوعات من أسبانيا فى حرب نابليون . ولدينا فى تاريخ الإسلام ذكريات حافلة بنجوم مشرقة من أولئك الخيرات المستبسلات اللواتى وقفن حياتهن لإعلاء كلمة الإسلام ورفع رايته ، وناضلن إلى جانب الرجل فى الحدود التى تسمح بها أنظمة الدين وتقاليد الآداب . ونحن ذاكرون لك بعض هؤلاء المجاهدات من خواتين الإسلام من العرب والترك والهند بقدر ما يتسع له المجال .

إن تاريخ قوميتنا الإسلامية مملوء بالعشرات بل بالمئات من الوقائع الكبرى ومن الأسماء المجيدة الخالدة التى تحيى فى قلوبنا العزة والفخار ، ولكن آذاننا ـ واحسرتاه ـ قد أصيبت بصمم عن هذا التاريخ، لأن أسماء أخرى قد تكدست

بها أفكارنا وعقولنا فأصبحنا لا نسمع طنينا ولا دويا ولا نصغى إلى صوت إلا إذا أقبل ذلك كله من ناحية الغرب . جرت عادة العرب قبل الإسلام أن كان الأبطال من الرجال يتقدمون إلى المعارك ومن خلف صفوفهم النساء والأطفال. ولقد كان لأولئك المجاهدات يد عاملة فى كسب المعركة ، فهن يواسين المرضى ويسعفن الجرحى ويتعهدن الخيول والأسلحة ويراقبن الأسرى ويحافظن على كل أمتعة الجيش ويلقين الأراجيز والقصائد التى توقد نار الغيرة والحمية فى قلوب الأبطال ويذكرنهم بأسلافهم الماضين الذين عادوا من حروبهم منتصرين .

لست فى هـذا القول متجنياً على التاريخ ولا مختلقاً تلك المفاخر والمناقب العليا التى مثلتها رسالة المرأة العربية ، فإن كنت فى ريب مما أقول ، فإنى أحيلك على عمرو بن كلثوم الشاعر صاحب المعلقة يسمعك بنفسه صدى هذه الحقيقة .

على آثارنا بيض حسانٌ ... نحاذر أن تقسّم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهدا ... إذا لاقوا كتائب معلمينا
لكى يسلبن أفراسا وبيضا ... وأسرى فى الحبال مقرنينا
ظعائن من بنى جشم بن بكر ... خلطن بميسم حسبا ودينا
يقتن جيادنا ويقلن لستم ... بعولتنا إذا لم تمنعونا

وبقى هذا الأسلوب من الجهاد فى الإسلام، فكان للنساء نصيبهن من أعباء المسئولية التى يقوم بها الرجل فى الغزوات ، ففى إحدى المواقع كانت أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله عنها تسقى الجرحى من جنود المسلمين بالقربة، ومع ذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره أن يحمل الأزواج نساءهم إلى الموقعة

فى غير حاجة . وقد سألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم بما معناه أن الرجال ينالون الأجر ويفوزون بالدرجات العالية عند الله لجهادهم فى سبيل الله ، فقال : جهاد المرأة الحج .

ويروى لنا أبو نعيم صاحب الحلية أن جيش المسلمين لما توجه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزوة خيبر خرج من المدينة خلف الجيش ست نساء ، فلما علم بأمرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب لذلك ، فقلن له يارسول الله قد خرجنا ومعنا الدواء ، لنسعف الجرحى ونخرج من أجسامهم السهام ونعد للجيش الطعام ، فأذن لهن صلى الله عليه وسلم . ولما انقضت غزوة خيبر وكتب فيها النصر والفلاح للمسلمين جعل النبى صلى الله عليه وسلم لهؤلاء النساء قسما فى الغنيمة وأسهم لهن فيها مع الغزاة من الرجال . « انتهى بالمعنى » .

ويروى لنا الطبرى فى إحدى المواقع أن الرجال كانوا يخرجون قتلاهم إلى مكان خلف الصفوف ، وكانوا يعمدون بالجرحى إلى النساء ليقوموا بتجهيز الشهداء. وفى حرب الأغواث والأرماث من سلسلة حروب القادسية كانت النساء ومعهن الأطفال يقمن بالتجهيز وحفر المقابر للشهداء . « راجع الجزء السادس صفحة ٢٣١٧ طبع أوربا » .

وفى فتح القادسية أيضا تقول بعض النساء اللائى شهدن الحرب : لقد كنا نشمر عن سواعدنا ونمضى خلف الصفوف وإلى الأطراف ، وبأيدينا العصى فمن وجدناه من الجرحى حملناه .

ويتبين مما رواه البخارى أن عمر بن الخطاب وهو المعروف بشدته على النساء

لم يضن بفرض العطاء لأم سليط الصحابية لأنها أبلت بلاء حسنا مع المسلمين فى غزوة أحد ، عند ما تكاثر الرماة على المسلمين وأحدقوا بهم فكانت تضمد الجرحى وتسقيهم الماء من قربة كانت معها .

ومما سبق يتجلى ما كان للمرأة المسلمة من صدق اليقين ، وكمال الغيرة على الدين ، وحرصها على أن لا تحرم من شرف الجهاد مع المسلمين لتنال فخر المجاهدين وأجر الصابرين . ويعلم مما سبق أيضا أن نصيبهن المشروع من الجهاد كان ينحصر تقريبا فى هذه الأمور .

١ ـ سق الجرحى وإطفاء ظمئهم فى المعركة الحامية .

٢ ـ تنظيم الأطعمة للجنود .

٣ ـ حفر القبور للشهداء .

٤ ـ نقل المصابين من بين الصفوف ، كيلا يحدث بقاؤهم على هذه الحالة إضعافا للروح المعنوية ، أو إخلالا بأنظمة الصفوف .

٥ ـ إمداد المصابين بوسائل الإسعاف الممكنة .

٦ ـ إمداد الجند وإثارة النخوة والغيرة ، وبعث روح الهمة والاستبسال إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

وإذا تتبعت سجل الجهاد فى القرن الأول الهجرى صحيفة صحيفة وجدت المرأة المسلمة تؤدى فريضتها كاملة خلف صفوف الرجال ، فى حومة النضال ، ولكن القارئ قد يستولى عليه العجب إذا علم أن ربات الحجال من الجنس اللطيف ، قد أنيح لهن أن يقاتلن أيضا كما يقاتل الرجل فى بعض الضرورات

الحازبة فينتصرن كما ينتصر الرجل ، وأتيح لليد الناعمة أن تضرب بشجاعة الإيمان رأس الكفر فترديه صريعاً .

فى غزوة الخندق تجمع أحزاب المشركين وغيرهم، وعسكرت قبائلهم قرب المدينة وشغل النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون بأمر الخندق ، ثم خان بنو قريظة فى معاهدتهم فأحدثوا بذلك ثغرة داخلية فى قوة الإسلام إذ ذاك . وهنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وكان بنو قريظة يؤذون المسلمين من الخلف ويساعدون الأحزاب .

وفى مكان بالمدينة كان النساء بمزل عن الجيش ولم يكن لديهن من الجنود من يمنعهن غائلة اليهود من بنى قريظة ، وفى تلك الأثناء أقبل يهودى فاطلع على مكانهن ، ورأته صفية أم الزبير بن العوام وعمة رسول الله ، فطلبت إلى حسان أن يقتل ذلك اليهودى ، خشية أن يطلع بنى قريظة على عورات المسلمين ولكن حسان اعتذر وتخلف عن الإقدام فتقدمت صفية رضى الله عنها وحملت عمودا من بعض الخيام وضربت به رأس اليهودى فسقط على الثرى قتيلا . وهنا يقول المؤرخ ابن الأثير الجزرى مامؤداه : أن صفية هى التى ضربت المثل الرفيع فى البطولة الأولى للمرأة المسلمة . وفى أسد الغابة أن أم سليم والدة أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شهدت المغازى كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد كان جهاد المرأة المسلمة فى خدمة الإسلام واضحا قويا ، منذ فجر الدعوة . والتاريخ يحفظ لنا اسم تلك الصحابية المؤمنة الوفية أم عمارة ، فقد

اشتركت مع المسلمين فى بيعة العقبة . ولما توجه رسول الله فى السنة السادسة إلى الحج عام الحديبية وأرسل عثمان رضى الله عنه إلى مكة ، ثم شاع بعد ذلك نبأ قتل عثمان أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم البيعة من أصحابه على قتال المشركين ، وكانت تسمى هذه بيعة الرضوان ، وقد اشتركت فيها أم عمارة ، كما أنها شاركت زوجها زيد بن عاصم فى غزوة أحد .

وفى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ظهرت فتنة مسيلمة الكذاب ، فوجه إليه جيشا باليمامة استشهد فيه كثيرون من المسلمين ثم قتل الكذاب اللعين ، وفى تلك الموقعة كانت أم عمارة مع الجيش ، وقد حاربت بنفسها حتى جرحت يدها ، وأصيبت فى هذه الموقعة اثنتى عشرة إصابة .

وفى عهد أمير المؤمنين ، عمر الفاروق ، رضى الله عنه ، كان لابد للإسلام لكى يرفع علمه ويثبت قدمه من مواجهة أعظم قوتين تسيطران على ذلك العصر فى الشرق ، وهما الفرس والروم ، وأعظم موقعة هدمت بنيان الدولة الرومانية إذذاك كانت موقعة اليرموك ، كما أن القوة العظيمة التى لم يكن العرش الكيانى فى الدولة الفارسية يستطيع أن يعد أكثر منها تتمثل فى ذلك الجيش الكبير الذى ظهر عند فتح القادسية .

هاتان المعركتان تتمثل فيهما البطولة العظمى والجهاد المجيد ، الذى مهد الطريق بعد ذلك لانتشار الإسلام بين ربوع الشرق والغرب فيما بعد . ولا نستطيع أن ننسى أن نجاح الإسلام فى هاتين الموقعتين كان يرجع الفضل فى كثير من نواحيه

إلى نساء الإسلام وكلماتهن النارية فقد التقى المسلمون بالفرس عند القادسية سنة ١٤ هجرية فى المحرم وكان الجيش الفارسى فى نحو مائة ألف أو يزيدون ، ولم يكن جيش المسلمين يزيد على الثلاثين ألفا ، جرح كثيرون منهم ، فكان النساء ومعهن الأطفال يقمن بحفر قبور الشهداء ويرفعن الجرحى من الصفوف، ليقدمن لهم ما يستطعن من العلاج والإسعاف .

أما إيقاد الروح المعنوية وإمدادها بنار قدسية من الإيمان الصادق فحدث عن ذلك ، فما يستطيع تاريخ فى العالم أن يحدثنا عن بلاغة نسوية كتلك الكلمات الخالدة التى تروى لنا عن امرأة نخعية تقول لأولادها :

« إنكم أسلمتم فلم تبدلوا ، وهاجرتم فلم تثربوا ، ولم تنب ، بكم البلاد ، ولم تقحمكم السنة، ثم جئتم بأمكم عجوزا كبيرة فوضعتموها بين يدى أهل فارس، والله إنكم بنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ماخنت أباكم، ولا فضحت خالكم، انطلقوا واشهدوا أول القتال وآخره» (انظر طبرى جزء ٦ ص ٢٣٠٧)

وقد مضى أولادها بعد وصيتها لهم، وأقبلوا على الميدان، شجعانا مستبسلين. فلما اختفوا عن نظرها توجهت إلى الله داعية لهم بالسلامة والنصر. وبعد أن انتهت المعركة بفوز المسلمين، عاد أولئك الأبناء سالمين مظفرين ، وألقوا بين يديها الغنائم والأسلاب .

وليس فى الناس من يجهل الخنساء التى كانت مضرب المثل فى شعر الدموع والرثاء رفع الإسلام نفسها ، وأنار قلبها ، ودفع بها الإيمان إلى حرب القادسية

اشتركت بأبنائها الأربعة، وقبل أن ينزلوا ساحة الوغى جمعتهم وزودتهم بنار من الإيمان ونور من اليقين ، فى تلك الكلمات الخالدة :

« يابنى إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين ، ووالله الذى لا إله غيره إنكم بنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ماخنت أباكم ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ، ولاغيرت نسبكم . وقد تعلمون ماأعد الله للمسلمين ، من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين . واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، بقول الله عزوجل: (يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا لعلكم تفلحون.) فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين. وإذا رأيتم الحرب قدشمرت عن ساقها واضطرمت ، فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها ، تظفروا بالغنم والكرامة ، فى دار الخلد والمقامة » (أسد الغابة)

ولما كان الصباح احتدم وطيس الحرب ، فتقدم أبناؤها الأربعة واشتدوا على عدوهم غير مبالين بالموت حتى قضوا نحبهم جميعا . ولما بلغ خبر استشهادهم إلى الخنساء لم تجزع بل قالت : الحمد لله الذى شرفنى بهم . وقد فرض لها عمر رضى الله عنه من بيت المال ما كانت تحصل عليه من أبنائها ، أي ثمانمائة دينار.

وبعد واقعة الجسر التى اشتد فيها ضغط الفرس على المسلمين حدثت معركة عنيفة تسمى « حرب البويب » وهي التى كانت مقدمة لحرب القادسية ، وفيها فاز المسلمون بنصر مبين ، ونالوا من الفرس غنائم وفيرة لا تحصى . وإذ ذاك كان نساء المسلمين ، قد ضربت لهن الخيام بعيدا عن الموقعة .

ولما كان أمر تدبير الطعام والمؤونة قد وكل إليهن ، فقد أرسل المثنى قائد الجيش ما وقع له من الغنائم الوفيرة إلى خيام النساء فى حراسة بعض الجنود . ولما رأى النساء سواد القافلة عن بعد خيل إليهن أن القادمين إنما هم فرقة من الأعداء جاءوا للإغارة عليهن ولم يكن معهن فى ذلك الوقت سلاح يدفعن به هجوم المغيرين ، فلم يقفن عاجزات مستسلمات ـ بل ألقين بأطفالهن وفلذات أكبادهن وأقبلن على أعمدة الخيام وأوتادها يقتلعنها ليتخذن منها أسلحة يقمن بها فى وجوه الأعداء . ولما رآهن كبير القافلة على مثل هذه الحال صاح صيحة الإعجاب والتمجيد لبطولة جيش الإسلام تلك البطولة التى غمرت الرجال والنساء والكبار والصغار . ثم بشرهن بنصر المسلمين وأدى إليهن الغنائم .

وفى حرب ميسان ظهرت للنساء بطولة عجيبة وذلك أن المسلمين التقوا بأعدائهم من أهل ميسان قريبا من نهر دجلة بقيادة المغيرة ، وكان هـذا القائد قد ترك جموع النساء فى مكان يبعد عن الميدان ، ولما اشتبك الفريقان واستحر القتال ، نظرت بنت الحارث فوجدت أن العدو يكاد يحيط بالمسلمين فأشارت على صواحباتها أن من الخير التقدم إلى الجهاد وتقوية ظهور المسلمين ، ثم أخذت منديلها فصنعت منه علما واقتدى بها النساء وسار جميعهن إلى الميـدان تحت الأعلام المرفرفة فلما نظر الأعداء إليهن من بعيد ظنوا أن جيش المسلمين أرسل إليه المدد من القوة والعتاد والرجال فأدركهم الرعب واستولى عليهم الهلع والاضطراب فانـكسرت شوكتهم وتزعزعت روحهم المعنوية ، فولوا مدبرين ، وفروا من المسلمين . وكان الفضل فى ذلك الفوز للفرقة التى ألفتها بنت الحارث .

فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنـه وفى غرة العام الثالث عشر من الهجرة غزا المسلمون دمشق وحاصروها بعد عدة معارك طاحنة ، واشتد الأمر على من كان فيها . وبينما المسلمون يحاصرون المدينة بلغهم أن تسعين ألفا من جنود الروم عسكروا فى أجنادين بعدائهم الحربية القوية ، وكان جنود المسلمين إذ ذاك قد انتشروا فى مختلف التخوم والأطراف من بلاد الشام ، وكان خالد ابن الوليد رضى الله عنـه قد انضم إلى أبى عبيدة بعد قدومه من العراق فأجمعا أمرهما على لمّ شعث الجيش الإسلامى المنتشر بين الأصقاع والمدن وقرروا أن يتوجهوا بالجيش لمحاربة الأعداء فى أجنادين ، وأخذ الجيش الإسلامى ينصرف عن دمشق يتقدمه خالد ، وسار أبو عبيدة خلف الجيش بما معه من عدة وعتاد يصحبه النساء والأطفال .

ولما رأي أهل دمشق انصراف المسلمين عنهم رأوا أن الفرصة قد أتيحت لهم ليثأروا وينتقموا منهم ، ثم فتحوا باب المدينة ووثبوا عليهم . وكان قيصر الروم قد أرسل بالمدد إلى دمشق فوصل جنوده فى نفس ذلك الوقت وبدأوا يعترضون طريق المسلمين ، وكان طباعيا أن يجد المسلمون أنفسهم فى حصار ضيق بين نارين مستعرتين من الخلف والأمام وفى حالة يضطرب معها الإحساس ويتبلبل الشعور وتضيع الثقة ، ولـكنهم على العكس من ذلك قويت فيهم روح الإيمان والثبات فناضلوا العدو من الجهتين نضال الشجعان الأبطال المؤمنين بنصر الله وتأييده ، ولـكن همهم الأعظم كان موجها إلى المحاربين من الجهة الأمامية فافترص الدمشقيون هذه النهزة للهجوم على المسلمين من ورائهم

وأحاطوا بمن معهم من النساء محاولين سبيهن وسوقهن إلى دمشق ، فنظر بعض النساء إلى بعض وأخذت خولة رضى الله عنها تصيح فى جموع النساء بما معناه : هل تقبلن يا معشر المؤمنات أن تقعن فى حبائل مشركى دمشق أسارى ؟ وهل فيكن من تقبل أن تدمغ بوصمة العار والشنار مجد العرب وبطولة المسلمين ، إن الموت لأجدر بنا من حياة الذلة والهوان !

فعلت هذه الكلمات النارية فعلها ، فتشجع أولئك الفضليات واستشعرت قلوبهن روح اليقين والثبات فوقفن فى صفوف منتظمة وأخذن يقتلعن أعمدة الخيام ليتخذن منها أسلحة ودروعا يدفعن بها جيش المشركين . وكان فى مقدمتهن خولة ثم عفيرة بنت عفار ، فأم أبان بنت عقبة ، وسلمة بنت نعمان ابن مقرن وغيرهن .

وفى مدة وجيزة استطاعت أولئك الخفرات المستبسلات أن يدفعن أمامهن رجال المشركين ويسقطن منهم ثلاثين محاربا يتخبطون فى دمائهم . وقد حاول المشركون أن يعاودوا الكرة عليهن فاستبسل المسلمات ودفعنهم إلى الوراء منهزمين مدحورين . ثم أقبل المدد من جيش المسلمين بعد فراغهم من المعركة ، فألحقوا بالبقية الباقية من المشركين هزيمة منكرة ، ثم ثنى جيش الإسلام عنانه موليا وجهه شطر أجنادين لإبادة جيوش الروم المجتمعة هنالك .

وقد نقل المؤرخ أدوارد جيبن فى تاريخه هذه الواقعة فى شئ من التفصيل وتناول بالحمد والثناء تلك العفة والعصمة والبطولة والشجاعة التى تجلت فى سجايا المسلمات الفضليات . ثم قال : لقد كان هذا الجيش من الجنس الناعم جديرا

بالإجلال والتقدير . كانت المسلمات ماهرات فى ضرب السيف واستعمال الرماح ورمى السهام ، واستطعن بتلك الخلال العالية أن يحافظن على عفافهن فى ظرف دقيق وموقف حرج» .

ولقد كانت موقعة اليرموك تعد أولى الحروب المنظمة بالنسبة للمسلمين، فقد اشتمل جيشهم فيها على أربعين ألفا من صفوة الشجعان المنتخبين ، وكان جيش الروم يربو على مائة ألف، وكان هذا الطوفان العظيم من الخلائق فى جيش الروم مزهوا بكثرته، وظن أولئك الجنود أن سيسحقون المسلمين عن بكرة أبيهم بضربة واحدة، وكان عددهم يجاوز أربعة أضعاف الجيش الإسلامى وتقدموا بهذا الغرور وأقاموا من خلفهم استحكامات تمنعهم من الفرار على مثل مافعل طارق بن زياد فيما بعد . ثم أقبلوا بعد ذلك فى هجوم عنيف وأغاروا بعددهم الزاخر حتى دفعوا بميمنة المسلمين وألحقوهم بخيام النساء ، وكان فى ميسرة جيش المسلمين عدد كبير من قبيلتى لخم وجذام ، فهاجمهم جيش أكروم ودفع بهم إلى قرب خيام النساء أيضا وأخذوا يتقهقرون بغير انتظام ، أمام حكامهم القدماء ، فثارت الغيرة والحمية على أشدها فى قلوب أولئك النساء وبرزن من خيامهن ليقتلعن أعمدتها ويحملن ما استطعن حمله من السلاح ، ثم أقبلن على العدو فأنزلن به هزيمة نكراء ، وأخذ أولئك الذين كانوا يندفعون كالسيل الجارف يرتدون موليين الأدبار . ثم عاد أولئك الفضليات إلى رجال المسلمين يشعلن فى قلوبهم نيران الغيرة والحمية ، فعاد الجيش الإسلامى إلى نظامه وأزاح من أمامه ذلك الطوفان من جيش الأعداء .

وكان نساء قريش كذلك يتقدمن بذلك الإيمان الصادق حتى دفعن الأعداء من أمامهن وتقدمن صفوف الرجال فى تلك الموقعة . وقد تقدمت جويرية أخت معاوية بفرقة من النساء ، وأخذت تناضل حتى جرحت . وما زالت صيحات أم معاوية هند بنت عتبة تتردد بكلمات الشجاعة فى مسمع أجيال التاريخ ! وما أعظم تلك الحمية التى تجلت فى خولة بنت درار ، وهى تنشد الأشعار ، وتدفع بالأبطال إلى خوض الغمار . وهى تقول :

يا هاربا عن نسوة تقيات رميت بالسهم والمنيات

وقد نوه الطبرى فى تاريخه بفضل أم حكيم بنت حارث . وذكر ابن الأثير الجزرى أن أسماء بنت يزيد قتلت وحدها تسعة من جنود الروم . كما حدثنا ابن عمر الواقدى عن أولئك الأعلام من الفضليات اللائى أبلين فى هذه الحرب خير بلاء ، فمنهن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما وزوج عبادة ابن الصامت من رواة الحديث وخولة بنت ثعلبة وكعوب بنت مالك وسلمى بنت هاشم وعفيرة بنت عفارة رضى الله عنهن .

مضى المسلمون بعد حرب « اليرموك » يتعقبون جيش الروم ، وأقاموا قريباً من دمشق ، وهنالك تزوج خالد بن سعيد من أم حكيم بنت الحارث ، وأقام وليمة فاخرة للمسلمين ، وضرب قبة لأم حكيم على مقربة من جسر لا يزال يسمى باسمها حتى الآن . وبينما كان المسلمون فى شغل بالوليمة وأطعمتها أقبل نذير جيش الروم فرفعوا أيديهم من صحاف الطعام ، إلى امتشاق الحسام . ثم

وثبوا على الروم وثبة الأسود الغضاب، وأسكنوا فى صدورهم الأسنة والحراب، حتى مزقوهم أشتاتا بين الربا والهضاب .

أما « أم حكيم » فلم تنس نصيبها من البطولة والشجاعة ، فنسيت زينة العرس وحلة الزفاف، وأقدمت لارتداء حلة الشرف والاستبسال ونسيت أنوثتها وقاتلت بعزيمة الرجال فأبادت من جيش الروم سبعة من المحاربين وربما قتلت أكثر من ذلك . وليست العبرة بالقتل ولا بالمقتولين ، وإنما العبرة بالإيمان والعزم واليقين .

ولو سلمنا برواية الواقدى عن فتوحات الشام للزمنا أن نذكر للمرأة أكثر مما نذكر عن الرجل فى كثير من تلك الفتوحات . وقد حدثت موقعة الجمل وكانت عائشة الصديقة رضى الله عنها أحد ركنى النضال فيها ، وكلنا نسلم بأنه قد وقع خطأ اجتهادى فى هذه الموقعة . والمجتهد يثاب على خطئه ، ولكننا نرى فى هذه الحادثة كيف يسمو مركز المرأة المسلمة ويعلو شأنها فى الاستقلال ، وتحمل مسئولية النضال .

ولعلك تذكر فيما أسلفنا أسماء أم حكيم وهند وأم كثير وأسماء وأم أبان وأم عمارة وخولة ولبنى وعفيرة، فقد تحدث عنهن الواقدى فى فتوحات الشام ، ومن رواياته يتبين أن أولئك الفضليات قد أبلين بلاء المؤمن الصادق وساهمن مع الرجال ، فى إدارة رحى القتال ، بما خلد أسماءهن فى صحائف الأجيال .

وقد كان عتبة بن غزوان أميرا على بعض الجيوش من قبل عمر رضى الله عنه ، فلما التقى بأهل مدينة الفرات كانت زوجه أزدة بنت الحارث طبيب العرب

تقوم بدورها فى تشجيع الناس وإذكاء نار الحمية والغيرة فى قلوبهم مما كان له عظيم الأثر فى اكتساب النصر والظفر.

وعند ما استشهد أبان بن سعيد أثناء الحملة على دمشق بيد حاكمها « توما » كان وقع نبأ قتله أليما فى قلب زوجته أم أبان بنت عتبة فهاجها مقتله وخرجت بكل سلاح أمكنها ومضت تطلب الثأر من القاتل الآثم لزوجها المقتول . وقد صابرت الأعداء مدة ، وكانو محاصرين داخل المدينة إلا أنهم كانو يواجهون المسلمين من بعض الأبراج ، فلمحت أم أبان بعض فرق الجيش متجمعين فى برج منها ، وأمامهم الكاهن يحمل صليبا ذهبيا كبيرا ويدعو أربابه الثلاثة للنجدة والإنقاذ ، وكانت أم أبان ذات براعة فائقة فى تسديد الرماية ، فوجهت ضربة قاصمة وسهما نافذا إلى حامل ذلك الصليب . فمالبث الناس أن أخذتهم الدهشة واستولى عليهم العجب حينما رأوا ذلك الصليب الذهبى يهوى على الأرض بجانب القلعة محطما قد تناثر إلى قطع وجذاذات .

وقد هال الجيش المحاصر ماصنعت هذه المرأة بذلك الشئ المقدس فى نظرهم وقد هوى على الأرض فى ذل وهوان ، وهو موضع الشفاعة والقربان ، فثارت فيهم النعرة الصليبية ونسوا التضييق والحصار ، وثار قائدهم « توما » ففتح باب القلعة وانساب جيش الروم كأنه سيل يجتاح السد والجسور . وقد أخذ المسلمين شئ من الرعب أول الأمر لما رأوا من اندفاع القوم بلا تؤدة ولا روية ، وكانوا يحاولون أن يستردوا صليبهم الذهبى بأى ثمن ، وكلما اقترب منه جندى وقفت له

«أم أبان» بالمرصاد ترشقه بالسهم النافذ فى صميم الفؤاد فتردبه إلى الأرض صريعا، إلا أن « توما » قائد القوم لم يجد فى نفسه صبراً على ترك الصليب فى أيدى المسلمين ، فتقدم فى جرأة لا تعرف الهوادة فأدركته « أم أبان » بسهم نفذ إلى عينه فذهل عن الدنيا وعن الجيش والصليب وعن نفسه أيضا ، وأخذ يدور فى الميدان يبحث عن الموت أو يبحث الموت عنه . وقالت « أم أبان » فى ذلك رجزا :

« أم أبان » فاطلبى بثاركِ صولى عليهم صولة المداركِ
قد ضج جمع القوم من نبالكِ

وفى حروب اليرموك كان أشد أيامها يوم التعوير ، وفيه اشتد الأمر على المسلمين وكادوا يولون الأدبار لولا أن وقف النساء يردين جيوش الروم بما فيهن من إيمان وغيرة حولت أنوثتهن الناعمة إلى بطولة خشنة تستهين بالموت وتفرح بالاستشهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله . وكانت أسماء بنت أبى بكر إلى جانب زوجها الزبير رضى الله عنها تقاتل جنبا إلى جنب على جوادها .

وقدروت لنا مصادر التاريخ فى حرب صفين مواقف عظيمة للمرأة، وحوار الزرقاء مع معاوية بعد قتل على كرم الله وجهه يدل على مقدار مساهمة المرأة فى الحرب إن لم يكن بالسلاح فبالتحريض الذى هو أمضى من الأسلحة وأنفذ من الرماح. وقد وقفت الزرقاء وأم الخير وغيرهما من النساء تحرضن الرجال بالخطب

المثيرة والكلمات القوية المؤثرة مما لا يزال كثير منه محفوظا فى كتب الأدب والتاريخ .

وفى خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٠ هجرية هجم جيش المسلمين على بخارى ، وكان قتيبة بن مسلم قد تولى قيادة الجيش ، وكانت قبيلة أزد مضرب المثل فى الشجاعة والاستبسال بين قبائل العرب ، وكان لرجالها فى الفتوحات الإسلامية أحسن الأثر أيضا . فلما رأوا طوفان الجيش التركى مقبلا من بخارى ، استأذن رجال تلك القبيلة قتيبة ليتقدموا فى الطليعة فأذن لهم والتحموا بأتراك بخارى ، ولكنهم وجدوا أمامهم أقدما ثابتة لا تتزلزل ، فحمى الوطيس واستحر القتال إلى أن هزم أولئك الأزديون وارتدوا إلى مراكز الجيش وتعاظم الأمر قتيبة ومن معه ، وكاد عسكر المسلمين يولون فرارا فى غير انتظام ، فثار النساء من كل مكان وتصايحن بالجنود وأخذن يضربن الخيول ويردون الفرسان إلى الميدان فعادوا ووثبوا وثبة كتبت لهم النصر والفوز المبين .

إن النساء المسلمات لم يحملن فى هذه الحرب أسلحة ولا دروعا ، ولكن جهادهن لم يكن أقل من السيوف مضاء ، فاليهن يرجع الفضل فى كسب تلك المعركة بعد الهزيمة فيها .

إن تعاليم المدنية الغربية تنقل إلينا تاريخ أبطال الغرب من رجال ونساء . وقد أصبحت أدمغة الشباب سجلا لأسماء النابغين والنابغات من الغرب ومحيت من الذاكرة أسماء رجال الشرق ونسائه على السواء . لقد غدا لفظ « جان دارك » ومثيلاتها الشغل الشاغل لكل من يريد أن يتحدث عن البطولة

أو يتناول صحائف تاريخ المجد . وقد سمعت أيها القارئ كيف وصل السمو الخلقي والديني بالمرأة المسلمة إلى الحد الذى سجلت به اسمها على جبين الدهر ، وساهمت فى أعظم الانتصارات الإسلامية الباهرة . ولن يستطيع كتاب الغرب ولا أذنابهم فى الشرق أن يأتوا بأسماء ولا بحوادث ترفع مقام المرأة فى العالم مثل تلك الحوادث الجليلة والأسماء النبيلة (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) .

لا يخفى ما قام به الخوارج فى أواخر عصر الخلفاء الراشدين وبعدهم من الأعمال الإرهابية العنيفة التى عرضت أعناقهم للسيوف وأوردتهم موارد الحتوف ولكن شجاعتهم واستبسالهم كان لهما أثر بالغ فى بقاء جماعتهم طوال الأجيال المتعاقبة ، ولا تزال لهم بقية باقية حتى الآن فى بعض الأقطار الإسلامية .

نذكر هذا بمناسبة ما كان يبدو من بعض نسائهم فضلا عن رجالهم من ضروب المقاومة والشدة فى المخاصمة . ونحن فى صدد الكلام عن مقام المرأة فى الإسلام ، لا يسعنا أن نهمل المواقف المشرفة للمسلمة كيفما كانت النحلة والمذهب الذى تنتمى إليه ، فهى مسلمة على كل حال.

فى سنة ٧٧ هجرية كان الحجاج والياً على العراق من قبل الخليفة عبد الملك وفى تلك الأثناء قام شبيب الخارجى فى الموصل بثورة ضد الخلافة واشتركت فى هذه الحرب زوجه غزالة وأمه جهيزة ، فأرسل الحجاج حملة قوية للقضاء على هذه الفتنة ، وأرسل خمسة قواد كان نصيبهم جميعاً القتل دون أن يظفروا بطائل ، وأخيراً أرسل عبد الملك جيشاً عظيما من جنود الشام قاده الحجاج بنفسه . وفر

شبيب من الوصل إلى الكوفة ، ولكن الحجاج كان قد سبقه إليها ووصل إلى قصر الإمارة وجاءت غزالة الآنفة الذكر لتوفى نذراً سابقاً كان عليها وهو أن تصلى ركعتين بمسجد الكوفة ، فأقبلت فى صحبة زوجها يحيط بهم سبعون من أنصارهم ووقف شبيب خارج المسجد مجرداً سيفه ، وأقامت صلاتها فأدت ركعتين قرأت فى أولاهما بعد الفاتحة سورة البقرة ، كما قرأت آل عمران فى الثانية وهى مثال للاطمئنان ، يملأ قلبها السكينة والخشوع فى الركوع والسجود ، وفى القيام والقعود . تفعل ذلك على مرأى ومسمع من جنود الشام وهم يملأون الكوفة ومسجدها وينظرون إلى تلك المصلية نظرة يملؤها العجب والإعجاب معاً بتلك النفس التى لاتبالى بأن تجاهر بمعتقدها بين الحراب المسنونة والسيوف المصلتة بأيدى عشرات الألوف من جيش الشام والعراق .

خرج الحجاج لتلك الحرب مجهزاً بأقوى عتاد من البصرة والكوفة والشام وقام خلف الصفوف بنفسه يحرض تلك الجموع الزاخرة واعداً ومتوعداً . وكان جيش الخوارج هزيلا ضئيلا إلا أنه ثبت أمام الكثرة الساحقة من رجال الحجاج ولكنه مهما بذل وحاول فقد كانت الهزيمة أمراً لا مناص منه. وكانت غزالة وجهيزة تشتركان فى الحرب وتساهمان فيها بشجاعة منقطعة النظير ، إلى أن أرسل الحجاج بعض رجاله سرا خلف الصفوف لقتل غزالة ، أما شبيب فقد فر إلى الأهواز ـ تاركا خلفه عدداً كثيراً من القتلى .

وهنا يقول ابن خلكان : إن جهيزة أيضا قضت نحبها فى هذه الحرب ،

بيد أن الطبرى وابن الأثير يذكران أن شبيبا قد سقط به فرسه فى دجلة عند ما كان يجتاز جسر النهر ، وكان إذ ذاك فى دروعه وأسلحته فلم يملك سبيلا إلى النجاة . ولما قيل لأمه : إن شبيبا قد مات قالت : أما بيد الأعداء فلا . ثم قيل لها : إنه قد غرق قالت : ذلك ممكن .

ويروى كذلك أن غزالة قد بارزت الحجاج فلم يثبت أمامها بل رجع القهقرى ولاذ بالفرار . هذا الحجاج الذى كانت ترتعد فرائس العراق وتهتز جوانب الجزيرة تحت أقدامه رهبة وخشية ، استطاعت تلك المرأة الجريئة أن تزلزل طغيان هذا الجبار وترده خائفا مذعورا . وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

أسدٌ علىّ وفى الحروب نعامة ... فتخاء تصفر من صفير الصافر

هلاّ برزت إلى غزالة فى الوغى ... بل كان قلبك فى جناحى طائر

وفى سنة ١٣٩ هـ فى عهد خلافة المنصور اعتدى قيصر الروم على مدينة « ملطية » فخربها . فوجه المنصور لتأديب ذلك القيصر والانتقام من عدوانه جيشاً عظيما على رأسه صالح بن على وعباس بن محمد . واستطاع ذلك الجيش الظافر أن يعيد إلى المدينة عمرانها وازدهارها وواصل المسلمون زحفهم حتى استولوا على مقاطعات أخرى واقتربوا من القسطنطينية .

ومما هو جدير بالتخليد أن أم عيسى بنت على ولبابة بنت على أختا صالح وخالتا المنصور ، ومعهن عدد من فضليات النساء شهدن هذه المواقع وسعدن بالاشتراك فى تحقيق تلك الانتصارات الباهرة . وكان شهودهن لهذا الغزو وفاء منهن فقد سبق لهن فى خلافة بنى أمية أن عقدن لله نذرا أن يجاهدن فى سبيل

الله إذا زال الحكم الأموى من الخلافة الإسلامية .

وفى سنة ١٧٨ هـ حدثت فى خلافة الرشيد فتنة من الخوارج وكان على رأس القائمين بها وليد بن طريف ، فاستولى هو وجماعته على الخابور ونصيبين . ثم وجه الخليفة لإخماد تلك الفتنة جيشا بقيادة يزيد الشيبانى وكان من المشهود لهم بالبراعة الحربية والإقدام الفائق فحارب الخوارج وهزمهم بعد بضعة معارك وقتل رئيسهم الوليد . ولما سمعت فارعة أخته بمصرع أخيها ثارت ثائرتها وخرجت من خدرها وجردت من أنوثتها بطلا شجاعا يتقدم إلى الميدان ولا يبالى بالموت. وهكذا لبست الدروع وتقلدت السيف وتقدمت للنضال ، فبرز لها يزيد نفسه ولما رآها طعن بالرمح فرسها ثم وجه إليها شيئا من العتاب لإقدامها على موقف ينال من سمعة أهلها وكرامة قومها ، فعادت من الميدان مخضبة بدموع الحسرة والألم لا يردها عن حومة الوغى جبن ولا خوف ، ولولا ما كان يلحقها من سوء السمعة فى تهورها وجرأتها على ما ليس من شأن النساء لما ردها عن الميدان سوى الأجل المحتوم . وقد تركت لنا من ذكريات ألمها هذه الأبيات :

أيا شجر الخابور مالك مورقا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنا وسيوف

فقدناك فقدان الشباب وليتنا ... فديناك من فتيان نبـــا بألوف

عليـــه سلام الله وقفا فإننى ... أرى الموت وقاعا بكل شريف

وقد بلغت هـذه المرثية مقاما عاليا من الشهرة والذيوع فقد نقلها أبو على القالى فى أماليه ، بينما نرى ابن خلكان يعدها فى مصاف مراثى الخنساء، ويقدمها

علماء البديع كمثال حسن فى باب تجاهل العارف من قسم المحسنات المعنوية للكلام .

وقد ذكرت أخت الوليد باسم فارعة على ما سبق ، وقد عرفها ابن الأثير باسم ليلى ، وابن خلدون يقص الواقعة دون أن يذكر اسمها ، وربما عرفت فى بعض المواضع باسم فاطمة ، ولكن المهم على كل حال هو الأعمال ، لا الأسماء والأقوال .

وفى القرون الوسطى عند ما اشتعلت نار الحرب الصليبية على أشدها كان من بين أمراء الجيوش قائد يسمى « أسامة » وكان فى صحبته والدته وأخته، وقد ساهمت كلتاهما فى الحرب متقلدة السلاح ناسية الحلى الجميلة بالدروع الرهيبة حتى سجلنا للمرأة المسلمة نصيبها من الانتصار ، ومكانتها من ذروة الفخار .

وفى أزمنة هذه الحروب الصليبية كانت الأمهات يرضعن أطفالهن أفاويق الشجاعة ولبان التضحية ويعلمنهم حب الإسلام قبل أن يشبوا عن الأطواق .

ولما أحرز الصليبيون بعض الانتصارات واستولوا على عكة أصبح الاختلاط بين الفريقين المتحاربين أمرا عاديا . فحاول الصليبيون أن يقوموا بامتحان الذرية الناشئة واختبار الجيل القادم فأقاموا حربا شكلية بين أطفال المسلمين وأبنائهم ، وفى تلك الحرب كانت دروس الأمومة قد آتت أكلها وأنضجت ثمارها فى أبناء المسلمين فغلبوا أعداءهم الصغار وأخذوهم فى ذل الإسار ، وكتبوا للإسلام فى هذا الدور من اللعب مثالا جميلا من الفوز والانتصار .

إلى هنا ينتهى حديث عالم الهند السيد سليمان الندوى عن المرأة المسلمة فى

البلاد العربية ، ثم يبدأ فيحدثنا عن المرأة المسلمة فى غير هذه البلاد ، فإذا بنا نرى الإسلام عظيما قويا قدارتفع بنفس المرأة وسما بمكانتها وأضاء جوانب روحها وملأها بالنبل والمروءة والإقدام ، وإذا بنا نرى المسلمة هى المسلمة فى ديار العروبة وفى غير ديارهم .

* * *

حدثنا العالم الجليل الندوى عن مقام المرأة المسلمة، فأورد لناشواهد وأمثالا صادقة للمرأة التى غمر قلبها الإيمان وأشرق على نفسها نور تعاليم القرآن، فشاركت أخاها أو زوجها أو أبناءها فى ميدان الوغى رافعة معه راية التوحيد، عاملة وإياه على تطهير الأرض من الوثنية والشرك. وإذا كانت المرأة تحت سماء البلاد العربية قد أشرق عليها ذلك النور الإلهى فأضاء جوانب روحها وشمل بالسعادة أقطار حياتها ، فإن الإسلام كذلك لم تكد أشعته القدسية تنبثق إلى غير الديار العربية حتى كان للمرأة نصيبها من ذلك الفيض المحمدى الذى أحال بنى الإنسانية وبناتها فى ضوء هـذا الإيمان إلى ملائكة ينشرون الرحمة أو أبطال يرفعون علم الحق ويصيحون بدعوته العالية ليهدموا دعائم الشرك حيثما كان حتى لا يعرف الناس لهم ربا سوى الله بارئ الأكوان .

ونحن الآن بصدد الحديث عن المرأة المسلمة فى باب الشجاعة والإقدام . لهذا نقدم من غير سيدات العرب أسماء أخرى لفضليات كان لهن فى ميدان البطولة قدم راسخة ومواقف جليلة. وإذا كان الناس قد علموا عن أبطال الترك المسلمين من الرجال سيرا عاليا وآثارا خالدة باقية . فلقد كان للمرأة التركية مقام مشهود فى حومة النضال وثبات مجيد فى مواقف الاستبسال .

كان فى الهند من الدول التركية ملوك يرجع إليهم كبير الفضل فى تعميم معارف الإسلام وتشييد بناء التوحيد رغم الجمهرة الساحقة من الهنادك الذين يدينون بمختلف الأديان . ومن بين أولئك الملوك ملكة بلغت من الشجاعة أوجها ومن البطولة سماءها ، كانت تسمى : « رضية سلطانة » وكان والدها السلطان « ألتمش » قد ذهب يوما إلى صيد الأسود من الأدغال الشاسعة فى صحارى الهند واصطحب فى رحلته نساء الأسرة فى خدورهن ، جريا على عادة الأمراء. وفيما هو ينازل أسدا هصورا وثب عليه ذلك الأسد وكاد يمزقه بأظفاره. فما هى إلا كرة الطرف حتى أقبلت ابنته « رضية » وعاجلت الأسد بضربة قاصمة بسيفها البتار ، تركته على الثرى بين أظفار الموت الذى يقلّم أظفار الأسود . ذلك هو الإيمان بقدر الله وتلك هى الثقة بأن لكل نفس أجلا ولكل أجل كتاب .

نعم ، بتلك الثقة وذلك الإيمان استطاعت فتاة الجنس الرشيق أن تهجم على الأسد بقوة لا تعرف الخوف ولا التردد. وقد تربعت على عرش أبيها أمدا قصيرا من الزمن ، فظن خصومها من أمثال نظام الملك ووزير السلطنة وغيرهما أنها لن تستطيع الاحتفاظ بهذا الملك الباهر ، فجمعوا الجموع وحشدوا الأجناد فى « دهلى » لمحاربتها واستطاعت هى بقوة نفوذها وسعة حياتها أن تردهم على الأعقاب وأن تشرد جموعهم بين المناطق والشعاب. وقد ذكرها ابن « بطوطة » الذى زار الهند فى عهد الملك « محمد تغلق » وبين أنها لم تتخذ زينتها من حلى الجواهر الغاليات ، بل من الأسلحة والدروع السابغات .

ومن الأمثلة الباهرة أيضا فى ميدان بطولة المرأة مابذلته جارية من الجوارى من الشجاعة والتضحية فى حصار حصن كبير من حصون الهند . وذلك أن جنكيز خان هجم بجيش التتار حتى تغلب على ملوك خوارزم وخلافة بغداد وقبض على ناصية إيران وروسيا وغيرهما من الدول العظمى. ولم يستطع أن يقف فى وجهه سوى الملك (علاء الدين) فى الهند . ولما رأى ذلك الملك أنه قد أصبح فى الرفعة المنيعة والعزة القعساء أمام طوفان جنكيز خان الذى كان يجرى سيولا من الدماء فى ممالك الشرق سوى الهند .

جلس علاء الدين فى كبرياء الاسكندر، وقال أمام أمراء الهند : لايستطيع ملك ولا أمير بعد اليوم أن يخرج عن طاعتى . فقال له الأمير كالانير مجيبا : إننى أمين حصن جالور ، وهذا الحصن لا يدين لك بالطاعة فنظر إليه الملك علاء الدين نظرة غاضبة وتركه ثلاثة أيام فى ضيافته ، ثم أذن له فى أن ينصرف إلى قلعته ليزيدها تحصينا ومناعة ، وأمهله ثلاثة أشهر أيضا ليترك له فرصة الاستعداد وإقامة الاستحكامات . ثم وجه إليه علاء الدين جيشا وعلى رأسه جاريته (جُل بهشت) ـ كلمة فارسية معناها زهرة الجنة ـ ثم مضت الجارية معتصمة بإيمانها وثقتها بنصر الله على ذلك (الراجا) الهندوكى العنيد .

ولم تمض أيام حتى وقعت قلعت (جالور) فى حصار كاد يذعن معه أميرها للتسليم : ولكن القدر وافاها بعد مرض عنيف وإذ ذاك انقلب الحمل الضعيف أسدا هصورا ، وبرز من حصنه لمن كان معها من رجالها فقاتلوه إلى أن تم النصر بعد ذلك للمسلمين على يد أحد القواد .

والعبرة فى هذه الحادثة أن أمة من إماء المسلمين استطاعت فى يوم ما أن تقهر أميرا عنيدا كان يعتصم بحصنه ضد علاء الدين ملك الهند كلها . واستطاعت امرأة بل نصف امرأة أن تفل شوكته وأن تقوض منعته .

إن الإيمان الصادق يرفع النفس البشرية من حضيض الضعف والاستكانة ويسمو بالطبيعة إلى ما هو فوق جهدها فى الحياة ! فالمرأة الضعيفة التى ليس لها قوة ولا حول إذا أضاءت بأنوار الإيمان مشاعرها استطاعت أن تقوم بالمعجزات وأن تحقق أسمى الغايات .

هذا هو الإسلام الصادق ، ولمثل هذا فليعمل العاملون . ؟

لمحات مترجمة

١ — مبادئ :

كن صادقا إذا شئت أن يثق الناس بك . وكن نقى الضمير إذا أردت أن تصدر أفعالك نقية طاهرة . كن قوى الإيمان إذا شئت أن لا تنهار أمام الشدائد.

كن شجاعا إذا أردت أن تنهزم أمامك الكوارث والخطوب . كن صديقا لمن لا صديق له ، إذا أردت أن يحبك من لا يعرفك . انس الهدية التى تقدمها إذا شئت أن ينسى العالم أخطاءك وإساءتك .

كن متواضعا ، إذا شئت أن يحترمك الناس . كن قوة رافعة لإخوانك لتنال الرفعة بين الجميع .

كن فى آلامك صابرا كتوما لقصص آلامك وإلا فر العشراء من مسمعك ومنظرك . اطبع على شفتيك ابتسامة الرضى ، وليكن محياك مشرقا بالأمل فإن السحاب يفر أمام إشراق الضياء .

٢ — الأخوة :

الأخوة كلمة سحرية، وألفاظ حروفها من اللؤلؤ ، ومعانيها من كنوز الله. الأخوة تبنى المدينة وتشيد المملكة وتحفظ الأمة. الأخوة فى الدنيا أغلى من الدنيا وفى الحياة أثمن من الحياة الدنيا تفنى وفضل الأخوة يبقى . الحياة تزول ، وبناء

الأخوة لايحول . إن هذا العالم يبلى والأخوة تجدده ، وأعمالها تخلده . ولكن الإخاء لايدوم إلا حين يغذيه الإحسان ، وتنميه صنائع المعروف .

لا تظن أن العطف على الصداقة يتحقق بمجرد كلمات تتحرك بها الشفاه ثم تذهب مع الهباء . كلا: إن الصداقة نار القلب المصحوبة بالندى، وإيمان الروح المشرق بالهدى .

إنها الرابطة الوثيقة بين أولئك الذين يعملون فى ضوئها المتكامل الذى يسعد به الجميع . إنها الأيدى القوية التى تعمل متعاونة . إنها بسمات الشفقة والرحمة والحنان .... إنها المودة الصادقة التى تمحو ضباب الأحزان .

ياضياء الإنسانية والإخاء ، طارد بقوتك ظلام البغضاء ، حتى تزول عن أنفسنا الشكوك والوساوس عسى أن تشاهد الأمم مرة أخرى وجه السعادة — التى اختفت خلف مطامع المتحاربين . ؟

المؤاخاة فى الإسلام

قصيدة عامرة كتبها العالم الكبير « دل محمد » عميد الكلية الإسلامية سابقا بلاهور فى الباكستان .

ومن هذا يتبين للقراء الكرام كيف يستمسك شعراء الباكستان بعروة الدين ، والتغنى بمآثره ، وهم فى بلاد لا يتكلمون فيها باللغة العربية . ولا أظن أن ترجمة مثل هذا الشعر مستطاعة لمن يعرف اللغة « الأردية » وحدها ، فلابد من معرفة السيرة النبوية ، والاطلاع بكتب السنة المختلفه دون الاكتفاء بمجرد الألفاظ واللغات . ونكتفى بهذه العجالة لنعود إلى الشعر ، قال :

غرس الأخوة أصله من يثربِ ... هى جنة المأوى وغارسها النبى
إن ضلت الدنيا أعاد صوابها ... نور المدينة لا شعاع الكوكب
فترابها تبر الغنى ونسيمها ... ري المنى ، وشفاء كل معذب
بعث النبى بها الجماعة موكباً ... فإذا الملائك فى صفوف الموكب
وسقى الأخوة كوثراً من نوره ... فالظامىء الحيران من لم يشرب

* * *

والسابقون الأولون لحبه ... قد خلفوا الأوطان والأوطارا
لم يذكروا مالا ولا ولدا ولا ... زوجا ولا أهلا ولا أصهارا
تركوا جوار الظالمين ـ فبدلوا ... بالأهل أهلا والديار ديارا

يا فوز أحرار العقائد عندما أهدى الإله إليهم الأبرارا
فإذا الجميع مهاجرون لجنة وترى الجميع لدينه أنصارا

* * *

هذا هو الهادى الكريم وصحبه قمر منير والنجوم جنود
كأس من الوحى الطهور روية قد طاب منها للقلوب ورود
أضحوا فراشا حول مشكاة الهدى والصبح من آياتها مشهود
الصدق والإيمان نور قلوبهم والاتحاد يقيمه التوحيد!
لم يعرف الفلك المدار كوكباً كوجوههم والنيرات شهود

* * *

تتجاوب الدنيا بعهد أخوة هى للحياة سعادة وخلود
فليسعد المحروم ، وليستبشر المـ ـظلوم ، والمحزون والمكدود!
وعمارة الأكوان بعد خرابها قد حان فيها للعلا تشييد
بل عاد فى أبناء آدم بعده فى أرضهم فردوسه المفقود!
يهدى الإخاء نعم وليس بغيره أمل ، ولا عمل ، ولا تجديد

* * *

قال النبى لقد بنيت إخاءكم ووصيتى : أن تحفظوا بنيانى!
فإذا تفرقتم تبدد عقدكم كتفرق الحصباء فى الميدان
فى الخلق أو فى البعث كونوا واحدا كالنفس واحدة بكل مكان
نار العداوة من عذاب جهنم وحمى التآخى جنة الرضوان

هو ناثر الأموال فى حقل السلا م وناثر الأرواح فى الميدان

* * *

جعلوا الإخاء قرابة موصولة من دونها أمسى القريب بعيدا
فاعجب لمن يعطيك آخر قوته مستخفيا ، كى لايهين الجودا !
ويموت ظمآنا ليروى ظامئا وينال من حوض النعيم ورودا
إن المحبة يوم تغرس حبة تدع الفضاء حدائقا وورودا !
وترى كنوز العالمين كلاهما لك فى ازدياد ، إن أردت مزيدا

* * *

يتبادلوون دماءهم وقلوبهم لوكان هذا البدل فى الإمكان
وإخاؤهم عمل وليس لغيرهم إلا أخوة منطق ولسان
فإذا سمعت من الحجاز مناديا فجوابه : لبيك « فى جرجان »
وإذا استجار الحق فى « عموريا » وثبت أسود الله من بغدان !
بلغ الإخاء بهم أعز مكانة ملكوا بها فى الأرض كل مكان

DATE DUE

JAFET LIB.
26 JAN 1978

J. LIB.
10 APR

891.558:I64YaA:c.1
الاعظمي، محمد حسن
فلسفة اقبال والثقافة الاسلامية في الهند
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01036623

891.558:I64YaA c.1
الاعظمي
فلسفة اقبال والثقافة الا

891.558
I64YaA
c.1

181.07
I649yaA
c.1